رواية

سيرتا

أرض الحب العتيق

CIRTA

مكتبة نوميديا 113
Telegram@ Numidia_Library

محمد الإدريسي

رواية سيرتا

(أرض الحب العتيق)

تأليف: محمد الإدريسي

الـ سيرتا (أرض الحب العتيق)
المؤلف: محمد الإدريسي
تدمك: 878-977-6583-04-7
رقم الإيداع: ٢٠١٦/٢١٢٤٦
تصميم الغلاف: آلاء محمد
مراجعة لغوية: أحمد إمام
دار حرف للنشر والتوزيع
ت: ٠١٢٧٩٩٤٤٨٣٨ / ٠٢٢٤٠٥٩٥٣٦
Email :Hrf_publishing @ yahoo.com
105 عمارات امتداد رمسيس ٢ - مدينة نصر

جميع الحقوق محفوظة للناشر

حرف للنشر و التوزيع

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية
يعرض صاحبه للمساءلة القانونية،
والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

- إهـــــداء:-

إلى تلك الفتاة زمردية القلب الساكنة في بيت خوصي صغير بجوار عرش الرب..

أقول لكِ بصدق:

- شكرًا لكل شيء قمتِ به من أجلي..

لقد عشت طويلاً بدونكِ في قيعان سوداء

سحيقة ذات حراشف أدمتني حد الغرق،

ولكن إن وصلتكِ يومًا نسخة من هذه الرواية ستجدين في مُقدمتها سؤالاً أطرحه

لتُجيبي عليه متى شئتِ ولو حتى بعد ألفية.

- هل تصبحين حبيبتي مُجددًا؟

مقدمة المراجع/ الكاتبة صفاء حسين العجماوي:

إنها المرة العشرون التي أحاول فيها كتابة مقدمتي لهذه الرواية، سيظن البعض أني أبالغ، ولكن ما أسهل أن تكتب مقدمة لعمل راجعته بعد انتهائه، ويا لها من صعوبة أن تقدم عملًا شاهدت مولد كل حرف فيه، وتابعت آلام مخاض نصوصه، يا لها من آلام! كم عانيت مع تلك الرواية، لقد أرهقتني "سيرتا" كثيرًا عند كتابتها، وعند مراجعتها، وحتى عند كتابة تقدمة عنها، تعتبر رواية سيرتا من الروايات الرومانسية الراقية جدًا التي ندر أن نجد مثلها في هذا الزمن الذي سادت فيه رومانسية بلهاء مشوهة تحمل من الإسفاف والسفه وتشويه للقيم والأخلاق والدين، يعرف المقربون مني زهدي في قراءة الأعمال الرومانسية لضحالة ما يكتب في الوقت الحالي، غير أن سيرتا كانت مختلفة سرقتني من ذاتي وجعلتني جزءًا من الأحداث، أذكر أنه من شهور طويلة حدثتني صديقتي الجزائرية ميراج مسئولة مجموعة على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك تحمل اسم "عشاق الكتب الجزائرية" عن شاب مصري- عضو بتلك المجموعة والتي أنا بها كذلك- يكتب رواية رومانسية بشكل مختلف، وقدمت لي محمد الذي أبهرني بنص قصير من روايته، ومن يومها أصبحت أتابع روايته الوليدة نصًا نصًا، لأعدل أو أناقش أو نضيف كلمات بسيطة، مرت الأيام وروايته تزداد قوة وإبهارًا وجمالًا وإبداعًا قل أن نجد مثله. يمتلك محمد قلمًا ساحرًا يجذبك من ذاتك يغوص بك في أعماق شخصياته التي رسمها بحب، موسى وأميرة بطلا الرواية من جنسيتين مختلفتين فموسى مصري وأميرة جزائرية لم تقف المسافة حائلًا أمام الحب ولكن تصرفات وسلوك الأشخاص هي التي تحكم على بقاء الحب أو موته، أخذنا محمد إلى

بلدان كثيرة في رحلة موسى دون أن تشعر بالملل أو بضعف الوصف، بل تشعر بالألفة وكأنها رحلتك أنت ليفاجئنا بنهاية لم نتوقعها، شرفت بمراجعتي للرواية وبتقدمتها للقراء، أتمنى أن تنتظروا معي الوليدة مطبوعة في أيدينا نحملها بحب لتحملنا إلى عالم راقٍ من الرومانسية والحب الخالص المنزه عن الأغراض.

الكاتبة/ سفاء حسين العجماوي

القاهرة ٩ أغسطس

كلمة الكاتب:-

الحب لا يعرف خطوط الطول ودوائر العرض.. الحب لا يمكن أن تقيده حدود الأوطان.. لا تنتظره أن يركض نحوك عبر الشوارع الخلفية لضاحيتك بل أبحث عنه بإرادة حرة فلربما يترقب وصولك وسط غابات الهند أو في مقاهي باريس.. كن أكثر عمقًا في البحث عنه فقد يكون راقدًا خلف شاشة حاسوبك أو يناديك لتلحق به عند سفح الأهرامات.. ابحث عنه جيدًا وعندما تجده لا تخبر أحدًا.. خذه واركض معه فوق جسور سيرتا القديمة.. فهي أرض كل ما هو عتيق..

محمد الإدريسي

يوليو ٢٠١٦

تنويه:-

هذه الرواية هي عمل خيالي.. ويؤكد المؤلف أن جميع الأسماء والشخصيات والأماكن والوقائع الواردة ضمن الأحداث هي من وحي الخيال ولا تربطها أية صلة بالواقع.. ويؤكد أيضًا أن أي تشابه بين الأسماء والشخصيات والمؤسسات الوارد ذكرها بين دفتي هذا الكتاب وبين نظيرتها في العالم الحقيقي هو من محض المصادفة.

"أحبك.. وأنا أيضًا"

رُبما كانت هذه الجملة هي في الغالب افتتاحية مقدسة لكل علاقة عاطفية حدثت يومًا بين أي شاب وفتاة فوق هذه اليابسة.. فالحب وعد وقدر كالموت والحياة.. وليس لديك شيء تقدمه لمن تحب إلا قلبك.. هذا إن كنت شجاعًا كفاية وإن كنت تريد حقًا إغلاق دائرتكم الوردية الخاصة كما يجب.. تلك الدائرة التي تلتف حول معصميكما لتُعلنا حبيبين ويكون لكما مكان تحت الشمس.. وكالعادة لدينا أطراف بديهية لهذه الرواية.. في البداية إليكم تعريف بسيط عن ذاك الشاب الحالم أو بالأحرى المفتون.. اسمه (موسى عبد الناصر).. شاب مصري يافع عشريني يحمل اسمًا مصريًا بامتياز مُكونًا من مقطعين (موسى) و(عبد الناصر).. فالأول هو ابن الماء.. رهيب النيل الكليم.. والثاني أحد أهم رموز مصر السياسية في العصر الحديث.. ولتفاصيل أكثر عنه لك أن تعرف أنه شاب يتيم الأم ذو أصول تمتد لصعيد مصر ولكنه يعيش الآن في مدينة الإسكندرية.. طويل أبيض البشرة ذو عينين واسعتين بلون القهوة ورثهما عن أمه وأنف دقيق منحوت كأنه قائد جرماني قديم ولحية كثيفة سوداء.. في الواقع ذلك الشاب يمكن أن تقول عليه أنه يمتلك من الوسامة الشيء الكثير.. يبلغ من العمر حين بدأت أحداث هذه الرواية ٢٢ عامًا أتمها للتو.. يدرس التاريخ داخل أروقة جامعة مدينته الساحلية.. والآن ينتقل حديثنا إلى (أميرة مجيد) نصف صديقنا الآخر وشقيقة قلبه.. لا يمكن أن تصفها بسهولة فهي فتاة جزائرية كأنها خُلقت من نور..

جميلة كأنها الشمس في صباحات الربيع.. عيونها خضراء كسهول بلادها.. عندما تتحدث يُذيب صوتها جلاميد الصخر.. قلبها أكثر بياضًا من لون بشرتها الثلجي.. تبلغ من العمر ٢١ عامًا وتدرس علم الأحياء وبالتحديد قسم مكافحة الخلايا السرطانية.. عندما تراها لا يمكن أن تعتقد بأن هذه الفتاة تتخصص في علم قاس كهذا ولكن ربما هي في المكان المناسب فحتى السرطان نفسه لا يقوى على النظر في عينيها إنها فتاة لا تتكرر ولا يمكن أن تجد منها نسخة أخرى أو هكذا كان يراها.

الفصل الأول

(زهرة حمراء)

حبيبان نحن إلى أن ينام القمر.

***محمود درويش.**

إننا الآن في الشهر الأول من العام ٢٠١٢ كانون الثاني/ يناير.. شتاء مصري قارس جديد يصطحب معه الكثير من التفاصيل والحكايا الشتوية الدافئة لذلك الشهر الثائر دائمًا.. فلقد مرت الآن سنة كاملة على الثورة كما مرت سنة كاملة على اندماج (موسى) في محيطه الجديد.. محيط غيبه عن واقعه وفصله عن كافة الماديات وقوانين الزمن والطبيعة فحتى إن سقط نيزك فوق سقف غرفته فهو لن يبالي به طالما حاسوبه مازال بحالة جيدة.. ففي بدايات العام الماضي وبعد نجاح الثورة ظهرت على السطح منتديات إليكترونية تفتح مجالاً واسعًا للحراك الشبابي منها منتدى لأحد الدعاة المصريين الشباب الذي يحظى بقبول شريحة واسعة لدى أواسط مناصري المد الثوري المتصاعد وأيضًا يحظى بقبول واسع لدى الشباب خارج مصر فكان المنتدى الخاص به أشبه بتجمع شبابي عربي ضخم متعدد الثقافات.. ثائر.. ومتطلع بطمح لما بعد إسقاط الديكتاتوريات.. وبعد أن عاد (موسى) للإسكندرية من عطلة قصيرة قضاها رفقة عمته في مدينة الإسماعيلية اجتاحته رغبة شديدة في الجلوس داخل شرفة المنزل ليُراقب السماء باحثًا عن شيء ما أو مُنتظرًا لشيء ما.. لقد ظل جالسًا منتظرًا دون هدف واضح رغم الصقيع المُحيط به وكأنه ينتظر المجهول فرُبما شعر أن حياته لم تعد كالسابق وأن أمرًا جللاً سيحدث وبعد أن شعر ببعض التململ عاد لغرفته ليفتح حاسوبه.. ذلك الحاسوب الذي سيلقي به في غياهب جب أعمق من ذلك الذي اتفق أخوة يوسف أن يلقوه فيه.. يبدو أنها عذابات من نوع آخر فجحيم العشق ما أشده من سعير!!.. فانتقل مباشرة نحو المنتدى الإليكتروني الخاص بذلك الداعية الذي تحدثنا عنه سلفًا.. ثم سجل الدخول كعضو وكتب موضوعًا

تعريفيًا عن نفسه وعن أفكاره لما بعد الثورة.. وبمرور الوقت استمرت الأحوال هادئة فاستمر في التواصل مع ذلك المجتمع الافتراضي حتى أصبح ذلك المحيط الرقمي هو بالفعل منزله.. فاشتهرت كتاباته كثيرًا بين أواسط الشباب هناك وبدأ يستعرض رشاقته الفكرية وكيف يصنع حالة الرواج لما يؤمن به دون التعرض لمصادمات ليصل به الحال بأن يكون صاحب المنشورات الأكثر شعبية والتي ينتظرها رواد الموقع بشغف وكانت من ضمن هؤلاء الرواد فتاة أقرب ما تكون لنجمة تلمع في سماء معتمة تلك الفتاة ستكون (لموسى) نبضًا يوازي نبض قلبه.. ستكون في قادم الأيام صخرة يتحطم عليها صاحبنا ألف مرة ويستعيد عافيته ثم يتحطم عليها مرة أخرى.. من الممكن أن نقول أنها أداة تعذيب جاءت من العصور الوسطى لتكون آلامها من نصيبه.. نحن أمام شاب ذاب بالكلية في تلك الفتاة.. نحن أمام قصة حب حدثت في تلك الأراضي ما وراء قوس قزح في زمن ما غير محدد ولكنها ضلت الطريق فتواصلت أحداثها في المكان والزمان الخطأ.. إن الطقس بارد حقًا والنوافذ تجلط عليها الضباب بشكل يوضح أن الصقيع بالخارج أكل عليها وشرب.. هيئة (موسى) تبدو غريبة فرغم أنه يرتدي كنزة صوفية ثقيلة وسروالاً شتويًا يبدو كأنه من عصر المماليك لغرابة تصميمه إلا أنه يرتجف بشدة حتى أن كوب الشاي الذي بين يديه في غالب الأمر سيسقط قريبًا.. الهدوء يسود الموقف باستثناء مدفأة كهربائية توجد بالخلفية لا تكف عن الطقطقة والصرير كأنها تنين جاء من الصين القديمة ليستقر في تلك الغرفة.. في الحقيقة إن حياة ذلك الشاب أشبه بمؤشرات الأسهم الخضراء الآخذة في الارتفاع لشركات النفط العملاقة التي لا تتأثر أبدًا بأزمات الأسواق المالية.. إنه فتى وحيد

لأسرة غنية يمتلك من المال والعقار ما لا يمكن أن يمتلكه شاب آخر بنفس عمره إلا إن كان فتى وحيد لأسرة غنية هو أيضًا.. ومع ذلك فإن الحياة لم تكن تحظى بتعريف واضح لديه فهو لا يعتبرها مسألة مصير فقد يراه البعض يعيش حياة مترفة فواحة كحقول الأزهار الهولندية ولكن هو كان يعتبرها في بعض الأحيان مأساة.. فكل ما يملكه هو في الحقيقة لا يملكه بل تعود ملكية كل شيء للوالد الغائب دائمًا.. وعلى الجانب الآخر الموازي للعالم وفي مجتمع افتراضي أصبح ذلك الفتى ينتظر تعقيبات من شخص معين على ما ينشره.. يظل أمام حاسوبه بالساعات يرمق الشاشة بنظرات تحترق بجمر الانتظار.. وبعد مرور الوقت زحفًا كسلحفاة عجوز ها هو التعقيب المنتظر يأتي لتتسارع دقات قلبه بشكل مضطرب أقرب إلى العشوائية.. هذا ليس نبضًا موسيقيًا على أية حال.. ولكنه يبدو وكأنه استنشق قليلاً من مسحوق زهرة الخشخاش لأن ملامحه أصبحت أكثر ارتخاءً ولمعت عيناه بسعادة غير مُسببة أو ربما هي نشوة لقاء الحبيب!.. نعم.. حبيب!.. لما الاستغراب؟.. قد يظن البعض أنها مزحة بها من السماجة ما يكفي لتصدر عن شخص ثقيل الظل داخل حانة.. ولكن تلك هي الحقيقة.. الفتى يُحب.. ولكن كيف يُحب أنثى لم يرها ولم يسمع من شفتيها حرفًا واحدًا! هذا السؤال لن تجد له إجابة لأن صاحبنا لا يعرف إجابته.. فهو يشعر بأن تلك الفتاة الافتراضية ستكون هي فتاة حياته هذا الشعور يجذبه من كنزته الصوفية نحو شاشة حاسوبه كملاكم يجذب ضحيته لركن ما على الحلبة ليوسعه ضربًا.. وهذا يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن المعجزات مهما كانت غير قابلة للتصديق فهي جزء من الواقع ويمكن أن تحدث بغض النظر عن طبيعة الأشياء والأشخاص والأزمنة..

(موسى) يعاني من هذه المشاعر منذ شهر تقريبًا ولكن ماذا إن كانت متواضعة الملامح على غير المأمول وهو المغرم بالجمال!!.. يقول لنفسه:

– مستحيل أن تخذلني حواسي.. هي جميلة أنا متأكد من ذلك وهذا يكفي. ولكن الشيء الأهم الآن ليس إن كانت فاتنة أم لا.. الأهم هو كيف يخبرها؟؟.. جلس على كرسي بجوار النافذة وأسند رأسه للحائط وظل يفكر بعمق وقرر أن يقول:

– مرحبًا يا فتاة كيف حالكِ!!

أجل كان يعرف أن هذه الجملة بها من الغباء ما قد يُكلفه خسارة فتاته المحتملة للأبد.. هذا الفتى قديم الطراز بصورة لافتة.. كرر المحاولة ليصيغ افتتاحية مناسبة فلاحت في ذهنه فكرة تغنيه عن ساعات الانتظار الممل لتعقيباتها في المنتدى.. هناك موقع للتواصل الاجتماعي استطاع أن يفجر ثورة أطاحت برأس النظام الفاشستي شخصيًا أليس من الممكن أن يساعده في الفوز بقلب تلك الفتاة وامتلاكه؟؟ هذا يبدو أسهل من شرب كوب من الماء.. فعن طريق أصدقاء المنتدى المتواجدين على فيسبوك يستطيع البحث عنها أو هي ستظهر لا محالة عاجلاً أو آجلاً.. ولكن تظل المشكلة هنا كيف سيخبرها؟؟.. عقد حاجبيه وقال:

– الفتيات لا يمكنك أن تتنبأ بميولهن ولكن على أي حال بعد أن أطمئن على أخبارها وأنتهي من الرسميات المصاحبة لأي محادثة سأطرح عليها سؤالاً.. لا أجد طريقة لصياغته الآن ولكن ذلك سيحدث.. فقط لندع كل شيء يسير حسب ما قُدر له.

فأتم اشتراكه في ذلك الموقع الذي يأمل في أن يمنحه حجر الأساس لعلاقة يتمناها بشدة مع فتاة لم يرها من قبل!!.. يعود في المساء والده من عمله بعد دوام طويل بمكتبه في كلية الصيدلة وبعد أن يستحم ويسترخي قليلاً على الأريكة يجلس (موسى) بجوار والده على طاولة الطعام يشاهده وهو يتناول عشاءه البسيط المعتاد قطع الجبن الأبيض وقليلاً من الخضراوات بجانب كوب من الشاي ويستمع لوالده (د/ عبد الناصر) وهو يقول:

– إن هذا العشاء رغم بساطته إلا أنه يذكرني برائحة جدتك.. فعندما كنت صغيرًا عانيت من النحافة أو هكذا تصورت أمي فلجأت لخلطات الأجبان حتى تجعلني أبدو أكثر سمنة مما أنا عليه.. كانت بارعة بخلط المكونات بمقادير قياسية دقيقة للغاية.. كانت حقًا من أمهر طهاة القرية بأسرها.. هكذا هي دائمًا وأبدًا صفات الأم الجنوبية.. الحنان الطاغي وعبقرية إدارة الأزمات.

وهنا قام بمقاطعة والده قائلاً:

– بما أنك تتحدث عن الجنوب وأنت قد زرته من عدة أيام مضت.. كيف أحوال عائلتنا في الصعيد؟ هل مازالت خلافاتنا مع قبائل الهوارة قائمة؟

أجاب الوالد بغير اكتراث:

– أحوال أهل الجنوب لا تتغير مطلقًا باستثناء تقدمهم في السن.. فالحب والحرب والنار والدم والكرم الحاتمي والنخوة أساسيات لا تتغير لأنه ببساطة القانون هناك واضح "القبيلة تحكم".

استغل (موسى) الحالة المزاجية الجيدة لوالده هذا المساء وسأله:

– أبي.. حدثني قليلاً عن حياتك مع أمي.. هل كنت تحبها؟

سرت رعشة خفيفة في جسد والده فصمت طويلاً ثم قال:

– لا أجد إجابة على سؤالك أوفى من أنها أخذت معها جزءًا من روحي حين رحلت.. كانت بالنسبة لي أيقونة مقدسة وكانت مغرمة بك أكثر مني.. كانت تدللك ليل نهار بطريقة تكاد تكون ملكية.. ومن الجيد أنك ورثت عنها ملامحها بالكامل لتراها في المرآة حين تنظر لنفسك.. لقد ورثت عنها جمالها حقًا ولكن تمتلك عقلاً لا قيمة له ربما البرتقالة أكثر فائدة منه

ضحك (موسى) وقبل رأس والده ثم جمع أطباق العشاء ليغسلها فيما بعد.. وخلال لحظات سمع صوت والده يأتي محذرًا ليقول:

– سأخلد للنوم الآن لأستعد لمقابلة رئيس الجامعة غدًا بشكل لائق.. لا تحدث ضجة حتى لا أجعلك تندم على ذلك.

هز رأسه وهو يبتسم وأطفأ أنوار المنزل ما عدا غرفته حيث جلس فيها على كرسيه الهزاز وأخذ يحرك أقدامه بصورة تلقائية وهو ينظر لسقف الغرفة ويفكر كيف يمكن له أن يفوز بقلب تلك الفتاة التي لا يعرف اسمها.الكامل حتى الآن!! واستمر على ذلك حتى غط في نوم عميق.. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي وعلى بعد آلاف الأميال عن الإسكندرية كانت تجلس وحيدة على مقعد خشبي في باحة جامعة منتوري المركزية وهي تطوي إحدى قدميها أسفل منها ثم بدأت الأمطار في الهطول برذاذ خفيف سرعان ما اشتد وحجبت الغيوم ضوء الشمس خلفها منذرة بصباح كانوني ماطر وهذا ما جعلها تسرع في العودة لقاعة المحاضرات أو ربما ستتخذ قرارًا بالعودة إلى المنزل قبل أن تغرق شوارع المدينة.. وبالعودة إلى الإسكندرية الباردة هذا الصباح استيقظ (موسى) بعد معركة مريرة بينه وبين رنين المنبه كالعادة.. فاليوم سيعمل جاهدًا كي ينتهي من جميع الالتزامات قبل السابعة مساءً؛ لأنه قرر أن يبعث

أول رسالة لصندوق بريدها الإليكتروني.. وسيظل يتدرب على ذلك كثيرًا وكأنما سيقوم بتحضير خطاب الاستقلال بدلاً من غاندي.. ارتدى سترة شتوية زرقاء وأتبع فطوره بفنجان من الشاي واستعد لبداية يوم حافل ولكن ستمر الساعات القادمة بطيئة ورتيبة إلى أبعد حد يتخيله.. وفي الواقع ستكون الثواني الفاصلة قبل أن يضغط على زر الإرسال بمثابة قرون من الصمت.. سيكون من الصعب على ذلك الشاب أن يخبر فتاته بما يحويه صدره ليس لأنه خجول ولكن لأنه عاش طفولة سمتها التلعثم في الكلام والأفكار فبعد وفاة والدته انتقل من بيت جدته إلى عمته ثم هكذا بالتتابع وكان يعاني من الارتباك والتلعثم أثناء الكلام حتى أنه عندما وصل لسن السادسة امتنع عن الكلام تمامًا حتى يتجنب سخرية زملاء الدراسة وظن المعلمون أنه مصاب بإعاقة أو ما شابه وفي المقابل تحمل والده مسئوليته بعطف أبوي بالغ وكان دائمًا يقول له:

– إذا تمكنت من قراءة الصحيفة بصوت عال يمكنك أن تقول أي شيء تريده بعد ذلك بدون تلعثم!! وكان محقًا!!

ويبدو أنه سيضع ثقته الكاملة بتلك الفتاة وسيعتبرها أُمًا بديلة ولكنه لن يحكي لها عن الأبواب الخلفية لطفولته وربما سيفعل هذا ليتجنب أي شعور بالشفقة يصدر منها نحوه.. فهو لا يريد ذلك.. بل يريد حبًا يتعدى مرحلة الشغف وسيكون له ما أراد في القادم القريب.. وسرعان ما انتهى من أداء ارتباطاته في الجامعة والقيام ببعض التسوق لجلب أغراض قد حددها له والده سلفًا.. الآن الساعة تدق بطنين يبدو أعلى من المعتاد ولكنه ليس أعلى من ضربات قلبه وتشير عقاربها إلى تمام السادسة مساءً هذا يعني بقاء ٦٠ دقيقة فقط على

إرسال أولى الكلمات لفتاة تبدو كالشفق ساحر ولكنه يخفي الكثير من التفاصيل.. جلس بهدوء تام أمام الحاسوب وأخذ يُصقل شجاعته مرارًا وتكرارًا ويبدو أن أصابعه أصبحت مرتعشة لا تقوى على الضغط فوق لوحة الأزرار الخاصة بحاسوبه ولكنه تذكر كلمات قالها والده قبل سنوات وظلت في عالقة في ذاكرته:

– اجتهد قدر ما تستطيع في كل عمل تُقدم عليه لأن ما دون ذلك يُعد شكلاً من أشكال الخذلان والمتخاذل ليس رجلاً.

أراح رأسه تدريجيًا على خلفية المقعد وقال لنفسه:

– إذن يجب أن أتكلم معها دون تصنع.. سأتكلم معها بذاتية متجردة وبما أنا عليه دون رتوش وسأخبرها بكل شيء وربما ذلك يحدث على دفعات ولكنه سيحدث فحتى وإن قامت برفضي فلن أندم لأنني تصرفت كرجل وهي ستقدر لي ذلك.

أما هي فقد عادت لمنزلها بعد يوم شتوي ماطر.. عادت وهي تحمل معها أمتعتها المبللة ودفترًا صغيرًا أفسدته المياه.. تخلصت من ملابسها الرطبة واستبدلتها بأخرى أثقل وأكثر جفافًا.. سحبت أحد كُتيباتها وجلست في الردهة لتحتسي فنجانًا من القهوة بركن هادئ يمنحها بعض الخصوصية ولم تكن تعلم أن هناك على الجانب الشرقي لساحل البحر المتوسط يوجد فتى أنهكه الانتظار حتى يتمكن من مراسلتها.. وبطريقة ما شعرت فجأة بالضجر الغير مُسبب وستبحث عن حاسوبها وستقوم بتشغيله ربما لاستكشاف أخر المستجدات من أخبار ومقالات وأحداث ولكن في الحقيقة هي بطريقها للاصطدام مع شاب تُعجبها نصوصه ويعجبه غموضها.. هي تعرفه كعضو

الفراضي في مجتمع له نفس الصفة ولكن قريبًا سيتغير كل شيء.. سيتغير للأبد.. فمازال القدر يمارس نفس اللُعبة منذ الأزل.. يجمع شاب وفتاة على غير موعد سابق ويفرقهما بالآلية ذاتها.. نحن عبيد للأقدار فهي تتحكم بنا كدُمى تتحرك بخيوط من حرير على مسرح بمساحة السماء.. وكل ما نملكه أن نتضرع للقدير ليهب لنا أقدارًا توازي أحلامنا.. أقدارًا تجمع ولا تُفرق.. أقدارًا تمنح قلوبنا السلام بدلاً من أن تترك لنا أرواحًا مهترئة وآمالاً مُرقعة.. فالقدر والزمن مفاتيح لبوابة واحدة.. بوابة تحجب خلفها أراضٍ شاسعة فيها الحب وعقارب الساعة متشابهان.. فكليهما لا يمكن أن نقيده أو نسبق سرعة أحداثه.. ولهذا أعتقد أن كل ما سبق هو صحيح بنسبة كبيرة ولكن هذا ليس كل شيء!! فهناك دائمًا إجابات للأسئلة مهما كانت معقدة وأيضًا توجد هناك ثغرات في الجدران مهما كانت صلبة.. قد يتطلب الأمر الكثير من الجهد ولكن في النهاية سنعبر الحواجز.. ولكن علينا أن نتذكر جيدًا أنه لا سعادة بدون دموع.. فقط دموع الحب المريرة هي من ستقودنا نحو الإلهام.. دموع سيذرفها بطل قصتنا بسخاء.. الآن الساعة في الإسكندرية تشير إلى السابعة إلا خمس دقائق مساءً.. أمام (موسى) خمس دقائق ليبحث عن صفحتها الشخصية بموقع الفيسبوك إن كان يريد أن يحادثها في تمام السابعة وها هو وجد ما يبحث عنه في أقل من ثلاث دقائق بعد بحث سريع.. اسمها (أميرة مجيد) فتاة جزائرية تدرس علم الأحياء قسم مكافحة الخلايا السرطانية هذا ما يعرفه عنها حتى الآن بالإضافة لتاريخ ميلادها الموجود على صفحتها الشخصية ولحسن الحظ فهو أكبر منها بست شهور وهما مواليد نفس السنة ١٩٩٠.. معلومات قليلة ولكنها كافية بشكل مؤقت.. وبعد مد وجزر والكثير

من الفرضيات أخيرًا سيبعث لها رسالة.. أخيرًا سيقطع أول خطوة نحو قلبها البعيد المستقر خلف ضلوعها وتفصله عنه الصحراء الكبرى وأمواج المتوسط.. استجمع قواه وضغط على زر الإرسال لتدور بينهم هذه المحادثة:

– السلام عليكم.. كيف الأحوال؟؟ لعلها بخير وكل شيء على ما يرام!! أنا (موسى) أظنكِ تملكين فكرة جيدة عن شخصي..

– وعليكم السلام ورحمة الله.. أهلاً بك.. نعم بالتأكيد أعرفك وتشرفت بلقائك.. أنا بخير حال وأتمنى أن تكون أنت أيضًا كذلك..

– الحمد لله كل أموري جيدة باستثناء أمر واحد.

– ما هو؟؟

– أطرافي تكاد تسقط من شدة البرودة.

– لا عليك.. نحن أيضًا نعاني من شتاء قارس.. مجرد أعراض مؤقتة وستزول بالتدفئة الجيدة المهم أن تحافظ على إبقاء حرارة جسمك ثابتة.

– يبدو أنكِ بارعة في التشخيص الطبي؟؟

– ليس كثيرًا فأنا مجالي دراسة الجينات السرطانية فقط ولست متخصصة في أي مجال طبي آخر ولكن معلوماتي لا بأس بها.

– أرى لكِ تعليقات كثيرة على ما أنشره في المنتدى والكثير منها يسعدني حقًا.

– أشكرك هذا فقط لأنك تتمتع برحابة صدر وتتقبل التعقيبات بمرونة ويسر واضحين.

– لسيت أن أتمم لكِ التعريف بنفسي.. أنا أبلغ الثانية والعشرين.. أدرس التاريخ القديم في الجامعة وأعيش في مدينة الإسكندرية ومن المؤكد أنكِ تعرفينها؟!

– نعم بالطبع ومن لا يعرف عروس البحر المتوسط مدينة الإسكندر الأكبر.

– يبدو لي جليًا أن معلوماتك التاريخية توازي معلوماتك الطبية في البراعة.

– في الواقع معلوماتي التاريخية قليلة للغاية ولكني أعيش في مدينة لها تاريخ راسخ.. هي قسنطينة أو سيرتا القديمة عاصمة الشرق الجزائري عاصمة نوميديا.

– بالفعل مدينة عريقة ولها تاريخ حافل.. أعلم عنها الكثير بحكم دراستي.

قاطعته قائلة:

– معذرة يجب أن أذهب الآن لمساعدة أمي في أمر ضروري.. سعدت بلقائك.

– على الرحب والسعة.. وللحديث بقية.

كانت محادثة قصيرة ولكنها مقدمة جيدة لما سيتبعها من أحداث ولكن أكثر ما لفت انتباهه هو لباقة حديثها يبدو أنها تتمكن شيئًا فشيئًا من قلبه بسرعة قياسية لم يتوقعها.. رمق الساعة القديمة المُعلقة على الحائط بنظرة انتصار وزهو.. تلك الأيقونة التي لم تتغير طوال عشرين عامًا كاملة فهي آخر شيء جلبته والدته إلى المنزل قبل وفاتها بأيام ويبدو أنه مرتبط بها بشكل ما ويظن أن عقاربها لن تخذله وهذا ما حدث ذلك المساء فالآن تشير العقارب إلى حلول السابعة والنصف وهذا يعني أنه نجح في اجتياز اختبار الساعة السابعة ذلك الاختبار الذي وضعه لنفسه ليكف عن إجهاد عقله بالفرضيات الممكنة

والغير ممكنة فهو الآن تحدث معها وصحيح أنه لم يخبرها بما يجيش بداخله من مشاعر ولكن تلك الخطوة أفضل من لا شيء لهذا سيذهب ليغسل رأسه بماء بارد برغم الصقيع المحيط به.. فقد شعر أن رأسه يغلي من كثرة الأفكار والاحتمالات... ونستطيع أن نقول بتأكيد عميق أن مثل تلك الحالات تخبرنا أن هناك حب عظيم بالانتظار على أعتاب بوابات منزليهما.. فالقلق المستوطن ضلوعه وخفقان قلبه المتصاعد ينم عن حب شكسبيري قديم سيحمله صبي لفتاة لا يجمعه بها سوى شاشة حاسوب صماء.. إن هذا الفتى يمتلك قلبًا كرستاليًا يمكن لشمس الظهيرة أن تعكس أشعتها عليه بوضوح والجدير بالذكر أن جده لأمه هو من صقل له ذلك القلب.. ففي الصباح الباكر لأحد أيام الصيف المنصرم ذهب (موسى) إلى قبر والدته وجلس أمامه القرفصاء وأخذ نفسًا عميقًا وظل يشكي لوالدته احتياجه الكامل لها ولجده المتوفي حديثًا قبل شهور قليلة.. فتملكه البكاء حزنًا على خسارتهما وأحنى رأسه للأسفل وقام بوصف جده موجهًا كلامه لوالدته وكأنها تسمعه:

- أنا لازلت أراه يجلس على كرسيه المهتز بجانب المدفأة يبلل أصبعه المعوج المرتعش ويقلب صفحات الجريدة في هدوء تام وبخار فنجان قهوته الساخن يمتزج بدخان غليونه المصنوع من الغاب ويتصاعدان معًا في جميع أركان الغرفة وزوايا المنزل ولازلت أراني ذلك الطفل القصير اليتيم ذو العينين الواسعتين والشفاه الملطخة ببقايا الحلوى جالسًا على حصاني الخشبي محتضنًا دميتي يهزني جدي برفق ويحكي لي قصصًا عن بلاد العجائب وعن حوريات البحر وعن أقزام الغابة السبعة!! وأخبرني أنه كان يقصص عليكِ نفس الحكايا دونما تغيير.. إني اشتقت إليكما حد الاحتراق.

في الواقع إن (أميرة) ستحظى بقلب علدري إلى أبعد الحدود.. قلب لم يعد موجودًا البتة.. قلب شاب يأتي من زمن آخر بعيد.. لا داعي للتعجب لأن جده علمه عن الحب الكثير ومازال يعلمه الكثير حتى وهو في قبره.. إن تعريفات الحب لديه مطاطية جدًا ولا متناهية الحدود فهو كان يراه المعجزة البشرية الوحيدة الباقية بعدما ولى زمن المعجزات.. والغمامة الوردية في ليالي الصيف.. إن الحب كما يؤمن به الجد يصعب توصيفه ولكن يمكننا القول أنه عصفور صغير مندس يخرج من حقائب الموسيقى ومن بين نوافذ الذكريات.. وإذا فتحنا دفتر المذكرات الصغير الخاص (بموسى) سنجد أنه كتب إرث جده من التعاليم والوصايا ومنها ما يلي:

- "إن الحب لا يكمن فقط في صدور العذارى وهو ليس أن تعشق فتاة شقراء طويلة الضفائر ولا أن تكتب قصائد غزل ركيكة لفتيات مدرستك الثانوية بل إن الحب يكمن في الطفولة.. يكمن في الزوارق والطائرات الورقية الصغيرة.. يكمن في أسراب النوارس.. يكمن في سنابل القمح وبين شرائح الكعك.. يكمن في زجاجات العطر وفي تنانير الصغيرات المزركشة".

هذا ما تعلمه من جده وهذا أيضًا ما تعلمه من أمواج البحر المتلاطمة التي يخترق صداها زجاج نافذته المطلة على الساحل.. عاد لغرفته بعد أن سكب الكثير من المياه الباردة فوق رأسه وجلس باسترخاء أمام التلفاز دون التفكير في المزيد من التصورات لما هو قادم.. حتى أنه لم يُلاحظ عودة والده للمنزل فقفا على تلك الوضعية حتى الصباح.. ولأن والده عاد مرهقًا للغاية لم يكن له رغبة في تبادل الحديث المسائي معه على غير المعتاد وكل ما كان يريده هو النوم لأكبر عدد ممكن من الساعات.. تمر الأيام سريعًا وتتعدد الصباحات

وتتوطد علاقته مع (أميرة) بشكل جيد لكن دون أن يخبرها بذلك الشيء الساكن في خلاياه والذي يتحرق شوقًا ليقوله فهو يتحين الفرصة المناسبة ليلقي عليها قنبلته الصغيرة وليحدث بعدها ما يحدث.. وعلى الرغم من ذلك أظهر لها جانبًا من شخصيته غريبة الأطوار حتى أنه سألها عن طريقة إعداد بيتزا منزلية كما خطط لذلك سابقًا والطريف في الأمر أنها أجابته عن سؤاله وشرحت له الخطوات والمقادير ولكنه فشل في إنجاز شيء يذكر.. نحن الآن في شهر فبراير/ شباط وبالتحديد الثاني عشر من فبراير عام ٢٠١٢ الساعة العاشرة وأربعة وأربعون دقيقة مساءً داخل غرفة (موسى) ذات الإضاءة الخافتة وها هو يجلس أمام شاشة الحاسوب ويستعد ليقصف خجله بأسلحة ثقيلة.. يستعد للاعتراف بشيء ما.. وبطريقة ما ظن أنها هي أيضًا تنتظر منه أن يبوح بذلك الشيء فأحيانًا كان يشرد أثناء محادثتها وتضيع منه الكلمات فيرد على رسائلها الطويلة بجمل مختصرة مثل "بالطبع كلامكِ صحيح" أو "أتفق معكِ تمامًا".. كلمات تدل على عدم الاكتراث بمن يحادثك أو هكذا شعرت (أميرة).. والأكثر غرابة أنها عندما غابت لبضعة أيام لظروف لم تفصح عنها أرسل لها قدرًا كبيرًا من التعنيف وكأنه مرتبط بها منذ عقود ولم يكن قد أخبرها بعد مما سبب لها بعض الحيرة لكنها تجاوزت الموقف بعدما استمعت لتبريراته الغير مقنعة لها ولكن على أي حال هو الآن يحاول أن يغالب خوفه وسيحاول فتح أقفال قلبه الصدئة ولذلك أحس بانتفاضة خفيفة سرت في صدره.. وأخذ يتنفس بعمق ويمسح حبات العرق من فوق جبينه ونظر لشاشة حاسوبه طويلاً ثم قال بحذر:

– أميرة أُريد أن أخبركِ بشيء ما لنقل أنني أستطلع رأيكِ حوله هل يمكنني فعل ذلك؟

– بالتأكيد يمكنك.. قل ما عندك.

– لنفترض أن هناك طرفين.. أحدهما يريد أن يُخبر الآخر بشيء ما.. شيء يخص مستقبلهما ولكنه يخشى العواقب ماذا يفعل؟

– أظن أنني ما زلت لم أفهم.. ماذا تقصد؟

– إن كان أحدهم يُحب شخصًا ما ولكنه يخشى أن يخبره.. فهل سيكون من الحكمة أن يبوح له بغض النظر عن العواقب!!

وهنا فطنت لتلميحاته ووجدت فيها تفسيرًا كافيًا لكل تصرفاته السابقة ولاهتمامه المبالغ فيه بها.. فسادت دقائق من الصمت ثم قالت:

– نعم.. من الجيد أن يُفرج عما بداخله.

– إذن فليكن.. (أميرة) أنا أُحبكِ فهل تقبلين بي!

عندما نطق تلك الجملة شعر وكأنه أزاح من فوق صدره جبلاً من ركام.. شعر أنه خفيف الوزن بشكل لا يُصدق.. اجتاحته نشوة رجل مخمور وأحس أنه تحرر أخيرًا.. أما هي فلم تقتنع بما قرأته وكأنه غير حقيقي فعاودت القراءة مرة بعد مرة لنفس تلك الجملة الأخيرة فابتسمت وشعرت أنها يجب أن تقبل به دون إبداء أسباب ودون أن تبرر لنفسها لماذا تفعل ذلك.. شعرت أنها تريده وفقط.. هذا كل ما في الأمر.. فكتبت له قائلة:

– في الحقيقية لا أجد ما يمكنني أن أقوله لك ولكن سأجيبك.. نعم قبلت بك!

قفز من فوق كرسيه وأخذ يركض في أنحاء غرفته كما تفعل سنوريات البرية.. لا يدري إن كان تذوق من قبل كروم جنة عدن ولكنه يتذوقها الآن.. توقف بعدما ارتطم بالحائط فسقط على ظهره ونظر للأعلى بانتشاء عظيم فهو لا يصدق ما حدث منذ قليل.. عاد مسرعًا نحو حاسوبه ليكتب لها ما يلي:

– أنا لا أستطيع تفسير أي شيء.. أنا أحببتكِ حقًا ولا أدري كيف حدث ذلك برغم أنني لم أركِ أو أستمع لصوتكِ من قبل.. وبالمناسبة هناك أمر ما يختلج صدري أُريدكِ أن تعرفيه ولكِ حرية التصديق أو الإنكار.

– أنا أيضًا قبلت بك لأني أردت فعل ذلك وحسب.. أشعر براحة كبيرة تغمرني معك.. الآن أنا أستمع لك قل ما تريد..

– منذ زمن أضع تصورات عدة لكيفية المناسبة التي أخبركِ بها عما يحتجب خلف أضلعي من أمور ولكن صباح اليوم قررت أن أعترف بحبي لكِ بدون مقدمات وهذا لم يكن مصادفة أو مجرد شجاعة زائدة..

– ولماذا قررت أن تفعل هذا إذن؟

– لأنني حلمتُ بكِ بالأمس!!

– كيف؟.. أخبرني..

– رأيتك جالسة عند حافة جدول صغير بداخل بستان فسيح.. لم أرَ ملامحكِ بشكل جيد لأن زاوية الرؤية لم تكن بذلك الوضوح ولكن على الجانب الآخر رأيت والدكِ يقف بجانب أحد الأشجار ويُشير لي أن أتبعه.. لم أعلم في البداية أنه والدكِ ولكن هذا ما وقر في قلبي حينها وتأكد الأمر عندما تحدثت معه ثم طلب مني أن أساعده في تقليم بعض الأشجار ففعلت ثم ابتسم وأخرج لي من جعبته زهرة حمراء قانية وقال:

– اذهب هناك عند الجدول وأعطِ ما بيدك (لأميرة) فهي تنتظرك منذ وقت طويل.. ففعلت ما أمرني به دون أن أنطق ببنت شفة.

– وماذا بعد؟ هيا أُريد معرفة المزيد..

– تقدمت نحوكِ ببطء وما إن أدرتِ وجهك نحوي حتى شعرت بقلبي ينخلع ويذوب كالملح في ذلك الجدول.. لقد كنتِ بارعة الجمال وكأنكِ خُلقتِ من نور.. مددت يدي إليكِ بما أحمله فأخذتيها برقة بالغة هشمتني كلوح زجاج سقطت عليه مطرقة.. هذا ما حدث.. ولن أنسى ذلك أبدًا ما حييت..

استمر الحديث بينهما لبعض الوقت وتبادلا الضحكات وأشارت الساعة إلى تمام الواحدة صباحًا بتوقيت الإسكندرية.. الثانية عشرة صباحًا بتوقيت قسنطينة.. فذهب كل منهما إلى سريره بوعد أن يتلاقيا في الغد.. ولكنه ظل مستيقظًا في الساعات الأولى من الفجر.. جالسًا قرب المدفأة يطيل النظر نحوها بلا هدف ويبدو أن تفاصيل هذه الأمسية قد نُقشت على جدار قلبه بإزميل من جمر.. فهو حتمًا سينسى الكثير من الأحداث خلال سنواته القادمة ولكن تلك الليلة وما دار فيها أصبحت نقوشًا بارزة على جسده يتحسسها صباح مساء.. في الصباح الباكر لليوم التالي وقبل أن يذهب إلى الجامعة راسلها قائلاً:

– في المساء أود أن أسمع صوتكِ لأنني أُريد أن أُتم الذوبان فيكِ على النحو الأكمل وهذا لن يحدث إلا عبر نبراتكِ.

رأت (أميرة) رسالته بوقت متأخر حوالي العاشرة صباحًا فابتسمت وكانت تستعد هي أيضًا للذهاب في طريقها للجامعة فأرسلت إليه قائلة:

– في المساء سيتحدد كل شيء..

وعندما جن الليل وفي تمام التاسعة مساءً راسلها (موسى) قائلاً:

– أضع الآن سماعات الأذن بأناقة تتناسب مع ما سأسمعه فلا شك بأنني سأفتن بكِ أكثر وفي الحقيقة أنا متشوق لحدوث ذلك.

وعندما وصلتها رسالته لم تدرِ كيف لها أن تقوم بالتصرف الأمثل ولكنها أرسلت له عنوان بريدها الإليكتروني لكي ينتقلوا للحديث هُناك ليتمكنا من سماع بعضيهما وبعد أن أتما التواجد وتحدثا قليلاً عبر المراسلات النصية حانت تلك اللحظة التي يستمعان فيها لبعضيهما لأول مرة ولذلك زادت التعرق وارتفع منسوب الخجل بشكل لافت فخفقان قلبيهما الآن أصبح أكثر ضجيجًا من طبول الحرب..

وبعد انتظار طويل نطقت (أميرة) قائلة:

– مرحبًا.. كيف حالك يا (موسى)؟!

وهُنا زاد خفقان قلب الفتى حتى كاد أن يطرحه ضغط دمه أرضًا.. لقد حدث نفسه قائلاً:

– يا له من صوت.. يالها من فتاة!.. كيف لي أن أتحمل جمال صوتها في كل مرة أُحادثها فيها؟

ثم أفاق من غفوته سريعًا ليرد عليها قائلاً:

– أنا بخير طالما ظلت صاحبة هذا الصوت بخير.

استمر الحديث بينهما بنبرات مضطربة وزادت حالة التلعثم بينهما فانقلبت المحادثة بعد فترة قصيرة إلى ضحكات تارة مكتومة وتارة تصدح بها أركان غرفتيهما ولكن وسط هذه الأجواء قال لها (موسى) بلهجة واثقة:

– أيُمكنُني مُحادثة أسرتك وتعريفهم بي؟

كان الطلب مُفاجئًا بالنسبة (لأميرة) ولكنها شعرت بسعادة لم تفلح في إخفائها فأجابته مُتسائلة:

- كيف تُريد أن تُحادث أسرتي وأنت لم ترني؟

فأجاب باسمًا:

- أنا اخترتُكِ أولاً دون أن أراكِ واخترتُكِ ثانيًا دون أن أراكِ ولن يُمكِنُني رؤيتكِ إلا إن حادثت أُسرتُكِ وقبلوا بي.. حددي لي معهم موعدًا وليكن غدًا.

لم حكى لها عن علاقته التفصيلية بوالده وعن حياته ودراسته وأحلامه وشرح لها كيف سيتقدم لأسرتها دون وجود والده وسرد لها كل التفاصيل التي تجمعه به ووعدها بأنه قبل أن يُسافر لخطبتها بعد سنوات الدراسة سيصطحب والده معه فهما مازالا طالبين ولا يُمكن لأخذهما مُغادرة بلاده الآن وبطريقة ما اقتنعت ووافقت وأبلغت أسرتها وفي مساء اليوم التالي حادث (موسى) والدتها وأعاد لها شرح كل شيء من البداية وأجاب على جميع مخاوفها وتساؤلاتها المشروعة حول مُستقبل ابنتها ولكنه واجه رفض والدها الذي قال أنه سيوافق عليه زوجًا لابنته عندما يراه وجهًا لوجه فوالدتها أخبرته بإحساسها تجاه (موسى) وخاصة أنها تثق تمامًا في قدرة ابنتها على التمييز بين الصادق والكاذب (فأميرة) فتاة ذات شخصية مستقلة وعقلية فريدة وهي تؤمن بكل ما تقوم به وفي النهاية حصلوا على موافقة مشروطة من والدها ولكن على أية حال كانا والديها ينظران لعلاقتها (بموسى) بقبول ممزوج بالشك ولكن ذلك مقارنة بثقتهم الكاملة فيها كان يتلاشى وبعد أن تم التعارف وانتهى كما أحب (موسى) وأراد جاءت تلك اللحظة التي يجب على كل طرف فيها رؤية الآخر فاتفقا أن يُرسلا صورتيهما بنفس التوقيت فتحضر كل منهما لذلك وضغطا

على زر الإرسال فوصلت الصور بنفس اللحظة تقريبًا وما كان منهما سوى الصمت.. الصمت الطويل.. فكل منهما وجد الآخر أجمل مما كان يتصور فهي وجدته مكتمل الرجولة ذو ملامح حادة كما أحبت أن يكون زوجها.. وأما هو فقد وجدها أجمل بكثير مما أمكن له أن يتخيل.. فكتبت له قائلة:

– أيُمكنُني إخبارك كم أنت وسيم؟

فرد عليها قائلاً:

– الوسامة الحقة تُمنح لكل من ينظر لعينيكِ حتى وإن كان عبدًا أفطس.. أنتِ صُنعتِ بيد الرب فسبحانه فيما خلق وصور.

فاحمرت وجنتيها خجلاً ثم أرسلت له ردًا يحتوي نقاطًا متجاورة فقط لا غير فضحك لأنها لم تجد ما تكتبه ثم أكمل مراسلتها وقال:

– حتى الآن لا يُمكِنُني أن أصفكِ ولكن تأكدي بأنه يومًا ما سأفعل ذلك وسأخبرك حقًا عن كل ما شعرت به عندما رأيتكِ للمرة الأولى.

وللخروج من هذه الأجواء المشحونة بكل تلك المشاعر المضطربة قال لها (موسى):

– سأخبركِ سرًا.. أنا أعشق الموسيقى وبالتحديد المعزوفات المنمقة.

فقاطعته برسالة سريعة:

– ما هذا أتمازحني؟.. فأنا أيضًا أعشق ذلك النوع من الموسيقى!

تابع (موسى) حديثه وقال:

– جيد.. إذن استمعي إلى هذا المقطع بتركيز كبير واعتبري ذلك أول هدية مني لكِ وأعدُكِ أنها لن تكون الأخيرة.

كان ذلك المقطع عبارة عن مهر من الموسيقى يجب أن يدفعه العاشق قبل أن يسقط في الخطيئة الأقدس مع فتاته.. أما المعزوفة فكانت رشيقة حقًا اسمها (زينة) للموسيقار العالمي (زيد ديراني).. واستمر الحوار بينهما تارة صوتيًا وتارة أخرى كتابيًا وقبل أن يُنهيا حوارهما المطول تبادلا أرقام هواتفهما لتواصل أسرع وأكثر قُربًا.. وبمرور الوقت وتعاقب الأيام أصبحا أكثر من مُجرد حبيبين.. أصبحا روحًا واحدة تتلبس جسدين.. فقد كانت تخبره عن الأشياء التي تتمنى تحقيقها.. عن أحلامها وأمنياتها للمستقبل وكان يصغي لها باهتمام ويعدها بأنه سيحقق لها ما أرادت فالطريقة التي كان يتحدث بها جعلتها تصدقه وكانت تعلم جيدًا مدى جديته فيما يقتطع من عهود كما أنها أيضًا كانت تثق تمامًا فيما يحتفظ به من أجلها في صدره.. وبالمجمل فدمل شيء خاص به كان يُمثل لها أهمية خاصة فعاملته كأم وألمت بجميع تفاصيله ومن أهم ما ربطها به هو حديثه اليومي معها فبالنسبة لها صوته كان يشبه تلك الأصوات التي تسمعها في المذياع.. فعندما كان يحادثها كانت تشعر أنها تحلق في الفضاء.. كانت تغمض عينيها وتصغي إليه باهتمام بالغ.. أما هو فكان يمتلك دفترًا صغيرًا يدون به تلك اليوميات التي لا تنسى فذهب نحو أدراج مكتبته الخاصة والتقط ذلك الدفتر الأزرق وكتب واصفًا محبوبته قائلاً:

- ثملت معها بالأمس كما لم نثمل سويًا من قبل لقد كانت ذات صوت له رائحة الياسمين الدمشقي.. صوتها جعلني سكيرًا.. أنا أكاد أجزم أنها حواء بذاتها وخرجت للتو من الجنة.. أرهقتني تلك الفتاة وقد تكون نهايتي وشيكة فأنا غدوت شريد الذهن نحيلًا وربما أبدو كناسك عجوز يتعبد في باحة

كنيستها.. لا أقوى على هذا الحب.. حقًا لا طاقة لي به.. ستقتلني خُضرة عينيها ذات يوم لا محالة.. سأصبح شهيدًا!!

وبعد مرور تسعة أشهر تقريبًا توطدت العلاقة بينهما وأصبحت أكثر رسوخًا من الجبال وها نحن الآن في اليوم الرابع من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني وفي هذا اليوم تحديدًا تحتفل مصر بعيد الحب الخاص بها.. تحتفل به منفصلة عن بقية العالم ولهذا أراد (موسى) أن يُفاجئها بطريقة لا يُمكنها التكهن بها ولكن قبل أن يشرع في تنفيذ ما أراده تراسل معها لبعض الوقت وأخبرها بمعلومة هامشية قرأها في الصفحة الأخيرة للجريدة التي يجلبها والده يوميًا حيث بادر قائلاً:

– هل تعلمين أننا نتكون بنسبة ٩٣% من الغبار النجمي؟؟ فالكالسيوم الذي في عظامنا والحديد الذائب في دمائنا هما من عناصر ذلك الغبار وكل هذا جاء بعد الانفجار العظيم حيث بدأ كل شيء.

– هل تقصد أننا غبار على هيئة بشر!!

– نعم.. فلولاه لم أكن أنا ولا أنتِ وما كنت الآن أعشق فمك الوردي ولا السهول المنبسطة في عينيكِ.

– يا إلهي إذن أنا متورطة في علاقة مع كائن فضائي يريد الزواج بي!!

– هذا صحيح.. ولكن هل تعلمين أنتِ أجمل من جسور قسنطينة بل أجمل من أضواء باريس وأشهى من شطائر روما!!.. أنتِ أقدم من الأهرامات وأكثر قداسة من بيت لحم.. سأخبرك بسر صغير.. أنتِ جميلة بقدر لا يصدق.. أنا أتنفسكِ.

ابتسمت (أميرة) وقالت:

– أعلم ذلك.. وأنا سأظل دائمًا أدعوك منزلي.

فتنهد ثم قال:

– أُريد الاحتفاظ بكِ.. أُريد امتلاك شفتيكِ ورائحتكِ ونبرات صوتكِ.. أنا أقع في غرامكِ من جديد كل صباح.

–هل تعلم أنني سأتزوجك لا محالة؟؟.. سأختطفك ليلاً وأجمع نساء ضاحيتنا ليشهدوا أنك لي وحدي وإذا اقتربت منك إحداهن سأوسعها ضربًا كي لا تعبث معي مرة أخرى.

– أخشى أن أقوم أنا بعملية الاختطاف تلك أولاً وأعتقد أنني أفكر جديًا في الأمر وتسير الخطة كالآتي الانتقال من مطار القاهرة إلى مطار هواري بومدين ثم ركضًا نحو منزلكم ولكن لن يكون اختطافًا عاديًا سأختطفكِ وأنت تتزينين بثوبٍ أكثر بياضًا من قمم جبال الألب.. اختطافًا شرعيًا يباركه والدك وجمع غفير من عائلتك القاطنين بضاحيتك وما جاورها.. حينها يُمكن لسندريلا أن تذهب لحفلات صاخبة رفقة أميرها حتى وإن تجاوزت الساعة منتصف الليل.

– هذا ما أردت سماعه بالضبط.. سأنتظر منك مكالمة ليلاً.. تمنَّ لي عيد حب سعيد حينما تتصل.. ولا تنسَ أن ترسل لي هدية عبر البريد.. هدية قيمة تعوضني بها عن هدايا العام الماضي التي لم تصل حتى الآن.

ابتسم (موسى) بعفوية طفل ثم أردف قائلاً:

– هذا من دواعي سروري آنستي.

مرت ساعات المغيب بطيئة وصاخبة وذات روائح شرقية فاليوم الأحد الرابع من شباط.. عيد حب سعيد يجتاح الإسكندرية والهواء يحمل معه روائح حلوى يتبادلها العشاق على شاطئ البحر وفي المطاعم والمقاهي.. فذهب

(موسى) لإحدى المكتبات ليشتري رائعة شكسبير الخالدة هاملت وبعض الأقراص المدمجة لسمفونيات موزارت بما أنه يعلم أنها شاعرية جدًا فهذا ما يليق بحبيبة مثلها.. ثم خرج مسرعًا نحو مكتب البريد ويا للعجب رأى زحامًا على بوابات المكتب فقال لنفسه:

– يبدو أن كل هؤلاء سيبعثون لحبيباتهم خارج البلاد هدايا مثلي إنه أمر طريف حقًا فكل هؤلاء يعيشون نفس تجربتي ويتفهمون معنى أن تُحب شخصًا تفصله عنك أسلاك شائكة وجوازات سفر والعديد من الأختام الأمنية إنها بيروقراطية تُصيبني بالغثيان أو ربما أكثر من ذلك.

فطالما أحببت روحًا أخرى خارج القُطر فعليك ابتلاع الكثير من السخف القابع داخل أدراج المكاتب الحكومية وعليك أيضًا تحرير الكثير من الوثائق الثبوتية لكي يُمكنك المرور عبر البوابات نحو طائرة تُقلك إلى أراضٍ بعيدة يترقبك بها من تحب وبعد انتظار دام قرابة الساعة وصل أخيرًا لمنفذ الإيداع وطلب من الموظف أن يكتب على غلاف الطرد (هدايا حالمة لفتاة تسكن السماوات).. انتهى من كتابة العناوين وإجراءات الإرسال وخرج يمشي بهدوء ملحوظ ليتأمل شوارع مدينته وقد كستها الحُمرة فلا عجب فهذا يوم العشاق.. عاد إلى المنزل في العاشرة مساءً أمسك هاتفه واتصل بها.. استمر الرنين لخمس ثوانٍ ليقُل لها بعد ذلك:

– عيد حب سعيد يا سندريلا.

– لماذا تأخرت هكذا؟

– وصلت للتو.

– أتفتقدني!

- نعم.. بطريقة تزداد غرابة كل يوم عن سابقه.

- أوقعت بك.. قلت "نعم" إذن توافق على الزواج بي حينما أختطفك وهذا أفضل لك.

- تجبرينني على الضحك بصوت مرتفع وأشعر أنني أعود طفلاً عندما أحادثكِ.. ومن هو ذاك الأحمق الذي يرفض الموت بجانبكِ وليس الزواج فقط؟

- دعك من المغازلة الآن.. ولا تنسَ الهدايا فأنا لابد أن أمتلك شيئًا رائحتك عالقة به.

- ستصلك خلال ٤٨ ساعة من الآن وسنرى إن كان ما يحتويه الطرد مثيرًا للإعجاب أم لا؟

- حقًا؟

- لن أتكلم ولن أفصح عن شيء.. فقط انتظري قدوم أحدهم إلى منزلكم يحمل طردًا متوسط الحجم ملتصقة به طوابع جمهورية مصر العربية حينها ستعلمين أنني المُرسل.

- لن أقول لك أُحبك حتى يصلني بريدُك.

- لا مشكلة سمعتها منكِ بالأمس.

- هل تعلم أنك ثقيل الظل؟

- قد أكون كذلك فعلاً ولكنني لست بائسًا.

تبادلا الضحكات وأصابتها نشوة ارتقت بروحها لأعلى إلى ما بعد حواجز الغيوم.. أحست فعلاً أنه سيمكنها امتلاك جزءًا مِمَن تُحب.. وفي الحقيقة

تأتي عليها أوقات تكون ضجرة ومُتعَبة ولكنها معه تكون سعيدة من أعماقها وهذا يكفي لأن تنتظره مائة عام إن لزم الأمر..

وبالعودة سريعًا للأحداث السياسية في مصر فقد انتهت للتو الصراعات الانتخابية بين فلول النظام البائد وبين جماعة الإخوان المسلمين والتي اشتعلت بوتيرة متسارعة عبر شهور طويلة من الحروب الإعلامية المتواصلة وعلى صعيد آخر فإن الحركة المدنية الثورية تم تهميشها تمامًا وزادت المواجهات الدامية في شوارع القاهرة وأصبح الوضع كارثيًا.. فما هذه البلاد سوى بقايا مدن توشك أن تصبح خرائب فأي وطن هذا الذي يصلب فيه كل يوم ألف مسيح ويحرق فيه كل يوم ألف إنجيل وتذبح فيه الملائكة!! تلك البلاد التي تصنف الحب على أنه عار وتصنف الثورة على أنها كفر وتصنف الطفولة على أنها حماقة.. وبحسب قانون الإيمان الساري هنا فإن العشق لا يجوز والحرية لا تجوز والموسيقى لا تجوز!!

فحتى وإن عشت ألف عام في هذه المدينة فلا ريب أنك ستنتحر فيها ألف مرة.. وبما أن (موسى) كان أحد المنتمين للحركة اليسارية في مصر أي أنه يُمكن أن يُصنف ماركسيًا فخيبات الاقتراع الأخير على رئاسة الجمهورية كانت تُعتبر كافية ليمتنع عن الحديث في أي شيء يخص المستقبل السياسي للبلاد ورغم كل شيء لم يكن يتكلم مع (أميرة) في أي شأن سياسي بل كان يلجأ لها عندما يكون مضطربًا مشوشًا ذو عزيمة خائرة ورغم أنها لا تفقه شيئًا في مجال السياسة الحزبية إلا أنها كانت تتعاطف معه رغم أنها غير مدركة لماذا تُبدي

تأييدها لها ولكنه الحب على أية حال.. فحتى (موسى) كان يراها ويشعر بها بطريقة خاصة فكان يقول:

- آه أيتها الساكنة في أعماقي إلى الأبد المترفعة عن كل الخليقة المتخذة من القمر كوخًا ومن قلبي صومعة فإن كانت المسافات الفاصلة بيني وبينكِ تقبل بدمي قربانًا لتتناقص ولو شبرًا واحدًا فأهلاً بالنزيف المُقدس وأهلاً بكل الدعراء الصرعى المُعلقين على صلبان فولاذية مزروعة بباحات محبوباتهم أو أسفل نوافذهن.

هكذا كان يُحدث (موسى) نفسه كل مساء عقب إغلاق الهاتف وانقطاع الاتصال المعتاد ليلاً بينه وبين (أميرة) فكل منهما يجد في صوت الآخر سكنًا ودفئًا وعزاءً.. وهذا ليس مستغربًا فالحب قد جعلهما قلبًا واحدًا ينبض في صدرين.. وقد يبدو الحوار الذي دار بينهما صباح أحد أيام آذار/ مارس للعام الثالث عشر بعد الألفين.

أحد الشواهد على قصة عشق أذابت أفئدتهما حيث بادر (موسى) قائلاً:

- يروق لي اليوم مغازلتكِ.. أتقبلين؟؟

- وهل تعتقد أن هنالك مجال للرفض؟؟

- لا أدري.. ربما للفت انتباهكِ فما يتخمر داخل رأسي اليوم من غزل قد لا تسمعيه مرة أخرى فأنا أؤمن أن الرغبة المُلحة يتبعها حديث لا يُمكن أن يُستنسخ.

– الفتاة لا تُريد من شريكها إلا أن يعتني بها وبتفاصيل حياتها الصغيرة ولكن إن غازلها فقد تكتفي بذلك حتى وإن كان غزلاً رديئًا مكسور الإيقاع والوزن يخرج من بين شفاه أُمية.

– أسافرتِ قبل ذلك عبر القطار؟؟

– نعم.. ولكن لماذا؟؟

– إن فوضوية السفر عبر القطار توازي فوضوية حياتي بدونكِ ففي حالة غيابكِ أشعر وكأنني جالس على أحد أرصفة الانتظار داخل محطة عابسة ذات ممرات ضيقة مكتظة بالحقائب وثرثرة النساء البدينات وأكواب الشاي البلاستيكية الفارغة المتناثرة فوق تلك القضبان حديدية القلب.

– إن التفتُّ للمقعد المجاور على ذلك الرصيف لربما رأيتني أنا أيضًا يحل بي ما يحل بك.

– لا لن تكوني حينها هُنا بل سترحلين لوطنكِ.

– وهل يتضح لك أن لي وطنًا آخر غير قسنطينة؟؟ لا أعتقد أن هناك وطنًا يوازيها سوى بيت يجمعنا حتى وإن كان مقره أقصى الشمال المتجمد أو على حافة بركان خامد.

– حسب بيانات الهوية وحسب ما هو مدون بأوراقك الرسمية فأنتِ جغرافيًا جزائرية ولكن هذا ليس صحيحًا بالنسبة لي.

– إذن أخبرني لأي وطن أنتمي؟؟

السعت رئتاه وأخذ شهيقًا أعمق بكثير من كل تنهداته السابقة وكأنه يستعد للقطس في بركة ثم اعتدل في جلسته أمام حاسوبه وقال:

- أنتِ مُهرة دمشقية حرة ترتدي ثوبها الأرجواني تركض من بغداد إلى مكة باحثة عن المطر وعن رذاذ الياسمين.. أنتِ كسنبلة قمح تخرج من بين ركام الأندلس.. فتاة تسكن غرناطة تلك المدينة القرمزية المتوهجة ذات المنازل البيضاء والحدائق الربيعية.. كثيرة المقاهي كثيرة النوافير..

- أتدري؟؟ دائمًا ما رغبت في أن أقول علانية أنني أكاد أنشطر نصفين من حبي لك.. أظن أنني أكثر الفتيات حظًا إن لم أكن كذلك فعلاً.. ولكن قل لي ماذا فعلت أنا حتى تتلو في حقي كل ما سبق من مزامير؟؟

- أشهد أنكِ تجعليني أمشي فوق الماء.. أمشي فوق الزمن.. أمشي فوق الموسيقى.. تجعليني أرشرش السُكر على صغار الضواحي وأسكب حبر الجرائد على أرصفة الشوارع والأزقة.. تجعليني أتصرف كالصبيان المراهقين.. توقظيني فجرًا لأكتب لكِ ألف ألف رسالة وأبعثُ لكِ ألف ألف باقة ورد وأعزف لكِ ألف ألف لحن.. فلو كانت الأرض تطوى للمُريد العاشق لكنت واقفًا متنسكًا تحت شرفتكِ صباحًا ومفترشًا ساحات القدس ليلاً.. لأجلب لك حفنة من تراب سار عليه المسيح.

- ماذا تُريد بالضبط يا (موسى) أتريدني مفتونة بك هائمة لا بواكي لي؟؟ لك هذا وأكثر.. إن غرف قلبي لم تعد تتسع لسواك حتى قطتي تعي ذلك وأدركت ما أصبحت عليه.

– أنتِ لوحتي الزيتية المُعلقة على جدران معصمي وفي واقع الأمر أنا لا أُريد شيئًا أكثر من أن تكوني لي.

اختتم (موسى) حديثه بأمنية مقتضبة "أن تكوني لي" رغم أنه يفصله عنها ما يفصله من صحاري وبحار.. ولكن الحب لا يقترن بالجسد أو بالمادة.. إن الحب في حد ذاته عالم من الأساطير لا يعترف بالجاذبية ولا بكافة قوانين الفيزياء.. إن الحب مملكة من الحُرية سُكانُها من الملائكة والأطفال.. مفتوحة الحدود بلا أسوار ولا أبواب.. تحفها حكايا الجدات وحوريات صغيرات أجنحتهن من زجاج.. والجدير بالذكر أن مملكة السلام تلك أراضيها محرمة إلا على الذي يرى أن أُنثاه هي الدم والنبيذ والكرز والحد الفاصل بين الجنون والعبقرية.. من يرى أنها باكورة الأمجاد وتلال الثلج المرافقة لأعياد الميلاد كل عام.. وفي المقابل لا تكن مصطنعًا ولا تنسلخ من ذاتك لأجلها.. فقط كن عفويًا.. كن محبًا لها بطريقتك الخاصة.. كن مؤمنًا أن ما تفعله هو الصواب فأنت لن تكون شخصًا غيرك بأية حال فلا يهم أن تشرق الشمس كل صباح لكن المهم أن تولد بداخلنا الأحلام.. لا يهم ما هو لون السماء.. لا يهم ما هو لون المحيط.. كل هذه الأشياء من الممكن أن تتغير بسهولة لأن قوة الحب قادرة على تغيير طبيعة العالم.

لكن ستظل هنالك بداخلنا بعض المخاوف التي ستواصل الطفو كلما أمكنها ذلك.. تلك الفُقاعات التي تُسبب رذاذًا كثيفًا في الهواء عندما تنفجر ناشرة في الأجواء الكثير من الاحتمالات والشكوك.. فتقدير إمكانية تفاقم الوجع

بعد حدوثه أحد ثوابت النفس الإنسانية ومع أنه طقس يجلب معه الكثير من الألم لكننا كبشر لا نستطيع التوقف عن فعله.. فمخاوفنا تسكن فوق خطوط حرائط أوطاننا.. تلك الأوطان التي بداخلنا لا التي يحدها من الأعلى سماء ومن الأسفل حدود من تراب.. إنه الخوف الفطري من الفقد الذي يدفعك أحيانًا لاختيار المنفى المناسب بدلاً من مشاركة نفس الوطن مع حبيب لم تعد تربطك به سوى لحظات أصبحت من الماضي.

فمع دوران الأرض تدور الذكريات في باحات ضواحي المدن القديمة كزوبعة أليفة

في فنجان قهوة صغير تسير كقطار بخاري على أرصفة الأزقة والحارات.. تحمل معها بصمات الصغار الخضراء على سطح القمر الفضي.. تحمل معها رسائل الحب الركيكة المنتشرة بين المراهقات.. تحمل أيضًا أفلامًا وثائقية عن ثورة الأطفال ضد محاكم التفتيش الأبوية.. ضد الواجبات المدرسية.. ضد الحليب وضد رجل الثلج.. وأحيانًا قد تمنح العجائز قلوبًا شابة وطائرات ورقية مزركشة وتنزف غيومها فوق ضياعنا الكثير من الحبر والمطر.. إن الذكريات ليست فقط المحور الأهم الذي تدور حوله أقدارنا ولكنها أيضًا خزائن سرية لأحداث سابقة طويت وأراد أصحابها أن تظل كذلك أو أن تُمحى ولهذا (فأميرة) تبدو منزعجة بمجرد التفكير في الأمر.. لا تريد صناعة ذكريات تعجز عن الهرب منها.. تريد لقارب حبها الأول أن يعبر نحو مراسيه بأمان ولذلك نجد أنها تواجه مخاوفها بحض (موسى) على البقاء قريبًا منها كروح وجسد..

كشريك يرافقها في درب يزداد وعورة كلما اقتربت نهايته.. درب أرادت أن تقطعه إلى جواره.. فكثيرًا ما كانت تتشبث به وتجده مستقرًا آمنًا لها حين تحادثه فازدادت مؤخرًا ساعات تواصلهما عبر الهاتف الذي حل تدريجيًا بديلاً للحاسوب فكل ما يمكنه فعله يقوم به الهاتف بنفس الكفاءة وربما أفضل وبصورة فورية.. لذلك شعرا أنهما أكثر قربًا من أي وقت مضى.. ودارت بينهما أحاديث عدة منها ما أمكنه طمأنتها ومنها ما جعلها تتساءل فاستطردت قائلة:

– أتعلم.. رائحة البيلسان تذكرني بطفولتي.. مررت اليوم بجوار إحدى شجيراتها صباحًا.. لا أدري لماذا تُبعث ذكرياتنا مرة أخرى من مراقدها بمجرد مرورنا بجوار شيء ما مألوف.. لماذا لا ننسى فحسب؟؟ لماذا تظل الذكريات قابعة في تلك الأماكن تقتات من بقايا روائحنا العالقة فيها!!

– إن نسينا فحسب سنكون مثيرين للشفقة كأسماك زينة سُرقت من المحيط لتزرع من جديد داخل حوض زجاجي ضيق كلحد ومن ثم تنسى هويتها بعد ثوانٍ ثلاث وتظن أنها في الوطن.. لن نتذكر من كنا ولن نستطيع الحياة كما يليق بنا أن نفعل.

– وماذا عن حياة سابقة تؤلمنا تفاصيلها لنعجز أمامها عن أي ردة فعل سوى أن تتملكنا رغبة جامحة في الهروب ولا شيء آخر فنركض هربًا منها بقدر استطاعتنا.. نركض لأبعد أراضٍ ممكنة ولكنها رغم كل الحواجز مازالت

لباغتنا.. ألن يكون حينها من الأفضل أن نعيش كسمك الزينة داخل أحواضه الضيقة تلك؟؟ فما من أحد يقبل أن يتحطم مرتين.

- لا يوجد شيء أبدًا اسمه سعادة دائمة.. وإن لم تؤلمنا تجارب سابقة فلن نستطيع أن نكون ذوي حكمة سنظل حمقى لا نستحق أن نتعلم.

- دعك من كل ذلك يا (موسى).. الحقيقة أن الجميع لديهم أمر ما يريدون الهرب منه ولكن لا يستطيعون وحينها لا يملكون سوى تعزية أنفسهم كما تفعل أنت الآن.

- أنتِ تُخيفيني كثيرًا.

- لِمَ!!

- ما زلت طفلة لا تفقهين شيئًا وإن كسرتِ حاجز العشرين.. أفإن أصبحت أنا يومًا ما ذكرى أتهربين مني لأبعد أراضيكِ الممكنة؟

- ومن قال لك أنني سأسمح لك أو لي بحدوث ذلك؟؟

- طالما نحن نتنفس فليس هنالك ضمانات لأي شيء.. لا يُمكننا تأكيد أي شيء.. حتى الشمس لا يُمكننا أن نُجزم أنها ستشرق في الغد..

- وإن أعطيتك وعدًا بأنني لن أبرح بوابات منازلك حتى أبلغ من العمر أرذله.. أيكفيك هذا؟

- (أميرة).. لتعلمي أنه ليس هنالك شيء أكثر قداسة من عهود مكتوبة بيني وبينكِ تحويها أوراق دفاترنا الصغيرة ولكننا لا نعلم ماذا تخبئه لنا الأقدار خلف غيومها.. أنا أيضًا لن أبرحك حتى أستنزف آخر قطرة من روحي بين

راحتيكِ.. وكيف لي أن أنسى تلك اللحظة عندما سمعتُكِ مساءً تقولين: "كُن لي" حينها كان ظلام غرفتي حالكًا فأشرقت الشمس دون مفتتح سابق.. أنا فقط أُريدكِ أن تتحلي بشجاعة الغياب عندما يحين وقت رحيلي.. اغفري لي جميع الأخطاء التي فعلتها.. وجميع الآلام التي تسببت بها والتي طالما أخفيتيها داخلكِ بعناية.. لا تستائي مني.. فقط ساعديني على أن أترك خلفي أسبابًا كي تشتاقي لي!!

– يجب أن تكف الآن عما تقول.. يجب أن تتوب عن تكراره.. شجاعة الغياب يملكها من يمكنه الحياة دون شريكه وأنا لست كذلك.. إن هرمت سأهرم معك.. وإن هلكت سأهلك بجوارك وساظل أخبرك مساءات كل شتاء بأن تكون لي.

– لن أمل من السماع لكِ دهرًا.. فهذا الذي تسكبينه في أوردتي كل ليلة يحملني إلى تلك العوالم المهموسة التي تجيدين تصويرها لي وكأنها وطنكِ الذي تتحدرين منه وما أظن ذلك ليس إلا سحرًا.. كم أنتِ أنيقة حين تتحدثين!

– صوتك يا (موسى) بالنسبة لي حياة.. وفي اليوم الذي لا أحادثك فيه أشعر وكأن القمر يتوارى خلف غيمة ويطبق سكون تام على العالم.

إن العاشق يذوب كقطعة جليد حين يحادث من يحب.. إنها نفوس تحل وتتحد في جسد لا يبلى لذا فتلك النشوة يمنحها لنا القدر مرة واحدة فقط على الأغلب وبعد القليل من الصمت استكمل (موسى) حديثه قائلاً:

- (أميرة).. أشعر أنكِ تخافين من شيء ما؟

- الخوف في حد ذاته ليس مقلقًا ولكن تلك الخبايا المقيتة التي تتوارى خلفه هي من تقض مضجعي أحيانًا كثيرة.

- مما تخافين؟

- أخشى أن تمر علينا تلك الأوقات التي تفرض أمورًا سمجة بين زوجين.. بين حبيبين فأخشى أن نذهب لنتناول العشاء بشهية باردة ونكون مجرد موتى يأكلون طعامًا لا يغني عن مواتهم شيئًا.. لا أريد أن يشيخ حبي لك يومًا.. عدني بأنك ستفعل كل ما بوسعك لأجل تفادي ذلك المصير.

- لن أعدكِ بشيء لأن أزمات منتصف العمر لا تستعر في صدور المُحبين.. كيف لي أن آراكِ مع كل إشراقة شمس وتبرد أحاسيسي نحوكِ!! الروتين يا عزيزتي يأتي ليشل حياة هؤلاء التقليديين ذوي العادات العتيقة.. إنما نحن لسنا كذلك.. نحن ثوار أتفهمين؟

- (موسى) أتدري.. عندما تنظر لطفل فأنت ترى السعادة والنقاء والطهارة المطلقة وعندما تنظر لشخص بالغ غالبًا ما ترى ركامًا من الحزن والخوف والعديد من الأشياء.. أنا أريد أن يظل حبنا طفلاً.. لا أريده أن يكبر أبدًا.

- سيظل كذلك طالما أننا نعيش الحب وكأنه ثورة.. كوني واثقة أنه لا شيء سيمنعني عن تحقيق أكثر أحلامكِ جنونًا.

– ما رأيك أن تحملني ليلاً وتركض بي بعيدًا نحو أرض لا ننتمي لها ونختبئ هناك حتى الصباح هربًا من الضجيج والمتطفلين فآفة بلادنا هي تخريب كل ما هو غير مألوف ولهذا علينا الهرب لأبعد وطن يمكننا الوصول إليه.

– ما الحياة إلا حُلم يا قهوتي المُحلاة.. وكل ما عليكِ فعله هو سرد الأمنيات ولكِ أن ترينها تتحقق واحدة تلو الأخرى كحبات الفيروز في مسابح الدراويش تتساقط متتابعة من بين أصابعهم.

– أنا أشعر وكأنني أزداد قوة كلما اقتربت مني نبراتك حتى وإن لم نكن نتحدث.. أسمعها من بين كلماتك المطبوعة على شاشة هاتفي.. أنا مؤمنة بك.

– إن كنتِ مؤمنة بي حقًا ستشرق فوق رأسكِ ألف شمس.. ستنفرج أمامك أسارير المحيط.. سيدعكِ تمشين فوق أمواجه كساحر عليم.. كوني واثقة.. كوني فقط قوية كفاية لأكتمل بكِ.

– إن كانت هذه حلبة صراع فأنا قد ربحت منك هذه الجولة أردت وعدًا واحدًا فأخذت أكثر من ذلك.. حقًا أنت قنينة عطري الخاصة يا (موسى).

– أنتِ دائمًا ما تربحين فهذا حدث سابقًا والآن وسيحدث غدًا أيضًا.. كيف لي أن أنتصر على فتاة حبها استقر في حشايا كسكين اخترق قالب زُبد.. أنتِ الملجأ والوطن.. أنتِ نجمة خُلقت من أجلي في عصور سحيقة طويت.. ربما فقدت سطوعها ولكنها مازالت تجذبني لأحدق نحو السماء لا لشيء سوى

لرؤيتها.. أنتِ منزلي الصغير ذو الحديقة التي تشبه قلب جدتي.. ذو السور الخشبي الأبيض والمدخنة العجوز.. أنني أحبكِ وهذا كل ما أعرفه.

- أتعلم!.. إن كان هناك شيئًا يجب أن تفتخر به فسيكون ذلك الأريج النابع من قرارة ذاتك.. ذلك النبل الذي يرغمني على التحليق عاليًا عندما أكون برفقتك.. سأقول لك شيئًا.. أنا أيضًا أحبك وهذا كل ما أعرفه.

- هناك أمر يجب أن تعتقدي بصحته حد اليقين.. العالم سيصبح في مهزلة حقيقية إن غبتِ عن البزوغ مع كل فجر.

- وماذا عن الشهد الذي يسيل من عينيك إذا اصطدمت شمس الشتاء الدافئة بهما؟؟ تمتلك مرايا بُنية شديدة الصفاء تجعلني أجزم أنهما خلقتا من ألهار عسل الجنة.. أظن أن العالم سيصبح أكثر مرارة إن غابت حدقاتك عن السيلان كل ظهيرة..

- العالم بالفعل كان أكثر مرارة من الآن ولكن ليس بفضل عيناي بل بفضلكِ أنتِ.. لقد اضطررت لمواجهة الخسارة والألم مرات لا تُحصى.. لقد أحدثت فوضى جامحة حتى أتغلب على كل هذا.. ولكن لم أفلح قط إلا عندما طرقتِ أبوابي صدفة ذات مرة.. وبعدها تغير كل شيء... حتى الأشجار أصبح لونها ورديًا وتخلت عن خضرتها!!.. جعلتيني ألامس غيوم السماء بعبثية كطفل صغير مُدلل.. جعلتيني أؤمن بأن أمنيات الصالحين في الفردوس يمكن تحقيقها على الأرض.. لقد جعلتيني أكثر جنونًا وأكثر حكمة!!

– لن أستطيع مجاراتك فأنا على ما يبدو أُحب شاعرًا ومن العبث أن أتحداك.. ربما سأذهب لتلبية نداءات أمي وسأعود.. كن دائمًا بخير عزيزي.

– سأنتظركِ.. دائمًا سأكون كذلك من أجلكِ..

توقفت أصابعهم عن الطقطقة فوق شاشات هواتفهم ولكن قلوبهم مازال خفقانها في ازدياد.. إن أفضل ما يمكنك إنجازه هو أن تُحب ويحبك أحدهم في المقابل.. فالحب يرفعنا إلى حيث ننتمي.. يكشف عيوبنا ومزايانا أيضًا... قد يجعلنا الحب حمقى وقد يجعلنا أبطالاً خالدين!!.. ليس معنيًا بذلك كل من يُريد حُبًا سهلاً سلسًا لا اشتياق فيه ولا سُهاد.. فالعشق يضرب أركان من يستحقوه يذهب لهم ليلاً كزائر مُتكلف أو كشرطي يفرض حمايته حول منازلهم.. إنها تلك القصة الخالدة التي لا يمل الزمن من تكرارها وتلاوتها.. قصة الأرواح الذائبة في ملكوت الحب الإلهي.. قصة آدم وتلك المخلوقة من ضلعه.. قصة تُنسخ كل يوم لأن هذه مشيئة الرب.

الفصل الثاني

(سـيـرتـا)

بيني وبينكِ في المحبة نسبةُ
مكتومة عن سرّ هذا العالمُ
نحن اللذان تعارفت أرواحنا
من قبل خلق الله طينة آدمُ

*شهاب الدين السهروردي.

أحيانًا يُمكن لشفتي محبوبتك أن تتحركا دون أن تفهم ما نطقتا به.. يُمكنهما دائمًا مناداتك دون أن تسمع ذلك ولكنك تُلبي إنه شيء مازال عصيًا على الفهم ولا سبيل لمن هو خارج إطاره بأن يُفسره فتلك تسابيح مدونة على جباه المحبين لا يفقه ترتيلها إلا ولي وكذلك تفعل المدن مع عُشاقها المُختارين أولئك الذين كُتبت أقدارهم فوق القرميد الكستنائي لساحاتها وهذا لأن المدن في الغالب تتصرف كالنساء فإن أحببت إحداهن بصدق بادلتك الحب بطريقة أكثر روحانية مما تتوقع وأكثر سحرًا مما تأمل حتى وإن كانت تلك المدينة تبعد عن ديارك مسيرة أشهر فهي حتمًا ستناديك وأنت حتمًا ستلبي وإن ظننت أنه قد لا تنجح علاقة من هذا النوع بين طرفين بعيدين فأنت مخطئ لأنها رغم بُعدها عنك ستجلبك لتحاكيك أزقتها كما كانت تفعل والدتك وستهدهدك مثلها إن تذمرت من خطب ما.. وأما إن تحدثنا عن أفضل من يمكنها فعل ذلك فليس أمامنا خيارًا أكثر جاذبية وسطوعًا من سيرتا تلك المدينة التي لحجارة جدرانها عبقًا يُماثل روائح المجد المصري العالقة على أسوار أخيتاتون حيث وحد هناك القدماء (آتون) كرمز معبود لإله محجوب خلف سماواته لا تُعلم ماهيته ولكنه يمنحهم بعضًا من شغف الحقيقة لتستنير به قلوبهم فينقادوا للأمام نحو طريق الخلاص ليُرنمون في قصائدهم واصفينه بالقدرة التامة والسيطرة والتفرد تمامًا كما يليق بالإله أن يكون بينما تُركت بقية الآلهة المنحوتة من صخر أصم لتتعفن جنوبًا في طيبة.. وربما تعتقد أن سيرتا كان ينقصها (أخناتون) آخر لتكتمل زينتها ولكنها فعلت ذلك بطريقتها الأنثوية الخاصة لتجاور شقيقاتها المصريات اللواتي ولدن قبلها ولكن ذلك لم يمنعها من اللحاق بهن.. إنها أخر ما تبقى من فردوسٍ كان قائمًا هُنا ذات

يوم.. وستبدو لك كفتاة باسكية قابلتها سابقًا في أحلامك تتكلم بعينيها من خلف وشاح لا يحجب عنك شعرها الممزوج الآسر المضفر بعقود الياسمين لتقترب منها قائلاً:

– "لقد بجللكِ قلبي".

لتُريك ملامحك في زينة وجهها ويتردد صوتك عبر اهتزاز أساورها.. إنها المدينة التي يُمكنها احتوائك كأم.. فعندما تصلها ستمتزج بها وستدفعك لتجلس وسط طريق جبلي بين حافتين فربما سيتصف هذا ببعض الغرابة ولكنك حتمًا ستشعر بأنك ما زلت في المنزل وسيبدو لك الأمر مألوفًا وكأنه يحدث داخل أراضيك.. وقد تكون مفلسًا حين تتسكع فوق جسورها ولكنك ستتصرف كرجل ثري حد الفُحش.. ستجعلك تُقر بأنها مميزة وبعد مرور ساعات ستؤمن بأنها الأفضل فلا شيء قد يوازي جمال وطنك إلا سيرتا.. ستكون محببة إلى نفسك أكثر من أي بقعة أخرى وكأنها الحديقة الخلفية لمنزلك وعندما تتوازى في المسير ملهمًا ببطء مع امتداد أرصفتها ستجعلك تُغني لها وربما جعلتك تبدأ بأغنية من منتصف أغنية أخرى وستخوض معها غمار العشق ليوم واحد فقط وصدقًا ستتأهب لذلك دون أن تخبر أحدًا عن تفاصيل ما عشته وسيبقى كل شيء سرًا بينكما طالما مازالت أقمارُها تشُق السماء كل ليلة.. وبأزديات دوران عقارب الساعة ستشتهي معانقة ضواحيها وستغدو لك كقنينة نبيذ أحمر عُتقت لثلاثة أيام يُحل شُربُها فتقتصر بها لنفسك ولن تقبل بأن يُشاركك فيها أحد بينما سيركل قلبك نبضاته بإيقاع متسارع ليتيح لك أن تحلم بصوت عالٍ كطبل يُقرع تحت ناظري قمر الحصاد.. إنها لن تضع أمامك أية عقبات إن رغبت سُكناها ولكن عليك

التحلي بصفات المتوطنين بها.. فسكان سيرتا يعيشون في عالم خاص بهم لا يشغلون فيه باختيار الإجابات المتوافقة مع الأحاجي ولكن يدعون الأسئلة تمضي.. إنه عالم بسيط أكثر مما يجب ومعقد أكثر مما يبدو عليه وقد يكون حالمًا كآلة رباب صوفية سداسية الزوايا.. بل إن لكل موضع قدم فيه قدسيته الخاصة التي تمنحها زرقة السماء لكل ما هو تحتها فحتى المقابر لا تدفن فيها عظام الغربان ولا قاطعي الطرق المشوهين ولا الزنادقة.. وهناك الكثير أمامك لتفعله إن حظوت بها كرفيقة.. يمكنك أن تتوق إليها بأنفاس متقطعة ويحدثك نصفك بأن تغادر لديارك في أقرب قطار مُقلع وأما نصفك الآخر فسيقول دعنا نمكث هنا إلى الأبد فكل الأشياء داخل هذا الحيز لا تتشابه.. حتى أن أمطار الصيف الموسمية لا يمكنها فرض توقيتات هطولها على رزنامة الضواحي.. إنها تبدو مدينة حذرة ومتعددة النكهات ومختالة وبتكرار إصغائك لما تتلوه عليك من حكايا ربما ستدعوك لأن تتمرد ولا تقبل بما هو أقل كسهم الشمال ينظر دائمًا لأعلى.. وإن كنت بحاجة لمعرفة كيف ولدت مدينة الجسور هذه يُمكنني الآن إخبارك عن تاريخ غائر له مذاق الملاحم.. لقد ظهر اسم سيرتا إلى العلن للمرة الأولى منقوشًا على عملة برونزية عثر عليها بضواحي المدينة بمسماها الجديد "قسنطينة" وتلك العملة نُقش على وجهها رأس امرأة يعلوه تاج مُزين بما يبدو أنه أبراج مسننة في أعلاه تتخللها أبواب يعتقد بأنها تشير إلى مخارجها القديمة.. كما وجدت كتابة على ذات العملة تحمل اسم (كرتة أو كرتن) ولضرورة يقتضيها عجز الرومان عن نطق اللغة البونية فتمت قراءتها "سيرتا" وهي تعني القلعة أو الحصن في اللغة الأم للمدينة.. وهناك تسميات عديدة أخرى لها فقد كان القرطاجيون يسمونها

(ساريم باتيم).. إنها تلك العذراء ذات السماوات الخفيضة المبنية عروشها فوق صخر الجرانيت القاسي التي دائمًا ما كانت مقرًا للملوك النوميديين الذين سجلوا في ساحاتها ملاحم كبرى.. إن لسيرتا رجالها ومنهم (يوغرطة) حفيد (ماسينيسا) الملك المؤسس لنوميديا وهي مملكة شمال أفريقيا القديمة وكان موقعها فوق الخريطة داخل حدود ما يُعرف اليوم جغرافيًا بالمغرب العربي الكبير فامتدت تلك المملكة من غرب تونس الخضراء حتى شرق أراضي المملكة المغربية.. ولأن لكل مدينة محارب خاص بها (فيوغرطة) كان المعني بذلك دون غيره وربما الوضع الذي آلت إليه البلاد هو من فرض عليه تلك الصفة فبعد موت جده تمزقت المملكة وما كان منه إلا أنه حارب من أجل إعادة توحيد ما قُسم.. وبمرور الزمن واكتساب الخبرات استطاع أن يفرض نفسه مقاتلاً وملكًا شابًا ذو بصيرة ولهذا اتسع نفوذه فتسلم الحكم في العاصمة سيرتا ثم أمر بقتل (عزربعل) ابن عمه الأداة الطيعة للرومان وشمل ذلك قتل جميع أتباعه قرب أسوار العاصمة سنة ١١٣ ق. م ثم أمر بقتل التجار الرومانيين ففزعت روما لهول ما حدث وباتت الرؤية واضحة للجميع بأن (يوغرطة) يتحداهم ويريد تأسيس مملكة نوميدية قوية فأعلنت روما الحرب ضد سيرتا وعاهلها.. حربًا ضروسًا استمرت لسبع سنوات أذاقهم فيها (يوغرطة) مرارة الهزيمة عددًا لا يُحصى من المرات ولهذا لم تكن هنالك طريقة أخرى متاحة لهزيمته إلا بالحيلة والمؤامرة.. فنصب له حموه (بوكوس) فخًا وعندها وقع (يوغرطة) أسيرًا وتم تسليمه لقائد جيوش القيصر ليُقتاد في الشوارع هو وأولاده ثم يقطع الرومان أذنيه ويلقوه في أحد سجون روما ليموت هناك على مهل وكان ذلك عام ١٠٤ ق. م.. إنها تبدو نهاية غير عادلة ولكن

هذا يظل مصير أيقونات التحرر النبلاء في كل عصر وهُنا يكمن العزاء.. فمثل هؤلاء الرجال حياتهم كانت مكرسة لأمور أعظم من أنفسهم لأن قسم الولاء للوطن بالنسبة لهم أكثر من مجرد التزام فقد جعلهم يرون أشياءً كان من الصعب عليهم أن يروها بمفردهم.. ولكن لأن لا أحد يظل منتصرًا إلى الأبد فلذلك خفتوا وحل عليهم ما كان مُقدرًا لهم أن يحدث ولكن سيرتا ظلت براقة ومحتفظة بقليل مما تبقى من إرث مجيد.. وبنهاية الحُلم اليوغرطي دخلت المدينة تحت سلطة الرومان وبعد ٤١٥ عام من مصرعه تمردت المدينة مجددًا عام ٣١١ للميلاد فأمر الإمبراطور (مكسنتيوس) بتخريبها وبعد ذلك بعامين وصل للحكم الإمبراطور اليسوعي (قسطنطين) الذي آمن بالمسيحية وجعلها دينًا رسميًا للإمبراطورية وأعاد إعمار المدينة ومنحها اسمه فصارت قسنطينة بدلاً من سيرتا.. ولكن رغم كل ما وقع فإن التاريخ لم يقف واستمرت الأمجاد تُكتب حتى وصلت المدينة إلى مواجهة حتمية مع غزاة جدد يرتدون قبعات وبزات عسكرية زرقاء إنه عهد جديد من الكفاح فعندما استهلت فرنسا حملتها العسكرية ضد الجزائر عام ١٨٣٠ كانت قسنطينة هدفًا رئيسيًا للغزو وبعد مقاومة مستميتة دامت أربع سنوات قادها (أحمد الباي) وقعت المدينة تحت نير الاستعمار الفرنسي بقيادة نفلًا فرنسيًا يُدعى (دوموريير) الذي جاء وفي نيته الاستقرار في الجزائر إلى الأبد ولكنه لم يعلم أن الجزائر ستركله هو وجميع من جلبهم معه من حثالة الأرصفة الباريسية كما ركلتهم مصر من قبل فخرج منها (نابليون) غير مأسوف عليه وتبعه بعد ذلك (كليبر) صريعًا لأنهما لم يعلما أنه لا يُمكن لأحد العبث مع كنانة الله في أرضه قاهرة الجيوش والأمم.. إن الفرنسيين أغبياء لا يدركون أن رجال الشرق

يردون الصاع صاعين واللطمة الواحدة التي نتلقاها نردها ألفية.. ولهذا وبعد عقود طويلة من الاستنزاف والمقاومة انطلقت ثورة المليون ونصف المليون شهيد لتزرع اللغم تحت أقدام فرنسا وهُنا وفي تلك اللحظة طغت على مسامع العرب والعجم موسيقى عسكرية صارمة تتصاعد باطراد ليخرج أول بيان ثوري من مذياع المحروسة ليقول مُحرره بصوت رخيم:

– "هُنا القاهرة.. إذاعة صوت العرب تبث إليكم هذا البيان العاجل.."

إنه بيان الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤.. بيان الثورة الجزائرية المجيدة.. إنه اليوم الذي أعاد الفرنسيون إلى ما وراء المتوسط حيث كانوا وأحال جنرالاتهم للتقاعد فالثورة التي تم إعلانها من القاهرة كان لزامًا عليها أن تكون ثورة قاهرة لا تُبقي ولا تذر.

ولهذا فقد رد هوميروس العرب (مفدي زكريا) على البيان الصادر من القاهرة بقصيدة عصماء بعنوان "اقرأ كتابك" دونها بدمه على جدران السجن الحربي الفرنسي القابع فيه ليقول:

– "يا مصر، يا أخت الجزائر في الهوى

لك في الجزائر حرمة لن تقطعا"

وكنتيجة طبيعية لكل ما سبق أعلنت الجزائر للعالم استقلالها التام بقيادة جبهة التحرير الوطني عام ١٩٦٢.. إن الصراع من أجل تحرير وطن تسقط دونه كل الاعتبارات البشرية الأخرى كأن يسكب أحدهم قطرات من شراب فوق سطح كأس ممتلئ فلا يكون لما أضافه أية قيمة وسيُلفظ ما زاد على الأرض.. لأنه لا يُمكنك أن تمارس إنسانيتك تحت سماء وطن مُحتل.. وهذا ما كان عن الحرب.. فماذا عن الحب؟؟ إنها الكيانات الوحيدة ذوي القوانين التي لا

تُخرق.. فكلاهما متعادلان على ميزان الحقيقة وكلاهما مغامرة وتحت كل ندبة طُبعت حراشفها فوق جسد عاشق قصة لحرب خاضها من أجل محبوبة عذراء تحتجب خلف نافذة من زجاج كنائسي ملون.. فأحيانًا يمكننا قبول الرهان ونحن على ثقة بأننا سنفوز بشيء ذو قيمة أعمق مما فقدناه.. فالمغامرون غالبًا ما يحصدون جائزة ترضيهم بعد كل رحلة لهم وكذلك العشاق.. فالحب يُكافئنا بما يراه متوافقًا معنا.. وقد تكون الجائزة التي انتظرتها من وراء المراهنات المترادفة معانيها في وثائق توقعها كل صباح هي جمع فتاتك والبدء من جديد.. أو أن تتعلم أنه ثمة هناك أمل لنهاية سعيدة رغم كل الحزن والألم والخزي الذي شعرت به سابقًا.. أو قد تكون الجائزة الحقيقية هي أنت.. أن تجد نفسك قادرًا على النهوض صباحًا متساميًا فوق كل شيء وزاهدًا تمام الزهد فيما يختبئ داخل أجربة الحواة لتخر ساجدًا في صلاة طويلة قائلاً: "إلى تلك الروح القابعة بين جوانبي خلصها أيها القدير".. لأننا إن لم نرغب في شيء يبدو أبعد مما يمكن لأيدينا أن تمتد لحوه فلن نصبح تعساء أبدًا.. ولكن يُمكننا فقط أن نطمع في حب يرافقنا دون أن نستدل عليه أو أن نعرف كيف يمكننا الوصول لحدود أراضيه ولا يُخجلنا أن نعترف بذلك ولكن المهم أن نشعر بوجوده حتى وإن كانت ذواتنا متباعدة المسافات غير لصيقة.. فالأمر أشبه بصورة قديمة لحبيبين انفصلا منذ زمن ولكن مازالت تلك الصورة تحتفظ بهما معًا رغم الغياب.. لنكن فقط صادقين عندما نُحب لتبقى أطيافنا شغوفة بما قدمناه إلى آخر الأيام.. فمن يرغب بأن يعيش إلى يوم الدينونة يجب عليه في أن يُفكر فيمَن يُحب مع كل خطوة له على الطريق.. ووحده من يجرؤ على الحب إلى الأبد هو من سيعيش إلى

الأبد.. وإن استطعنا أن نفعل ذلك دون النظر لقيمة ما سندفعه عندها يُمكن للقديسين أن يتحدثوا معنا بوداعة كحملان ليجعلونا نبدو أصغر في السن وممتلئين بالحياة وستظل مسارات حبنا ساطعة ولن تبقى مهامنا المتبقية غير منجزة.. حتى أن قلوبنا ستنبض في الاتجاهات الأربعة بوقت واحد والأنهار ستنسى مجاريها وستسلك طُرقًا أخرى نحو المصب.. ولنعلم أن الحب في ذاته لا يقبل الخلل لأنه نوع من العداوة ولذلك لا يُمكنك سوى مواجهة العالم من أجل أحبائك.. افعل كل ما يجب حتى لا تشتاقهم في منتصف ليالي الصيف ساهرًا بعينين متعبتين وقاتل من أجل أن يكونوا إلى جوارك وكن مستعدًا لقطع مسافات أطول من أجلهم.. وخلال قيامك بذلك لن تُدرك وحدك ما هو الحق وما هو الزيف وستظل دائمًا في حاجة إلى علامة.. ستظل دائمًا أسير تجاربك.. أسير النهايات السعيدة والمآسي ولهذا سيعجز الجميع عن إنقاذك إن تضررت.. ولكن لا مجال للفرار فأنت ستلعب دورك كما خُطط له وستُحب كما قُدر لك.. ومن اللاتق ألا تدع أحدًا يُعطي الحب اسمًا سيئًا آخر أو صفة تنافيه.. وتيقن أن نجوم السماء ستظل متفرقة ولن تجتمع أبدًا في سماء واحدة إلا عندما تؤمن بأن المخاطرة بكل شيء وكتابة رسائل على الجدران لفتاتك هي أسرع الحلول المتاحة للنجاة من أمسيات أستارها ليست كما تبدو عليه ومن فجر ليس لديه الرغبة في البزوغ.. فقط حاول أن تمتلك لها الامتنان الكافي لتُغمض عينيك وتحتفظ بصورتها في قلبك فهي ستُنجيك من أقدار ليس لديك الحق في النجاة منها.. ولأن الرب دائمًا يشمل المُحبين بمعيته فكن متحررًا غير محتاط فقد حُزت كل ما يُمكن لمرتجف أن يناله من أمان.. بينما (موسى) لا يقوم بأي مما سبق ولكنه يُحبُها بطريقة أكثر

خصوصية لا تليق إلا بهما.. طريقة قدرية ذات طقوس تُمليها عليهم أرواح علوية لا تحدث إلا لمن امتزجوا ببعضهم في قسط من الليل.. فهما تمامًا كقلبين لم يترصد أحدهما الوقوع في حب الآخر ولكن عندما جمعهما مكان واحد وقعا فيه.. إنه يُريد امتلاك جدائل شعرها التي نزفت الكثير من قهوتها.. وجمع كل قناني العطر الخاصة بها ليغرق فيهم وحده.. بل إنه يُريد احتجاز أنفاسها العالقة بشراشف مخدعها لتمنحه حياة أخرى تمتد دون انقطاع كجُرم لا ينفك عن الدوران حول مركزه.. فهي فتاة تُشبه مدينتها ولا يُمكنك فعل أي شيء حيالها سوى أن تُغرم بها دون إرادة منك ويتجدد ذلك كلما حادثتها.. إن (موسى) هائمٌ كُليا بها لدرجة أنه يُمكن أن يُراسل كل عذارى العالم ببرقيات شُكر.. فقط لأنها واحدة منهن.. وفي حيز أخر من العالم تظل الصباحات التي تحمل معها دروسًا متوالية لا تنقطع وخلال إحدى إشراقاتها الباكرة اجتاز (موسى) زحمة السير في شارعه قافزًا في ثلاث خطوات طويلة نحو الرصيف المقابل لبوابة منزله حيث يقع المقهى الذي اعتاد الجلوس عليه كلما أراد أن يحتسي كوبًا من القهوة العربية ذات المذاق اللاذع قليلاً فدخل المقهى مرتديًا قميصًا صيفيًا أرجوانيًا ممتزجًا ببعض الخطوط المائلة إلى البياض ولم يهتم كثيرًا بتنسيق شعره الساقط على جبهته ولكنه اكتفى بتعديل وضعيته حيث اخترقه بأصابعه ورفعه للأعلى ولم يهتم بالذهاب للجامعة أيضًا حيث إنها السنة الثانية على التوالي التي يؤجل فيها خوض الاختبارات الفصلية وربما هذا سيجعله طالبًا في السنة الثالثة بقسم التاريخ لعامين متواليين.. بعد دخوله لساحة المقهى وضع يده فوق شفتيه وبحث للحظات عن مقعد خالٍ وجلس

عليه ثم أخرج نظارته وهاتفه من جيب بنطاله وعندما اتضحت الرؤية شاهد النادل يمر من أمامه مُسرعًا فأشار إليه رافعًا السبابة قائلاً بلهجة محلية:

– "واحد قهوة سِك"

أي قهوة ثقيلة القوام بدون سكر.. فأومأ إليه النادل برأسه بما يعني أنه سيُلبي طلبه بعد دقائق.. وكانت حينها الساعة تُشير إلى التاسعة والنصف تمامًا فأمسك بهاتفه ليبعث رسالة صباحية (لأميرة) حتى تصل قهوته.. كتب لها أنه يشتاقها رغم أنهما أنهيا حديثهما بالأمس قبل الفجر بساعة واحدة ولكن ويبدو له الوقت ما بين نومها واستفاقتها مُملاً لذلك أخبرها بأنه يجب أن يستفيقا في موعد واحد حتى لا يضطر أحدهما أن ينتظر الأخر حتى يفيق.. وبعد مراسلتها أحضر له النادل فنجان القهوة الخاص به رافق ذلك تيار هواء بارد يأتي من خارج الأبواب الزجاجية للمقهى فأخذ يرتشف قهوته على مهل وهو ينظر من خلال الأبواب للشارع على الجهة الأخرى وحين وصل للرشفات الأخيرة من الفنجان شاهد على الرصيف فيما بدا له أنهما زوجان.. رجلٌ قعيد ربما يتخطى السبعين من العمر جالسًا على كُرسي مدولب عاقدًا يدًا فوق يد مستمتعًا بتجواله الصباحي وأما زوجته فتماثله في السن أو تصغره بقليل وتدفعه من الخلف برفق ممسكة بمقابض الكرسي الخلفية دون أن تُظهر أقل علامات الامتعاض بل تدفعه للأمام بحب.. وكم أراد (موسى) أن يصل مع (أميرة) إلى تلك اللحظة.. أراد أن يتقاعد كعجوز تجاوز العقد الثامن ترعاه محبوبته التي طالما كان يراها عشرينية كما أحبها أول مرة طوال الخمسين عامًا الماضية.. فعندما تكبر بجوار من تحب سترغب بتفقد البساطة المطلقة بكل شيء وسيكون الهدوء أكثر حضورًا والأصوات أكثر غنى.. مرت

نصف ساعة أخرى حتى أفاقت (أميرة) من نعاسها مدت يدها ببطء نحو صوانة السرير المجاورة لها وبحثت بأطراف أصابعها عن الهاتف لتمسك به وتفتح عينيها بتكاسل لترى الساعة والرسائل الجديدة الواردة من (موسى).. اليوم هو الثلاثاء الموافق السادس عشر من أبريل للعام الثالث عشر بعد الفيتين الساعة التاسعة صباحًا بتوقيت الجزائر.. العاشرة صباحًا بتوقيت المقهى الجالس به قرينها البعيد عنها مئات الأميال.. لقد مر الآن عام وشهران على بداية علاقتهما ويبدو أنها ستستمر لأطول من ذلك.. اعتدلت وتحولت من التمدد إلى الجلوس مستندة على عوارض السرير الخشبية واضعة خلفها وسادة ثم تابعت النقر على شاشة هاتفها وعندما تصفحت رسالته غمرها إحساس عميق بالرضا ربما لأنها تُحب تتبعه المستمر لها أو ربما تطمئن بوجوده رفقتها صباح كل يوم عبر رسائله.. فهو بالنسبة لها الشخص الذي يُمكنه أن يقضي نهارًا كاملاً في إنشاد قصيدة تُحبها أو إصلاح صنبور مياه مُعطل في بيتهما الذي سيرتب لها أركانه كما تخيلته وبعد دقائق من استفاقتها شرعت في مغادرة السرير وذهبت لفعل عاداتها الصباحية المعتادة من استحمام وتبديل الملابس وتحضير سريع لوجبة الإفطار ثم عادت لتكتب إليه رسالة نصية قصيرة ليفتتحا نقاشًا صباحيًا محببًا لكليهما.. وبينما كان (موسى) يهم لمغادرة المقهى اهتز هاتفه ليدور حول نفسه فوق سطح الطاولة الخشبية التي يضع عليها فنجانه بما يعني أن هناك رسالة تأتيه من وراء جسور قسنطينة العتيقة.. أضاء الهاتف باسم (أميرة) وكان ذلك كفيلاً ليجعله يبتهج فهي أحب إليه من روحه التي بين جنبيه.. فوضع ثمن القهوة بجوار الفنجان

الفارغ وخرج متجهًا نحو منزله ليُحادثها في غرفته وينتشي وحيدًا بعطرها النافذة روائحه من شاشة هاتفه.. وأثناء قطعه للطريق راسلها قائلاً:

– أحد طبائع الملكات الراشدات أنهن يقُمن باكرًا لإدارة شئون رعاياهن.. أما أنتِ فدلالكِ فاق الحد ويبدو أن لكِ مراسمكِ الملكية الخاصة التي لا يتطلع عليها سواكِ.

ابتسمت (أميرة) وردت عليه برسالة منافية لما قاله وأنها تقوم بواجبها نحو رعيتها على الوجه الأكمل.. وأثناء ذلك صعد (موسى) الدرج متخطيًا بسطاته الرخامية برشاقة ثم أدار مقبض الباب ودخل المنزل ثم طرح نفسه فوق كرسيه البُني المحشو بالإسفنج ومُغطى بالجلد المدبوغ ليحكي لها عما رآه صباحًا مما كان من أمر العجوزين ويسترسل في الحديث معها حول قطعية البقاء متجاورين حتى الشيخوخة سويًا فأخذ الحوار بينهما منحنى يؤكدا من خلاله ما سبق حيث قال لها متكئًا على جانب كُرسيه الأيسر:

– أتعلمين.. أنتِ لن تفقدي بريقكِ أبدًا.

– وما أدراك؟

– لست بحاجة للتنجيم فالشمس في الصباح ستتكفل بذلك وستمنحكِ بعضًا من ذهبيتها وأما في المساء فالقمر سيضيئ بشرتكِ حتى وإن كان غير مكتمل.

– سأكون مشرقة فقط في حالة إن كنت معي وحينها يمكنني أن أنثر غبار النجوم لمرة واحدة أخيرة فوق رأسك لتوازيني في البريق.. لأن غبار النجوم لا

يسعني الحصول عليه سوى مرة واحدة كل خمسمائة عام ولا أظن أنها ستتكرر مرتين.

- كثيرًا ما كنت أتساءل هل أنا أحتاجكِ؟؟ هل أنا أُحبكِ؟؟ وما هي إلا ثوانٍ تُعد على أصابع يد واحدة بعد السؤال حتى أرى نفسي منقادًا إليكِ كضرير يتحسس الجدار ليصل إلى نهاية الطريق.. فبدونكِ لن أصل عزيزتي.

- أنا أيضًا فعلت ولكني كنت أتعجب.. كيف لم أُدرك وجودك إلا عندما ظهرت لي قدرًا؟؟.. كان من المفترض لقلبي أن يسمع نداءك حتى وإن لم تكن تُنادي.. فأنت تُشعرني وكأنما السماء في قبضتي ولا أهتم إن بدوت جميلة أم لا.. فكل الجميلات عندما يكبرن ستُكسر قلوبهن فوق تبة ما.. ولهذا فأنا سأنجو لأني جميلة بك.. وأما بقيتهن فلن يتمكنَ من فعل شيء حيال الأمر لأنهن لا يملكنك.

- يُمكنني أن أعدُكِ بعدم ترك يديكِ فارغتين دون أن تُعانقهما يداي.. وعندما لا نستطيع التحليق مترافقين عبر السماوات.. سأسير بجوارِكِ حارسًا على الأرض بينما أنتِ ستقرضيني بعضًا من الخلاص الكامن فيكِ حتى يُمكنني الخوض في دركات الجحيم السبع باحثًا عن سُلم سري للسماء يُمكنك من خلاله العبور لعوالم أُخرى تنتمين لها تتشقق غيومها ورعًا وحُبًا وتُزرع أراضيها قمحًا بلون الورد.. لتكوني أنتِ عندئذٍ شفيعتي.. فليس لمن يحمل أوزاره فوق ظهره كالطود مثلي أن يخطو بثبات على صروحكِ المُمَردة بقوارير سُليمانية ولا يُمكنني السير فوق قوالب القرميد المُذهب المغسول بزيت النارنج المرصوفة به ردهات ضاحيتكِ هناك.

– من يقبل مقارعة لعنات الجحيم لأجل من يُحب ستكون الجنة بدونه مجرد حيز من الفراغ وهذا لا يُقره الرب.. لأنه هو من خلق لنا قلوبًا نابضة وأسكن فيها عشقًا لا يصهره إلا خُذلان عميق.. لذلك كن متضرعًا له وثق بي فالرب سيهدينا السبيل إن كُنا حقًا مؤمنين.

– إنني أتضرع له تضرع المستنيرين من عِباده وأذكره ذكر الزهاد نحيلي الأجساد الجالسين على عتبات الأزهر.. وقبل أن أغفو ليلاً أتممتُ لكِ بدعوات أختتمها قائلاً: "فليتمجد الرب في الأعالي" لعل ما أسرهُ من حُبٍ يُقبل.

– (موسى) أيمكنني أن أطالبك برغبة لا ينقطع صداها عن أذني؟

– ومن يُمكنه إذن إن لم يُسمح لكِ؟

– إذن.. أُريدُك أن تُغني لي!

– في الحقيقة أنا لا أُجيد الغناء ولكن يُمكنني فعل ما هو أكثر تعقيدًا وصعوبة من ذلك.

– مثل ماذا؟

– أستطيع أن أحكي لكِ عن أبطال خارقين وأساطير قديمة والكثير من قصص الأولياء المُحبين المحترقة صباباتهم توقًا وانتظارًا متطلعين لنظرة واحدة من عيون حبيباتهم الواسعة ليُقتلوا بعد ذلك فداءً لمباسمهن كما سأفعل أنا تمامًا إن قُدر لي.

توهجت وجنتي (أميرة) خجلاً وغطت ملامح وجهها غبطة لا تخفى على الناظر إليها حينها ثم قالت:

– هذه موهبة أخرى لم أكن أعرفها عنك.. ماذا أيضًا تخفيه بداخلك؟؟

– لا يوجد بداخلي شيء أُخفيه سوى...

فتاة أجمل من الثريا أعشقها كرائحة أمي.

– أما أنا فأخفي الكثير لأنني أُحِبك لأسباب أخرى مختلفة.. الفتاة لا تمنح أمومتها إلا لمن يستطيع أن يعيش بداخلها ويُطمئنها وقت الخسارات الكبرى.. ولهذا فحتى إن سُلبت كل شيء وعُرضت عليك كل عيوبي ستظل تُحِبُني بنفس القدر وذلك يدفعني للقول أنني حصلت على كل ما أحتاج ما دمت باقيًا بجواري.

– سأُخبركِ أمرًا.. يُمكن للحياة أن تُلقي بكِ بعيدًا عن المسار.. وقد تواجهين نزيفًا واختلالًا وسقوطًا.. ولكن إن نظرتِ للخلف ستجديني ملتصقًا بظلكِ.. سأكون هُناك لأُخيط لكِ ما أصابكِ من جراح ولنبدأ معًا رحلة الشفاء.. لأن كل خطأ قد يقع منكِ وكل ذلل قد تُبديه فأنا من فعلته وليس من العدالة أن تُحاسبي عليه وبالمُقابل فكل معروف قدمته وكل صدقة خرجت من يدي لتستقر في جوف مسكين فهي لكِ.. ولكن الرب شاء أن أفعلها بدلاً عنكِ.. فالعيوب والخطايا يا صغيرتي لم تُخلق لتتماس معكِ.. فقط أهملي كل شيء واتركيه خلفكِ وتذكري شيئًا واحدًا.. أنني سأكون متواجدًا دائمًا إن كُنتِ بحاجة لوالدٍ أو لصديق.. سأتواجد إن كُنتِ بحاجة لغطاء عندما تُثلج.

– أنت تجعلني أُحبك أكثر.. أؤمن بك أكثر.. تجعلني غير مكتملة إذا غبت.. غير متوازنة إلا بك.. وأخشى السقوط على وجهي إن سرت دون سماعك تقود خطواتي ولكني أثق أن الدماء والآلام والخوف لا يمكنهم الإيقاع بي وهذا لأني برفقتك أشعر وكأنني مُحاطة بجيشي الخاص المُمتد من بوابة منزلي حتى ساحات برلين.. جيشًا مُظفرًا به ألف ألف جندي يحملون

ألف ألف زنبقة صغيرة.. إن الحب وطن يا (موسى) وله دساتير تحكمه.. فقد يجعلك قسنطينيًا مثلي بين ثانية ورديفتها وقد يجعلني سكندرية مثلك إن مرت كلمة بحر ببالي عرضًا.. ومن يضع أمامه خطوط التقسيم في الخرائط كقوانين ملزمة تقبل بالحب أو ترفضه وفقًا لتباعد المسافات فهو أحمق.. فأنت تُرافقني أينما حللت رغم العدد اللا متناهي من الإنشاءات الفاصلة بيننا.

تواصل الحديث بينهما بانسياب معتاد حتى وردت بذهن (موسى) فكرة قد تُزيد من اعتدال مزاجيتها أكثر إن باح لها بالتفاصيل فقال:

– هل تُحبين صعود المرتفعات؟؟

فأجابت متعجبة:

– أخافها قليلاً ولكن لماذا؟؟

– طرح الأسئلة لا يُهم الآن.

وبعد ذلك قام من كرسيه على عجل وكتب لها مستأذنًا للخروج من المنزل لمدة لا تزيد عن الساعة ثم سيعود لاستكمال ما انقطع.. وخلال ثوانٍ سحب محفظة نقوده ووضعها في الجيب الخلفي لبنطاله وربط خيوط حذائه الرياضي ثم تحرك نحو باب الشقة وركض نزولاً بسرعة ليستقل سيارة أجرة وكان مقصده متجر فخم للملابس النسائية في الضاحية المجاورة للميناء وعند وصوله دخل وصافح الباعة الواقفين خلف صناديق العرض الزجاجية على طول الممر الداخلي للمتجر وقضى أكثر من نصف ساعة يحاورهم لأن ما يطلبه قد يتعذر الحصول عليه الآن ولكن أحد الباعة طلب منه الجلوس ريثما يصعد إلى المخزن الخاص بالمتجر في الطابق العلوي ربما يُحضر له ما يرغب في شرائه.. وبالفعل هذا ما حدث وابتهج (موسى) كثيرًا لذلك ورغم الثمن الباهظ

لهذه القطعة إلا أنه دفعه بسلاسة دون نقاش يُذكر حول إمكانية تخفيض المبلغ وخرج من المتجر حاملاً كيسًا مزخرفًا مشيرًا لسيارة أجرة أخرى بالتوقف ليستقلها متجهًا نحو منزله وبعد وصوله أدار المفتاح الخاص بأقفال باب شقته ثم وضع الكيس جانبًا وتقدم نحو خزانة ملابسه المتواجدة في الركن الأيمن لغرفته ثم فتح الخزانة متفحصًا محتوياتها من الأعلى للأسفل واستخرج جميع الكنزات الصوفية الشتوية وملحقاتها وبعد ذلك أدار ظهره لها حاملاً تحت ذراعه سروالاً قطنيًا وكنزة صوفية زرقاء وغطاء للرأس ثم بدل ملابسه خلال دقائق والتقط صورة بزيه الشتوي وأرسلها (لأميرة) يُرافقها بعض الملصقات الساخرة.. وعند استلامها أبدت دهشتها وضحكت بصوت خفيض خاصة أن (موسى) يظهر في الصورة مشيرًا لها ببعض الحركات الهزلية فقالت له:

– نحن في منتصف إبريل ولسنا في بداية يناير.. أم أن الشتاء قرر العودة ليستقر في غرفتك؟!

– ما رأيك أولاً بتناسق الألوان.. كنزة زرقاء وسروالاً سماويًا؟؟

– التناسق جيد إلى حد ما ولكن حقًا لماذا ترتدي أزياءً شتوية الآن؟؟

– ما رأيكِ بأن نذهب في رحلة لأعالي قمم جبال سيناء خلال الشتاء الأول بعد زواجنا.. ما رأيك في صعود قمة جبل الطور المبارك حيث نزلت التوراة وتقدس اسم الرب؟

– يبدو لي اقتراحًا أكثر من مشوق وربما سيكون ذلك أجمل شيء حدث لي قط في حياتي.. أنا حاليًا متحمسة للصعود أكثر من حماستي للبقاء بجانبك.

ضحك (موسى) ولكن بصوت عالٍ هذه المرة وأخرج كنزة صوفية ثقيلة زهرية اللون مطرزة يدويًا بالورود وسروالاً وغطاءً للرأس يماثلاها بالإضافة لقفاز وحذاء ثم التقط صورة لذلك وأرسلها مرة أخرى (لأميرة) قائلاً:

– اشتريت لكِ زي التسلق بكامل تفاصيله كي تُشاركيني في كل لحظة أقوم فيها بمغامرة ما وأنتِ بكامل زينتكِ.. وسيبقى هذا الزي ينتظركِ في خزانة ملابسي حتى تصلي إلى هُنا وتستخرجيه بيدُكِ وتطبعي عليه بصمة عطركِ الخاصة.

نظرت بعمق للصورة المرسلة ولكلام (موسى) واختلجت بداخلها مشاعر كثيرة لأنواع متعددة من الفرحة ولم تستطع النطق خلال العشرين ثانية الأولى وسألت نفسها قائلة:

– هل حقًا يوجد هناك شخص ما يهتم بالتفاصيل الخاصة بذكريات لم تحدث بعد؟؟ أي حُبٍ هذا؟؟

ثم أغمضت عينيها وتنفست بعمق على التوالي لمرتين وقالت:

– ألم أُخبك سابقًا أنني جميلة بك؟.. لقد اكتملت زينتي يوم أحببتُك.

حقًا لقد أحست بشيء من السرور وتصرفت هذا اليوم مع جميع أفراد محيطها مثل الصغار.. وظلت محتفظة بذلك البريق في عينيها ليُدلل على وجود حُب حقيقي في حياتها ذلك ربما لأن الروائيين دائمًا ما يجعلوننا نعتقد أن أحاسيس البشر أكثر رهفة مما نظن ويبدو أنهم يمتلكون تلك الحقيقة بين دفات رواياتهم ولذلك فهي كقارئة نهمة تؤمن بأن ساعي البريد الجيد يمكنه معرفة ما تخبئه رسائل العُشاق التي يوصلها من باب إلى باب بمجرد أن

يتلمس أغلفتها.. وهكذا أيضًا يجب عليك أن تكون.. يجب عليك أن تنتبه كيف تُخبر محبوبتك بأنها مساوية للقمر المكتمل في منتصف ليالي الشهور العربية.. فهنالك العديد من جُمل المغازلة وكل جملة لها طريقة تُنطق بها لتُطغي عليها سحرًا يوافقها بشكل ما.. ولكن أكثرها نجاحًا تلك التي تجعلك بعد أن تتلفظ بها لا تدري إن كنت تمشي أم تنزلق.. تلك الجملة التي على إثرها تمتلك خيوط قلب من تُحب لتتشبث به دهرًا.. ذلك التشبث الذي يجعلك منتشيًا وخائفًا قليلاً في الوقت ذاته.. أما الآن فقد دقت الساعة تمام الرابعة عصرًا ومعها أدار (موسى) مقبض باب غرفته متجهًا بتثاقل نحو المطبخ ليُعد كوبًا من الشاي ربما لأن كثرة التفكير في كل ما يتعلق (بأميرة) أصابه بمعض الدوار ولكنه أيضًا لم ينفك عن تكرار ما قام به سابقًا آلاف المرات من استغراق طويل في رسم كل ما يحيط بعلاقتهما من خطوط عريضة لتوضيح المسار وتعبيده.. ولأنه شديد التعلق بها وهي كذلك فكانا لا يتفقان على موعد محدد للحديث عبر الهاتف أو عبر الرسائل النصية على الشبكة.. فقط يكفيه أن يبعث لها برسالة في أي وقت وهي ستُجيب في غضون دقيقة أو ربما أقل.. ولهذا فقبل أن ينتهي من كوبه الموضوع على حافة الطاولة أمامه كتب رسالة (لأميرة) يُخبرها بأنه اشتاق لها كثيرًا منذ مساء أمس وبعد أن تبادلا قليلاً من الدعابة فيما بينهما صمت (موسى) لبعض الوقت دون أن يكتب شيئًا.. وعندها سألته (أميرة) بترقب:

– هل تحتاج أن تسألني عن شيء ما؟

لم يدرِ (موسى) بماذا يُجيب ولكنه سألها قائلاً:

– ما الذي بيننا؟

أصابتها بعض الدهشة عندما قرأت سؤاله لأنها لم تكن مستعدة للإجابة عليه ولكنها كتبت له إجابة دون ترتيب مسبق للجُمل أو تفكير طويل يوازي عمق السؤال حيث قالت:

– بيننا سكينة تتبعها ليالٍ باردة أحيانًا.. والكثير من كلمة أحبك.

ربما كانت إجابتها هذه أبلغ كثيرًا مما قد يكتُبه شاعر جاهلي محترف وتلك الكلمات جعلته يُردف قائلاً:

– عندما أخبرتكِ بأنني أُحبكِ لم يكن هذا نوعًا من البوح الحالم لعاشق.. ولكني أُخبركِ بذلك لأنه لا يوجد شيء منطقي بدونكِ.. حتى الألم سيكون مزيفًا إن تألمت بعيدًا عنكِ.. أنتِ تجعليني أقف بثبات تحت قمة جبل يهتز مواجهًا أقوى اضطراب للصخر دون نظرة فزع واحدة.

– وأنت أيضًا يجب أن تعلم أنه مهما يكن الذي سيحدث غدًا أو الذي قد يحدث الآن فأنا سأبقى سعيدة وآمنة لأنني أحبك.. فدائمًا ما أشعر أنك تمتلك إجابة لكل سؤال وأحجية.

– أتدرين.. لطالما كنتِ زوجة لي سلفًا في أفكاري قبل أن يجمعنا القدر.. ولكن لا أُخفي عليكِ سرًا حفلات الزفاف لا تروقني.. بل تُخيفني كثيرًا ولا أدري لم يحدث ذلك لي.. حقًا لا أدري..

– ربما تُخيفك الأعراس لسبب ما تعجز عن وصفه ولكن هذا لن يحدث إن كنت إلى جوارك حينها.

– أعتقد أنها مجرد تجمعات كاذبة.. فلمَ علينا أن نلتزم بزي مُعين داخل القاعات!!.. لمَ لا نترجل بين الأزقة بيدين متلاحمتين وياقات أقمصة بيضاء مرفوعة دون صخب.. دون رتوش؟؟

– الزواج يا (موسى) ليس أمرًا على العاشقين أن يخافاه.. ولكن في بلداننا يُجردونه من كل شيء حتى من أضوائه المُعلقة على الحوائط.. يجعلونه صعبًا ثقيلاً وتقليديًا حد الملل.

– ولهذا دائمًا ما أرى أن العلاقة ما قبل الزواج ما هي إلا بوابة يمكن لأحد الطرفين الهرب منها متى أمكنه ذلك.. لأن البعض يخافون ما أن يُغلق باب ما عليهم بوثيقة رسمية فحينها لن يُمكنهم التملص وهنا تزداد الرغبة في الهرب بصورة أكثر سوءًا.

– إنه شيء معقد وهذا جيد.. فإن كان الاقتران بمن تُحب أمرًا سلسًا ما كنا لنقاتل من أجله.. بل إنه وطن لترابه عبق خاص لا يُمكننا أن ننسى رائحته.

– الزواج برأيي هو الحب والحقيقة والإيمان.. وإن توصل أحدهم إلى تلك اللحظة التي يُدرك عندها أنه لا يُمكنه مواصلة حياته بدون تلك المرأة فأعتقد أن زواجه منها يقع قبل أن تُقره الوثائق.. وهذا ما أشعر به معكِ.

– أما برأيي فلا يقتصر الزواج عند هذا الحد ولكنه أعمق بكثير.. إن أمره يتلخص في أن كل ما خفي عن عينيك سأُريه لك بعيناي.

– دائمًا ما تُثبتين لي يومًا بعد يوم أنكِ تفوقيني فصاحة وجمالاً وحبًا.. ولكن الآن أخبريني كيف تسير مراسمه في سيرتا؟؟

– لمَ تُصر على تسميتها سيرتا؟؟ الجميع هُنا يُلقبونها بقسنطينة.. فقط عش واقعها كما نعيشه نحن.

– للمُحبين مذاهب تختلف عن البقية.. سيرتا ما هي إلا أنتِ.. لا تليق إلا بكِ.. شعرها مجدول كشعركِ.. عيناها سهليتان كعينيكِ.. تنطق شفتاها بالشغف ولا شيء آخر.. أما قسنطينة فتليق بفتاة شديدة البأس راسخة

كجسورها المعلقة.. ولكن على أية حال فلنترك التسميات جانبًا ولتخبريني عن المراسم كما يتراءى لكِ أن تصفي.

– أعراس قسنطينة نابعة من أصالة التراث وما يتطلبه الحاضر ومراحلها عديدة وشاقة على غير القسنطينيين ولكن يمكنني إيضاحها لك في عدة نقاط لذلك ضع سماعات الأذن الخاصة بهاتفك لأنني سأمليها عليك بصوتي لعلك تحفظها بشكل أكثر سهولة.

ابتسم (موسى) وقال:

– شكرًا للسماء لأنها ستمنحني بعضًا من أريج صوتك اليوم كما اعتادت أن تفعل.

– يمكنك الإنصات الآن وتأجيل ما تنويه من غزل إلى وقت لاحق.

قامت (أميرة) بضغط زر الاتصال الظاهر على شاشة التطبيق الخاص بالمحادثة عبر الشبكة بينها وبين (موسى) وعندما وردته مكالمتها افتتحها بكلمة واحدة "أُحِبُكِ".. سمعتها ثم ضحكت وكان لصوت ضحكتها مذاقًا خاصًا يمكنه أن يُذيب قلب (موسى) ويُعيد تشكيله مجددًا.. وبعد لحظات استجمعت جديتها وقالت:

– هذه هي خطوات العرس القسنطيني.. فلتنصت وتتعلم.. أولاً.. "الطلب والقبول" حيث يأتي الشاب لمنزل فتاته طالبًا يدها وإذا تمت الموافقة عليه يتم الاتفاق عرفيًا على المهر والحُلي وشاة الحلال وتعني بالدارجة القسنطينية الشاة التي سيقدمها الزوج كعشاء للمدعوين في عرسه وهي مهمة جدًا وركن أساسي بين جميع مراحل إتمام الزواج لما لها من رمزية في النفوس.. أما ثانيًا تأتي "الخطبة" وفي صباح اليوم المتفق عليه للذهاب لخطبة الفتاة رسميًا تقوم

أم الخاطب بتحضير وليمة لأسرتها يحضرها أخوال وأعمام الخاطب ثم ينطلقون لمنزل العروس حاملين معهم الهدايا والحلوى والمهر المتفق عليه مسبقًا.. ثم تأتي "الجرية" كثالث مرحلة حيث هي هدية يُقدمها الخاطب لعروسه وينوب عنه في تقديمها أهله من النساء لابسات القطيفة وهي الزي التقليدي لنساء قسنطينة.. ذلك الثوب الذي تمتزج فيه البهجة بالوقار وبحرفية الصانع أيضًا حيث إنه يحتوي على نقوش إبداعية طورتها مخيلة الجدات والأمهات عبر القرون.

وهُنا توقفت عن الوصف لدقائق.. ربما لتُعيد ترتيب ما تبقى من مراحل لتسردها كما يجب أن تُسرد.. ولكن (موسى) قاطع صمتها قائلاً:

– وماذا أيضًا؟؟ أم أن هذا كل شيء؟؟

فأجابته:

– لا.. مازالت هناك بعض المراحل الإضافية مثل "العقود" وهي الوثائق التي يوقع عليها الزوجين داخل أروقة الدوائر القضائية والهيئات الحكومية ثم يوضع عليها ختم الدولة وبذلك يُعلنان زوج وزوجة أمام الله والشعب.. ثم بعد ذلك يأتي "يوم الشورة" وهو مرحلة شراء العروس لبعض المستلزمات من الملبوسات والأحذية وأدوات الزينة وغيرها من الكماليات الأخرى.. ويتم شراء كل ذلك من رصيد المهر المدفوع لها سلفًا.. وبنهاية اليوم تتفق العائلتان على موعد تسليم الشاة لإقامة وليمة العشاء ليحضرها أحباء العروسين من أصدقاء وأقارب وأقران.. ثم بعد ذلك بعدة أيام تجتمع النسوة في بيت العروس لينقشن بالحناء موروثات ثقافتنا على يدي العروس وقدميها حاملات شموعًا طويلة مُضاءة ربما ترمز لجذوة الحب التي سيجمع توهجها الرفيقين

في قادم الأيام ثم يرنمن أناشيدهن التقليدية وفي الغالب تلك الأناشيد ما هي إلا صلوات نبوية مشفوعة برجاء عميق لطلب بركة لا تنقطع.. ولم يتبقَ الآن سوى يوم العرس المشهود وهو اليوم الموالي ليوم الحناء لتُقام احتفالات صاخبة تعم الضاحية وما جاورها ويمر فيه ذلك الموكب البهيج حاملاً العروس الساطعة كشمس إلى بيت زوجها وسط مباركات الجموع المحتشدة.. وهذا كل شيء.

– وهل يتعين عليّ فعل ذلك عندما أصل دياركم؟؟

– عادات الأعراس ما هي إلا عرف مرن يمكن مخالفته حسب مقتضى الحال وبالنسبة لي يكفيني منك مصحفًا وخاتمًا وشاة.

– لا.. بل أعدُكِ بعُرس أكثر جلالاً مما تتخيلين.. وعندما تُصبحين معي هُنا في مصر سيُقام لكِ عُرس آخر في الجنوب.. عُرس تحكمه عادات القبائل ذات البأس الساكنة أرض الوادي المبارك أحفاد الإمبراطور الأقوى في التاريخ "تحتمس الثالث".. فعلى تلك الأرض التي ستقفين عليها بجواري كان يقف مكانكِ يومًا ما فرعون حكم العالم بقبضة من حديد.. سيكون عُرسًا لا قبل لمردة الجن به.

– لا أُريد منك سوى وعدًا بقلبٍ يسعني وأطفالك.. وأملاً في حب متدفق كنهر.. أُريد أن يكون آخر شخص معي حين ينتهي العالم هو أنت.. وهذا مهرٌ يكفيني.

– أقسم لكِ بذلك.. وكم أود لو أنني جلبت لكِ ثوب زفاف مغزولاً من القطن والأحلام ومحاكة أطرافه بالحرير.. فقط اطمئنِ ولا تخشِ شيئًا فأنا سأكون بجوارك حين أبلغ السبعين.. سنشيخ معًا وسأصنع لكِ كل ربيع كوخًا

في البرية وأجدل لكِ تاجًا من أزهار وآخر من خيوط الذهب.. وسأتعرف على مهل بجميع أمنياتك لتُحقق لكِ على وجهها الأكمل.. لذلك لا داعي للتسرع فالاختيارات أمامك ستكون كثيرة وكل ما عليكِ فعله هو أن تثقي بي وتحلمُي كيفما شئتِ.

سكت (موسى) للحظات ثم أغمض عينيه وتنفس بعمق حتى أنها تمكنت من سماع زفراته.. إن ما يجمعهما يبدو وكأنه رباط مقدس يستعصي على الانفكاك.. يبدو أنه لا شيء يُمكن أن يُفرقهما ولكن غالبًا في قصص الحب الطويلة ينجح اللا شيء في إقصاء روح التحمت بأخرى.. ينجح بفصل جسد عن جسد.. ولكن في واقع الحال إنه لأمر فريد حقًا أن تقابل شخصًا ما يمكنك أن تكشف له عن روحك ويقبلك على ما أنت عليه من عيوب.. فعندما تتيح لك الحياه حُلمًا يمضي بك أبعد من آمالك لا يكون منطقيًا أن تجزع حينما تقترب من تحقيقه!!.. إنه شعور يبدو مثل الجاذبية بل هو أقوى بكثير.. ففجأة مركزك ومحيط ثباتك على الأرض بالكامل يتغير وتكتشف فيما بعد أنك لم تعد تنتمي لوطنك كما كنت في الماضي بل ستنتمي حيث يريدك هو أن تنتمي.. ستفعل أي شيء وستصبح أي شيء يمكن أن يوفر له الحماية.. ستكون صديقًا وأخًا وحبيبًا وقد تصبح أيضًا حارسًا.. لقد كان (موسى) ينتظر من أجل هذا ويبدو أنه انتظر طويلاً ليصل لما هو عليه الآن.. إن فتاة جزائرية واحدة اختارها من بين آلاف النسخ المتاحة منها جعلته يستطيع البدء أخيرًا في حياة تأجلت كمخاض متعثر يرفض الإفراج عن مولود جديد.. وذلك لأن الحب يظل معلقًا حول أعناقنا وأعناق من نحب حتى وإن توافرت العديد من نسخهم فهذا لن يُغير من موقفنا في شيء.. وستظل قلوبنا

تخفق لهم فوق أبراج المراقبة على حدود مُدنهم فنحن عندما نُحب نُصاب بشغف المكان ومن يسكنه ولهذا (فموسى) أحب قسنطينة ربما أكثر من أي شيء آخر وكل ما يعرفه أنه عندما يكون برفقتها لا يكترث إن كان مازال قادرًا على التنفس أم لا.. لا يهم كم من الوقت مضى وهو يستمع لما تُلقيه في روعه من سحر.. إنه فقط أحد رعاياها ضمن مجموعة أخرى من ملائكة صغار ماكثون بحماها حيث إنه لا مقياس للزمن ولا تضاريس للمكان.. تابعت (أميرة) سماعها لصمته حتى عاد ليقول:

– ستكون الأبدية وقتًا كافيًا لنا لنتدارك كل ما وقع وتعويض كل فُقد.. فنحن لن نكون كسابق عهدنا أبدًا.. فقط آمني بي... آمني بأنكِ لستِ عالقة هنا بدون جدوى.. آمني بأن الحياة يمكن أن تتبدل.. ويمكن أن نرتدي العديد من الأقنعة المزركشة.. أما الآن سوف أطلعكِ على سر صغير.. ثمة عالم منفرج الأسارير بانتظارك.. أراضي خضراء... موسيقى... والكثير من ألوان قوس قزح.. فلم تعد الممرات المؤدية إلى غابة الأقزام موصدة بعد اليوم.. وهناك الكثير من الحوريات ينتظرون قدومكِ على مشارف الطرقات.. ولتعلمي أننا سنحتفل سويًا بملايين أخرى من أعياد الميلاد غير تلك التي مرت عليكِ دون شموع مشتعلة أو كعكات خجولة كخفقان قلبكِ.. يجب أن تسعدي بأنكِ لستِ ملتزمة ببعض التقاليد التي فرضتها عجائز ضاحيتكِ على جميع الفتيات هُناك.. يُمكننا أن نرقص تحت المطر بأي قدر شئنا.. يُمكنني حملك على ظهري كحقيبة وردية صغيرة لأركض بكِ حيثما تريدين.. فالعالم كُله أصبح وجهتكِ وما أنا إلا ناسك حافي القدمين يقتات من حقول عينيكِ.. أنا يا آنستي مصباحُكِ السحري وصومعتكِ ونوافير ساحاتكِ الأندلسية.. أنا

كل شيء تريدينه أن يكون.. صدقًا بوسعكِ الحظو بكل ذلك وكل ما عليكِ هو الطلب فحسب.

خرجت تلك الكلمات من بين شفتيه كأصدق ما قيل لها بالمطلق.. إنها تؤمن به كما أرادها أن تفعل.. استغرقت بعض الوقت لتعي ما قاله للتو ثم سألته:

– وما صفات تلك الفتاة التي ستُدخلها غابة الأقزام؟؟ تلك التي ستنتظر أن ترى منك عجائب السحرة؟؟ أهي فاتنة إلى هذا الحد؟؟

– وهل هناك ما هو أكثر فتنة من فتاة بيضاء لها عينان بلون الربيع أو زرقاء كموج البحر؟؟

– ولهذا السبب تُحب فتاتك؟؟

– فتاتي ليست كنساء الأرض إنما هي حورية.

عيونها جنة خضراء صغيرة أتعبد فيها للرب.

– أتعلم!.. سأقتلك إن غازلت غيري يومًا.

– أنتِ الأنثى الوحيدة بالنسبة لي في هذا العالم وأنا آدم المفتون بكِ.. أنا صريعكِ يا حواء.

– أنا لن أحضك يومًا على تذوق ثمرة قُطفت من شجرة محرمة بل إن استطعت أقمت لك بداخلي ما هو أكثر من مجرد جنة أرضية.. وإن فعلت فالرب فقط هو من يستطيع أن يُريك ذلك.

استمر تلقين الوعود بينهما لنصف ساعة أخرى وبعد نهاية المحادثة ذهب كل منهما ليجلس فوق أريكته ليُفكر في الآخر وكأن المسافات لم تردعهم يومًا

عن الحُلم.. ولكن يُمكننا القول أنه حين تُقطع الوعود لا يسعنا فعل شيء سوى انتظار تحقيقها.. لأننا حين نعشق نؤمن ولذلك لا يسعنا سوى ترك أرواحنا تعانقهم دون حواجز مانعة فنصبح برفقتهم كدراويش مجهولي الهوية لا اسم لهم أو إشارة.. ويبدو أن كل شيء حينها يختلف فحتى الكلمات المقدسة الحافظة يكون لها إيقاع مغاير عندما تتلى علينا ممن نحب.. إن وعود العشاق دائمًا ما تكون صادقة ولكنها تقبع داخل كهف محجوبة خلف هالات أكثر سطوعًا بينما حقيقة الأقدار تنتظرها بالخارج حارسة لأسرارها..

ولأن قصة حبها مُجرد قصة اعتيادية تُعاش في لحظة واحدة عشرات المرات حول العالم كان لابد للعوائق أن تُبدي بعض السطوع لتكتمل دائرتهما مُعادة التشكل الفارضة نفسها بقوة قوانين الزمن التي لا تتغير فعلى كل العشاق رسمها ومحاولة النفاذ منها أو الموت لا خيار ثالث أمامهما.. وتمثلت تلك العوائق في رفض والد (موسى) لتلك العلاقة التي تجمعه (بأميرة) لأنه لا يُدرك كيف لجسدين مُتباعدين أن يُحبا بعضهما؟.. هذه في وجهة نظره تُعد هرطقة وعندما ألح (موسى) في شرح المسألة المستعصي على والده فهمها التفت إليه وقام بسحب كُرسي مكتبه للأمام واقترب من ابنه الجالس على الطرف الآخر من مكتبه وقال بنبرة آمرة أكثر منها ناصحة:

– اسمع يا (موسى).. أنت ما زلت صغيرًا وقد لا تعي ماهية الحب أو كيف يُولد بداخلك فتظن بأن أية أنثى تحادثها وتجد في ذلك بعض البهجة يُصبح ذلك الشعور قرينة على وجود الحُب بينكما حتى وإن كانت أنثى افتراضية ولا تنتمي لبلدك أو لمجتمعك أو لثقافتك.. الحب ليس مجالًا مفتوحًا للتجارب.

فضم (موسى) شفتيه بامتعاض ثم قال:

– أبي.. لا يُمكنك الحُكم على ما أشعر به إن كان حُبًا حقيقيًا أو مُجرد بهجة مؤقتة.. إنني على علاقة جادة بها منذ فترة طويلة بل حتى إنني حادثت أسرتها وأخبرتهم أنني مُعجب بابنتهم وهم استجابوا لي ولها ربما لأنهم استشعروا صدق ما بُحت به.. وأُريد منك أنت أيضًا مباركة الأمر.

بدت علامات الدهشة الممزوجة بالقليل من الغضب مُرتسمة على وجه والده الذي قام من فوق كُرسيه واضعًا يديه المتشابكتين وراء ظهره وخطا بهدوء نحو (موسى) ثم جلس على الكُرسي المُقابل له وقال:

– إذن علاقتكما قديمة وليس هذا فحسب بل حادثت أسرتها أيضًا؟.. أعتقد أنك لست في حاجة لمُباركتي فقد أصبحت رجُلاً تقطع وعودًا وتُبرمها دون استشارة من والدُكَ فماذا ستُضيف موافقتي على هذا الأمر؟

استعد (موسى) لشرح كل شيء لوالده ولكنه بعد أن تحدث قليلاً بشكل موجز عن علاقته بها وكم هي فتاة مُميزة طلب من والده بعض المُساعدات المادية فهو لا يملك ما يُقدمه لها مهرًا فقاطعه والده قائلاً:

– لقد أخبرتُك من قبل.. أنا لن أُقر بهكذا علاقة وإن كنت مُصرًا اذهب وجد عملاً وقدم لها مهرًا تحصلت عليه بمجهودك لا بأموال أبيك فأنا لا أؤمن بامتزاج الثقافات.. لا أؤمن البتة.

خرج والده من مكتبه مُتجهًا نحو غرفته تاركًا وراءه شابًا اعتقد أن كل ما يرغب بامتلاكه يأتيه قبل أن يُفكر حتى لماذا يُريده؟.. إن والده لن يُغير رأيه أبدًا لأنه ببساطة لا يؤمن بأن القلوب قد تجتمع رغم المسافات ولهذا فهو أمامه الآن خيارين يتوازيان كقضبان السكك الحديدية فإما أن يترك كل شيء ويستمع لما تلاه عليه والده ويعتنق ما يعتنقه أو أن يذهب ليجد عملاً ويحاول

أن يُثبت لمن أحب أنه جديرٌ بها وأن دينارًا واحدًا يُهديه لها أو درهمًا مُسحت من عليه نقوشه تحصل عليه من عمل يده خيرٌ من خزائن الأرض ولهذا فقد قرر البحث عن عمل.. أي عمل.. وأبلغ (أميرة) بذلك التي سرعان ما همت بطرح انزعاجها من رفض والده ولكنه قاطعها عدة مرات قائلاً:

– ليس من المُتاح لنا تطويع هذا الكون بالكامل ليُناسب رغباتنا ولكن نمتلك الفرصة لتحقيق تلك الرغبات عن طريق التشبث بالحُلم وتعبيد السُبل الأكثر وعورة إن كُنا نُريد بعضنا البعض حقًا.

وعلى إثر هذا التبيان السابق فقد قرر أنه حال ما وجد عملًا سيترك المنزل لأجل غير مُسمى.. رُبما ليُبلغ والده بطريقة ما أنه أصبح راشدًا بما فيه الكفاية ومع توالي الأيام ولمدة شهرين أخذ يستقصي عن أي فرص لإيجاد وظيفة شاغرة في وطن يُعاني من الأساس اقتصاديًا قبل ثورته وبعدها ولا يبدو أن حل هذه المُعضلة بات قريبًا ولهذا تقلصت مدة المحادثة بينهما بل في الواقع لقد تقلصت كثيرًا فإن كانا يتحدثان في السابق يوميًا عشر ساعات أو ربما أكثر أصبح الوضع الآن أكثر انحسارًا ولكن مازالت حرارة حبهما متقدة لكن (أميرة) شعرت أنها تفقده شيئًا فشيئًا فهي تُريده معها حتى وإن كان ذلك يضع عقبة جديدة أمامهما فأرادت أن تطمئن وتهدأ بالسماع لتجارب أنثى أكثر خبرة وأكبر عُمرًا ولأن قلوبنا هي من تُحدد منعرجات مصائرنا كان لابد لها أن تقتبس إيمانها الخاص بمن تُحب عن طريق الإيغال في تجربة أخرى تمدها بما يكفي من السكينة وتمنحها المزيد من العرفان لمن يخفق داخل صدورنا جالبًا لنا شغفًا يجعلنا أكثر نضارة.. يجعلنا آدميين بشكل أفضل فنحن ندين للحب بحياتنا وبموتنا أيضًا.

ومن يُحب الآن سيبقى يُحب إلى الأبد.. ولهذا أرادت (أميرة) تأكيد ذلك عبر الاستماع لتفاصيل اللقاء الأول لعشاق تتابعت حيواتهم في زمن آخر.. لذا اقتربت من والدتها بلطف لتطرح عليها سؤلاً لطالما وضعت له أكثر من إجابة.. فجلست بجوارها على أريكة تتوسطها بعض الوسائد مخملية النسيج وقالت:

– أمي.. كيف كان شعورك عندما وقعتِ في الحب؟

تفاجأت والدتها بالسؤال للحظات ثم ابتسمت قائلة:

– سؤال غريب وإجابته أغرب.. ولكن لمَ؟

– أتوق لتفاصيل لقائكِ الأول مع والدي.

– حسنًا سأخبرك..

تراجعت للخلف قليلاً ثم أراحت ظهرها على مسند الأريكة وتشابكت ذراعيها ثم أردفت:

– تقابلت مع والدك لأول مرة عام ١٩٨٤ في العاصمة حيث كنا نتزامل في دراسة علم الاقتصاد والسياسة الدولية وما يتبعهما من حركات الأسواق وقرارات الحكومات.. ولم نكن نعلم أن كلانا من قسنطينة كنت أظنه عاصمي وهو كان كذلك يظنني عاصمية وظل فترة طويلة جدًا قاربت العام يكتفي بتوجيه نظراته إليّ.. وكأنني تأكد داخلي أن ذلك الشاب ربما يريد التحدث معي عن قرب أو أنه معجب بي بطريقة ما ولكنه كان خجولاً لدرجة يصعب معها أن تتوقعي منه أية مبادرة نحوي.

– ولكن كيف كنتِ ترينه حينها!

– كان يبدو لي أنيقًا سلسًا يُجيد تنسيق أزيائه.. هادئًا تصحبه غيمة من سكون أينما حل.. كان ناضجًا كفاية ليقود علاقتنا كما ينبغي.

– لم يكن شابًا تقليديًا إذن.

– لا بالعكس كان ذا طابع خاص فريد.

– وماذا فعل لكي يقترب منكِ؟

– لم يفعل شيئًا أكثر من أنه في صباح أحد الأيام تقدم نحوي في باحة الجامعة وسلمني رسالة مطوية دون حتى أن يُلقي أية تحية من أي نوع.. فقط وضع الرسالة في يدي ومضى.. كان تصرفًا طفوليًا جدًا منه جعلني أقف ثابتة بلا حراك كجذع لشجرة قُطعت للتو.. فالموقف بالكامل حدث في لحظات.. لم أستطع حتى أن أبدي أية ردة فعل.

– وما هي فحوى الرسالة؟

– رسالته كانت قصيرة وبسيطة للغاية.. لم تكن تحوي مقدمات أو تمهيد.. كتب كلمات أمكنها اختراقي بمجرد قراءتي لها.

– كفى تنهيدًا وأخبريني ببقية القصة.

– تلك الرسالة لم تعد موجودة معي الآن.. أعتقد أنها ضاعت عندما انتقلنا من بيتنا القديم في حامة بوزيان إلى هُنا في الخروب.. ولكن ما سُطر فيها مازال محفورًا في ذاكرتي.

– إذن أفصحي ماذا كتب لكِ؟

– كتب لي جملاً وجيزة بلا رتوش أو تكلف زائد فقال:

– "هذه رسالتي الأولى والأخيرة لكِ فأنا أتطلع إلى أن أحادثك دومًا فيما بعد دون الحاجة إلى أوراق.. ربما لا أفقه شيئًا عن كيفية التعامل مع الفتيات..

ولكن من قال لكِ يا غجرية المبسم أنكِ تنتمين لجنسهن؟.. أنتِ ولا ريب طيف من طُهر متجسد.. لذا لا تكترثي فقوانينهن لا تسري عليكِ.. أنا الآن يمكنني أن أقول لكِ أُحبكِ.. وإن كنتِ في حيرة من أمركِ فاسألي عينيكِ الخضراوين وأجيبي بما ترين".

– لم أكن أعلم قبل اليوم أن أبي كان شاعرًا!!

أشرق وجه والدتها بابتسامة عريضة تظهر احتفاظها بكافة تفاصيل برقيتها الغرامية الأولى رغم مرور ثلاثين عامًا على إرسالها.. والتفتت نحو (أميرة) قائلة:

– كلا.. لم يكن يومًا شاعرًا ولكنه عبق الكلمات عندما تُكتب بشغف.. فالعاشق لا يكذب.

– حقًا؟

– بالطبع.. وأظن أنكِ تعلمين جيدًا إن كان (موسى) جديرًا بكِ أم لا.. أنصتِ دائمًا لما يُمليه عليكِ قلبكِ.. وامنحِ محبتكِ لمن يبادلكِ الشغف نفسه ويجعل وعوده لكِ واقعًا مُعاشًا.. وأزعم أن الفتى كذلك.

تركت تلك الكلمات الأخيرة أثرًا دام لدقائق في ذهن (أميرة) فهي توقن أنه لا مجال للشك فيما يُكنه (موسى) لها من حب ولكن ربما تتطلع لتكرار ما شعرت به عندما ألقت عليها والدتها نص تلك الرسالة فتُريده أن يمنحها حبًا أكثر ثقلاً.. تطمع في حب قاني ينزف من أعماق قلبه المُزهر.. تُريده أن يضع باقات الأقحوان بجوار نوافذها الكريستالية في صباحات أعيادها ثم يرحل.. يكفيها أن يحملها معه في حقائبه أينما ذهب.. أو أن يركضا سويًا بين غابات

الزيتون باحثين عن وطن جديد.. عن كوخ خشبي جديد.. عن جنة فردوس ريفية صغيرة حيث إن الحب هناك أكثر من مجرد اسم بل إنه جسور من مطر وليمون فهي تشعر وكأنهما يقفا على ذات الخط الفاصل بين أنوار الحياة وبين رمادها.. لا يحول بينهما سوى رجل ثلج مزركش يحوم حوله أطفال الضاحية كقطيع من الذئاب.. لا يحول بينهما سوى جدار هش من المسافات لا يستطيعان تحطيمه.. لذا فستظل جالسة هُنا على حافة العالم تنتظر قدومه مع أسراب السنونوات العائدة من سفرها الطويل.. تنتظره مع أغاني الشتاء التي لا تخفت أبدًا ولا تنقطع.. حقًا إن كل تقرحات البشر وكل تراتيل القديسين وعذابات السجناء لا تساوي شيئًا إذا قورنت بانتظار طويل ممل تغلفه ريبة لعاشقة تحزن وحدها كل مساء كطفل فقد مقعده في مدرسته الابتدائية.. لكن في المُقابل وبعد أكثر من شهرين تحصل (موسى) أخيرًا على وظيفة شاغرة في أحد المطاعم التابعة لأحد الضواحي المُجاورة فذهب لمقابلة مُدير المطعم ليرى إن كان هنالك إمكانية لشغره تلك الوظيفة فوصل في السابعة مساءً لمقر العمل المُحتمل وهو يعتزم مُغادرة المنزل إن نجح في اقتناص هذه الفرصة فهو على علم بوجود غرفة معروضة للإيجار فوق أحد أسطح البنايات المُحيطة بالمطعم ولهذا فقد رتب ملابسه بشكل لائق وطرق باب مكتب المُدير وقام بالتعريف عن نفسه وبعد مصافحته أشار له مُدير المطعم بالجلوس ثم قال:

– أهلاً (موسى).. أي عمل يمكنك أن تزاول.. مقدم طعام.. سائق توصيل وجبات للمنازل.. أم مساعد طاهي؟.. هل لديك خبرة في أي مما سبق؟

– في الحقيقة لا.. ليس لدي أية خبرة في مثل تلك الأعمال وليس لدي رخصة قيادة مركبات.. في الواقع أريد أن أقوم بعمل ما تحت أي مسمى وظيفي يستحق الدفع.. ولكن هناك مشكلة بسيطة أنا ما زلت طالبًا في السنة النهائية بالجامعة وأريد عملاً ليليًا.

– هذا يعني أنك بدون خبرة لذا فلا يمكنني أن أجد لك عملاً إلا ضمن طاقم عمال النظافة في المطعم وسأضعك في إطار النوبات الليلية وبالنسبة للراتب فهو ستمائة جنيه شهريًا هذا إن كان يناسبك؟

– نعم لا مشكلة قبلت.. وسأكون متواجدًا هنا بداية من مساء الغد فشكرًا لك سيدي.. عمت مساءً.

خرج (موسى) من مكتب مدير المطعم محاولاً ابتلاع ما حدث للتو بغضاضة لا تخفى على من ينظر إليه فهو غير راض إطلاقًا عن هذا العمل فضلاً عن الراتب المتدني للغاية ولكن يظل أفضل من لا شيء فالأهم بالنسبة له هو مساندتها المستمرة لما يتخذه من قرارات رغم اعتراضها المتواصل على ما وصلت له علاقته بوالده.. فوضع يده في جيب بنطاله ثم أخرج هاتفه وكتب لها رسالة مقتضبة:

– وجدت عملاً بمطعم للأسماك في الضاحية المجاورة.. حقًا لم يكن على القدر المأمول ولكنه جيد.

انتبهت لوصول رسالة عندما ارتفع رنين الهاتف فذهبت نحوه لتفقد ما سيخبرها به وعندما قرأت المحتوى لم تكن تعي أهذا في صالحهم أم يجعل الموقف أكثر تعقيدًا ولكن في النهاية راسلته متمنية له السداد فهي تعول عليه كثيرًا لأنها تثق به.. لأنها تحبه.. وفي مساء اليوم التالي ذهب (موسى) لمقر

عمله الجديد في تمام السادسة مساءً والذي يستمر حتى الثانية فجرًا فكان يجب عليه تنظيف كل الطاولات والزجاج الخارجي للبوابة والتعطير المستمر للأجواء وغيرها من أعمال النظافة التي ظن أنها ستستغرق ربما خمسون عامًا حتى يستطيع إنهاءها وبالطبع كأي فرد جديد ورد إلى مقر عمل قام بالتعرف على زملائه وتبادل معهم أطراف الحديث.. منهم (شهاب) كبير العمال شاب في التاسعة والعشرين.. أعزب.. خريج كلية الحقوق ويحمل شهادات عليا في القانون الدولي وهذا لا يثير أي اندهاش لديه فهو يعلم أن الوضع الاقتصادي العصيب الذي تعاني منه البلاد منذ سنوات يفرض قوانينه الخاصة على الجميع.. وبالعودة للساحة الداخلية للمطعم قال (شهاب) مشيرًا له بيده:

– قم بتنظيف جميع الأركان وانقل ما تبقى من أطباق وملاعق إلى الأحواض لتُغسل.

– كيف لي أن أنظف كل هذا بمفردي.. الساحة واسعة للغاية ويبدو أنها كانت مسرحًا لأحداث الحرب العالمية الثالثة.. على أحدهم أن يجلب لي أكياسًا لجمع كل تلك الفوضى.

– هذا عملك ويجب أن تقوم به بمفردك.. اذهب وأحضر ما تحتاجه من خزانة أدوات النظافة وبعد أن تقوم بما كلفتك به اضغط تلك الأكياس واحكم إغلاقها وضعها في صناديق النفايات الخاصة بها خارج المطعم وهي على بعد خطوات من البوابة.

– هذا يحتاج لجهد رجلين على الأقل إن أردت أن أنتهي قبل الثانية فجرًا فما زال هناك الكثير من الزجاج يحتاج لإعادة تلميع.

– هذه ليست مشكلتي.. أصدرت لك أمرًا ويجب عليك تنفيذه.. فقط قم بعملك دون ثرثرة.

إن كان (موسى) حانقًا على أحدهم في هذا اليوم فلن يستحق ذلك الحنق سوى (شهاب).. يبدو أن العمل كعنصر للنظافة ليس سهلاً كما تخيل فالطبقة الكادحة التي يعيش نفس ظروفها الآن لا تمتلك سوى بيع قوتها العضلية كما كان يصف ذلك دائمًا (كارل ماركس) فتعمل مقابل أجر محدود بينما أنت تتسبب لرب العمل بأرباح غير محدودة.. استمر على ذلك المنوال قرابة الأسبوع.. يذهب للعمل في السادسة مساءً ويعود لغرفته المستأجرة في الثانية فجرًا ليحاول النوم ست ساعات فقط من أجل اللحاق بمحاضراته الصباحية بالجامعة في تمام الساعة الثامنة.. رافضًا كل الحلول المقدمة من طرف والده طالما أنه يضع شرط التخلي عن (أميرة) حجر الأساس لتلك المقترحات وهذا لأنه بالفعل أصبح أكثر صلابة من ذي قبل وأصبح لا يمكن له التخلي عن مصدر القوة الحقيقي في حياته تلك التي تجعله أكثر جلدًا بتقاسمها معه لما يواجهه من صعوبات.. وفي إحدى ليالي العمل المعتادة حوالي الساعة الواحدة والنصف فجرًا أنهى (موسى) ما قد كُلف به واستعد للمغادرة ولكن لفت نظره جلوس (شهاب) أمام البوابة الخارجية مستندًا للحائط يُدخن بتأن.. ربما أراد بعض الهدوء بعيدًا عن ضجيج العمال وشكاياتهم.. قطعت خطواته المسافة نحو البوابة بخفة ولوح (لشهاب) فيما معناه أتريد التحدث قليلاً؟.. فأشار له بالاقتراب وسأله إن كان قد أنهى عمله على الوجه الأكمل فأومأ بالإيجاب ودار بينهما حديث طويل افتتحه (موسى) قائلاً:

– أشعر أنك تحمل بداخلك الكثير من الحكايا المكتومة.. أنت شخص تثير فضولي حقًا.

– أنت ما زلت صغيرًا حتى تتفرس بما يكنه الناس في صدورهم.. ولكن يجب أن تعلم أنه لا يوجد رجل يخفي بداخله شيئًا سوى أنثى أوجعته كثيرًا حد الصمت.. الرجال لا يخفون بداخلهم سوى صور محبوباتهم التي مزقوها ولكنها مازالت مستقرة داخل إطاراتها الخشبية على جدران قلوبهم بوضوح.

أصغى (موسى) بانتباه شديد لما يقوله (شهاب) فهو لم يعد يتعامل معه كرئيس عمل يُحادث مرءُوسيه بل كصديق حميم اكتسبه منذ زمن.. ثم أكمل حديثه معه قائلاً:

– لكن ليست كل الفتيات يتسببن في جراح غائرة.. هذا غير عادل.

– بل يفعلن أكثر من ذلك.. ولن تفهم ما أعنيه إلا إذا أصابتك من تُحب في سويداء قلبك.

– أخبرني كيف تراهن.. ما الذي تعتقده بشأنهن؟

أمسك بعلبة سجائره وأخرج واحدة جديدة وضعها بين إصبعيه ثم نقلها بين شفتيه واقترب بها نحو يده اليسرى ليشعلها بنيران القداحة.. ثم سحب منها جرعة دخان كبيرة أخرجها مع الزفير وهو ينظر نحو السماء متكئًا إلى الجدار ثم قال:

– ليست لدي معتقدات قد تصح أو تُبطل بل لدي ثوابت أكثر رسوخًا من الجبال.. إن الرجال أكثر عاطفة من النساء ولذلك عندما نتزوج فإننا نقترن بفتاة واحدة تلك التي نقع في غرامها من أول لقاء ونعتقد أننا سنكون أغبياء إن لم نتزوجها لأنها ببساطة رائعة.. هكذا نعتقد ونؤمن.. ولكن يبدو أن

الفتيات على الطرف الآخر يتحينون الفرصة المناسبة لانتقاء أفضل ما قد يتاح لهن من عروض وستجد لدى الكثير منهن تلك القاعدة "إنه يمتلك عملًا جيدًا".. هذا ما يفرضه الواقع يجب عليك أن تتقبله وبكل صدر رحب.

ظل (موسى) يُفكر بكلام (شهاب) لدقائق ثم اقتنع في قرارة نفسه أن هذا كله لا يعنيه ولا يتسق مع علاقته (بأميرة) في شيء ولهذا فقد غادر المكان بعد أن تصافحا متجهًا نحو غرفته لينام حتى الصباح وعندما يستيقظ سيأخذ في اعتباره ضرورة محادثة من يُحب.. تلك الفتاة التي شعر بأنه ابتعد عنها قليلاً خلال الفترات الماضية ولذلك عندما أفاق في صباح اليوم التالي تحادثا ودارت نقاشات طويلة بينهما كالعادة لا تخلو في آخرها من بعض الغزل والقليل من الأسئلة المُعلقة دون إجابات ففي الحادية عشر صباحًا كان (موسى) يجلس بجوار نافذة غرفته الزجاجية مكسورة الأطراف العلوية يحمل هاتفه مُحادثًا (أميرة) شارحًا لها الكثير من النقاط المتعلقة به وبوالده وبمستقبلهما ولكنه قاطع كل ذلك وراسلها قائلاً:

– أُريدكِ أن تحظي معي بحياة مليئة بالمشاعر تستطيعين فيها أن تقفزي فوق أي سور بلا حرج.. أتمنى أن أصعد بكِ كسُلم إلى السماء.

– سأحظى بك وبحب حر طليق كدقات قلبك.. أعدك أننا سنتسبب بفوضى عارمة بالجوار ولكن من يكترث فنحن نمتلك كل طرقات المدن وكل غابات العالم ويمكننا أن نعصف هناك سويًا بمن نشاء وكيفما نشاء.

– ولكن ما فائدة الصخب إن كانت صدورنا تحتجز أسرارًا لم نبح بها بعد فأشعر أنني لست حرًا كما يليق بي أن أكون معكِ.

– ماذا تقصد؟؟

– الأسرار يا فتاة ليست كلها ذوات ماكرة تفوح بروائح مريبة بل ربما هنالك سر لا يمكن الإفصاح عنه لفرط الزهو الذي سيتسبب به.

– فلتسترسل إن كان سرًا يُزيد من زهوي بك.

– لا شيء يستحق أن تفخري به سوى قلبكِ.. لا أدري من أي قطعة في الفردوس قد صُنع؟.. أما السر الذي لم أبُح به لكِ فهو أول جملة تلك التي حدثت نفسي بها حينما رأيتكِ لأول مرة.. حين أرسلتِ لي صورتكِ.. أتذكر ذلك جيدًا كما أتذكر اسم أمي.

– لقد مرت عليَّ أول نظرة بيننا عامين فكيف لك ألا تخبرني بما حدثتك به نفسك حينها!.. تكلم فها أنا الآن أصغي لك بإمعان.

– عندما رأيت تسابيح المسرات في وجهكِ قلت لنفسي بحق كل نجوم السماء من تكون هذه؟ أهي مجرد فتاة تقاربني في السن أم نبيلة بثياب مطرزة ذهبًا أتت تمشي بتهادٍ من خلف ظلال قصور أوروبا القديمة! وسمعت صوتًا ساخرًا في أذني يقول احلم يا (موسى).. وكأنني لست أهلاً لامتلاك كل هذا الجمال.

– أنت دائمًا ما تُخجِلني ولا أملك معك حيلة فتصورني كلماتك وكأنني الجمال المطلق.. وكأنني أفروديت إلهة الأوليمب وهذا ليس صحيحًا هناك من هن أجمل.

– هل تمتلك إحداهن قلبي؟؟

– على ما أظن لا.

– إذن لا توجد من هي أجمل منكِ.

– مراوغ بارع ولكنني أُحبك.

– هذا ما سعيت من أجله قرونًا.

– إذن لماذا لا تكتب لي قصيدة يا شاعري الأسمى!

– لا يمكنني فعل ذلك آنستي لأنني حينما أكن برفقتكِ أصبح شاعرًا بلا كلمات وكأن حروفي تتقافز خارج حقائبي هربًا منكِ.. تسلبينني فؤادي وتسلبين من أشعاري معانيها.

– حاول مجددًا من أجلي.

– حسنًا.. حينها يجب أن يخفت جمالكِ قليلاً كي يمكنني المحاولة أما الآن فلا طاقة لي بوصفكِ.. أنتِ دومًا ستكونين تلك الصخرة التي تتكسر عليها قصائد أعتى الشعراء بلاغة.

– أتعلم لماذا روائحك ممتزجة بكل شهيق أتنفسه! لأنك تجلب لي الدنيا كلها في صندوق صغير وكأنه لا يُعجزك شيء.

– إن كنت حقًا أفعل فهذا لأنه لا يمكنني مقارنتكِ بأي شيء حتى بالربيع فأنتِ الأكثر خضرة واعتدالًا.

– هل من الحماقة أن أسأل لما تخصني بكل ذلك؟

– ربما من أجل عينيكِ!.. لا بل لوجنتيكِ.

– هل يمكنك أن تتكلم بجدية ولو قليلاً؟

– وما الهزل في كلامي!

– الهزل أنني لا أستطيع مجاراتك ولا يمكنني أن أبوح لك بحبي كما تفعل ولا يمكنني حتى أن أنظم لك قصيدة من بيت واحد.

كانت حقًا منزعجة وعلامات ذلك الانزعاج ظاهرة على وجهها بجلاء رغم محاولتها مسايرة الأمر بانسياب ربما لأنها تعجز عن إظهار كل ما تحويه ذاتها

من حب فتود لو أن تقدم له قلبها على طبق من ذهب إن استطاعت ذلك فلو كان حبها له مطرًا لكان كفيلاً بإحياء الصحاري الموات.. وعندما قرأ (موسى) ردها الأخير أراح رأسه للخلف ووضع كفيه على وجهه وهو يبتسم ثم طلب منها أن تهدأ قائلاً:

– من هو مثلي ليس بحاجة أبدًا إلى القصائد ولكن يكفيني أن تقولي لي "أُحبك" فهذه الكلمة عندما تُنطق توازي كل معلقات غزل الجاهلية.

– أتمنى لو كان باستطاعتي تقديم ما هو أكثر.

– يا عزيزتي إن كنتِ خُلقتِ من قبل في زمن الفاتحين لكانوا أقاموا ثمة مبارزة بالسيوف والكلمات من أجلكِ لم يُجش لمثلها قط ليموتوا في ساحتكِ بشغف وعاطفة لا مثيل لهما.

– ماذا لو لم يكن بيننا حواجز يا (موسى) كيف للقائنا أن يكون؟

– إن كنا نُحب عن قرب أو نتبادلِ خفقان قلوبنا قاطعين المسافات عبر الصحراء هذا لن يُغير من لقائنا الأول شيئًا.. فالحب لا يُفرق بين قريب وبعيد ولا بين قديسة وصعلوك يؤدي دور درويش متصوف بين العامة.. إن وقعا في الحب عليهما الاعتراف بذلك وإن أنكراه فلا يستحقان الحياة.

أخذت (أميرة) نفسًا عميقًا وراحت تعتم بشفاه قديسة مكرسة للصلاة وتتضرع للرب بأن يهبها روحًا يمكنها أن تحتمل كل ما تمر به من نورانية ورجاء.. إن للحب أكثر من نهاية ومصير وأحسنهم خاتمة ذلك الذي ينتهي بزواج تحت شجرة ما في الجنة ذلك لأن الشعراء قد يختمون قصائدهم عنه بعذرية وعفة أو بشهوانية تامة لهذا فهم واقعيًا لا يعلموننا شيئًا جديدًا عن الحب ولكنهم يرسمون لنا خرائط يمكنها أن تجعلنا نسير بثبات في أراضيه..

وكما كانت تشعر (أميرة) تجاه (موسى) بعشق طاغٍ كمحيط كان يُخيل إليه أنه يرى الملائكة تطوف فوق بقعة ما من الطُهر مرفرفة بأجنحتها كل صباح فيسبح من أجلها معهم حتى تنقطع فواتح الرحمات وما كان يدري أن نافذتها هي كعبتهم!.. ولكن أتعلمون؟.. في بعض الأوقات يُصبح السير على دروب وعودنا غير مستساغ لسبب ما.. فهو وعدها بألا يُهملها أبدًا ولكنه فعلها مرة وها هو سيفعلها مُجددًا.. لقد ضاق ذرعًا بالعمل كعنصر نظافة داخل مطعم.. نعم فهو لم يعد يحتمل المزيد من الصراخ المتبادل بينه وبين بقية العُمال ولهذا فهو كان يقضي ساعات الصباح في البحث عن عمل آخر وعندما يعود للمطعم ليلاً يجلس بجوار باب المطبخ الرئيسي باحثًا عن وظائف شاغرة عبر صفحات الإنترنت التي يستعرضها على شاشة هاتفه حتى أنه ينسى وجود (أميرة) بالأيام.. إنه يُحب ولكن يخاف أكثر.. يُريدُها ولكن يخشى فقدها أكثر.. فلذلك انغمس في البحث عن مصادر تمده بمال كافٍ ليتمكن من الزواج بها حتى لا يشعر بالقلق إن أبلغته يومًا بتململ أسرتها من هذا الوضع ولكن على الصعيد الآخر هي لم تكن تُفكر بأي شيء سوى أن تبقى بجانبه.. ومن الجيد الاعتراف بأن أغلب الرجال عندما يثقون تمام الثقة أن محبوباتهم لا يمكنهن العيش بدونهم يؤمنون بأنفسهم أكثر مما يؤمنون بمن أحبوا فيقعون في فخ الإهمال وعدم الاكتراث وهذا يجعلهم يخسرون قلوبهم شيئًا فشيئًا وكأنهم لا يعلمون أنه لولا وجودهن لما كان بوسعهم النظر لوجوههم في المرآة كل صباح بنفوس متأنقة فلا تستطيع أعتى القوى أن تُغير نظرة الرجل لنفسه إلا امرأة يُحبُها ولذلك فإن كان يوجد أحد في هذه الحياة يستطيع تغيير نظرتك إلى نفسك نحو الأفضل فهي حتمًا قسيمة قلبك.. جنتك المجسدة

في حواء خاصتك.. تلك التي تدعوها "حبيبتي" في أوقات الاحتياج والشدة لتتمسك بها ظنًا منك أنها الوحيدة القادرة على انتشالك من طوفان قادم لا مهرب منه إلا بالصعود إلى زورقها.. وأحيانًا تُثقل عليها بأحمالك دونما اكتراث ولأنها تُحبك فهي تحملك أنت وأثقالك بلا امتعاض حتى ولو اضطرت أن تسير معوجة القامة هكذا حتى تصل حدود الصين.. ولكن احذر هناك لحظات يبدو الوضع فيها يتجه نحو التأزم لا يغني عنك حينها معلقات غزل العرب وإن اجتمعت لك.. لن يشفع لك امرؤ القيس ولا ابن كلثوم سيجلب لك رضاها.. لن تُفضل أخطاؤك إلا إذا كانت هي من تُريد ذلك.. وضمن هذا الإطار شعرت (أميرة) أن (موسى) قد تجاوز حدود الإهمال بمسافة كبيرة وهي لم تعتد منه ذلك وبالفعل وصلت إلى حالة من الغضب لم تفصح عنه بصورة واضحة ولكنها كانت تفضل الصمت ومعاملته ببرود لربما يشعر بالصقيع الذي بدأ يغزو علاقتهما ببطء.. تحركت نحو شرفة غرفتها ونظرت من خلف باب الشرفة الزجاجي نحو شمس برتقالية تغرق وتبتلعها السماء ربما أرادت أن تسرق منها بعض الدفء لعلاقة تعني لها الكثير.. أخرجت هاتفها ولاحظت أن (موسى) نشط على الشبكة أي أنه متواجد ويمكنها محادثته.. خشيت أن تباغته بما تحمله من تنديد وإدانة وتصل المحادثة بهما إلى طريق موحش أكثر منه مسدود.. ولكن على أية حال قررت إرسال جُملة قصيرة كلفت انتباه مقتضب لكي يُدرك وجودها فقالت:

– (موسى) أُريد التحدث معك قليلاً.

وبعد دقيقة تقريبًا أجابها قائلاً:

– أعتقد أن بعد ساعة من الآن سأكون مُتاحًا للتحدث معكِ عزيزتي.. صبرًا ما زلت مشغولًا.

– أتعلم أننا لم نتحدث خلال أسبوع كامل سوى دقائق قليلة لا تتجاوز النصف ساعة في أحسن الأحوال!!

– ماذا هنالك يا (أميرة) تعلمين أنني منغمس هذه الأيام في البحث عن عمل أفضل من هذا الهراء الذي تورطت فيه.

– أنت تتجاهلني فقط.. لا أعلم لماذا ولا أجد لذلك تفسيرًا؟ ولا تحاول المراوغة فأنا يمكنني فهم ما تحاول قوله قبل أن تفكر به.

– يبدو أنكِ تتحضرين لخوض عراك وشيك.

– العراك أنت من بدأته باستماتتك في التجاهل.

– أنا لست مسئولاً عن شيء.. ضبط خط سير أي علاقة هو أحد مهام المرأة الأساسية.

– إياك أن تخوض معي هذه اللعبة حذارِ يا (موسى).

– أي لعبة؟ ليس لدي الكثير من الوقت لأضيعه في تبديد خيالاتك والدفاع عن نفسي.

– ألست أنت من وعد بالسعادة والأمان بالراحة والاحتواء؟ ألم تقل أنك بدوني مجرد أعزب تعيس ستشيب وحيدًا! الآن تُهملني بالأيام ولا تكترث بالرد على رسائلي القصيرة كي أطمئن بوجود كأبسط حقوقي عليك! وهذا لا يحدث للمرة الأولى ولكن لنقل أنها المرة التاسعة بعد الألف.. أنت من وضعني في ذلك الركن الضيق وجعلتني غير قادرة على التنفس وبزيادة الضغط أكاد أختنق ولم أعد أجد لك عذرًا فكل أعذاري استُهلكت.

– جيد.. أنا الآن يجب أن أتفرغ لمغازلتكِ طوال الوقت حتى وإن لم يكن لدي ما أقوله صحيح؟

– لا.. ليس هذا ما أُريد ولكنني لست مستعدة للاستمرار في العيش داخل تلك الدائرة التي أحكمتها حولي.. دائرتك الخاصة التي تضع بداخلها قوانينك الغير قابلة للطعن.. يمكنك الغياب والحضور والاهتمام والإهمال والاحتواء والتجاهل كما شئت وكيفما أردت وأنا لا قيمة لي.. لا قيمة لقلبي الذي يتمزق شوقًا لك ورهبة من أي ضرر قد يُصيبك.. لا قيمة لدموعي التي تُذرف كل ليلة لمجرد أنك لم تراسلني لتحكي لي بصوتك قصصًا حتى أغفو كما كنت تفعل قبل ذلك كل مساء.. أنت تقتلني على مهل.

– هل انتهيتِ؟

– ما زلت لم أقل شيئًا.

– أهناك المزيد!

– ربما لن تسمع المزيد منه اليوم ولكن اعلم أنه لا يوجد حب يُهين.. لا يوجد حب يُؤلم.. كما تفعل أنت بي ولهذا لن أستطيع الصمود طالما أنت في المقابل لا تريد ذلك فأنا أعلم أن هناك نوعين من الحب.. الأول رزقنا الله به وخلقه لنا ويسره لمعانقة قلبينا وهذا ما أردته دائمًا.. أما الثاني فهو حب خلقته أنت ليناسبك أنت.. يُعطيك الحق في كل شيء دون النظر لمن قبلت بك شريكًا لها وهذا لا أريده البتة.. والحلول المطروحة أمامك سهلة.. فقط قم بقتل ذلك الشيء الذي قمت بتخليقه وانزع عنك كل ما تقلدته بغير وجه حق من أوسمة حتى تعتدل كفتي الميزان.

- (أميرة).. لن أناقشك في شيء ولن أقدم دفوعي لهيئة محكمتكِ.. تخلي فقط عما برأسك ولن تشعري أنني أقوم بأي أمر مزعج.

- سأغادر إلى وهران صباح الغد برفقة عائلتي للقيام ببعض الزيارات الأسرية هناك ولقضاء ما تيسر من وقت في التسوق أو التجوال إن أمكننا ذلك ولا أظن أن ملاحظة كهذه ستحدث لك فرقًا.. حادثني إن تذكرت.

أغلقت المحادثة قبل أن تقرأ جوابه.. عيناها التي طالما أحبهما (موسى) تغرقان في دموع حارة.. يا لها من فتاة خضراء كتلال مدينتها تُظهر نفسها كصخرة أمامه وفي كواليس غرفتها تبكي من أجله بحرارة أم ثكلى والمُثير للدهشة في مراحل تأزم علاقتهما أن صغائر الأمور طغت بشكل فج على السطح فهو بعدما أهملها لفترة تكون لديها فراغ يُسبب ضجرًا لا يُحتمل فأخذت تبحث بين رفيقاتها ذوات الجنسيات المُختلفة على الشبكة عن مهرب لسد هذا الفراغ.. هي لا تُريدهن بقدر ما تُريد الفرار من سخافة انتظار شخص لن يأتي.. فمن الوارد حينها أن تتطبع بطبائعهن وتُذهن بما يعتقدن وفي الحقيقة إن أسوأ علاقات البشر هي تلك التي بين الفتيات وبعضهن.. فتراهن يؤثرن على اختيارات بعضهن ويتدخلن في جميع الشئون الخاصة بكل واحدة منهن حتى العلاقات العاطفية تُصبح مشاعًا بينهن بل بتفاصيل الأحداث أيضًا.. إن الفتى سيء الحظ هو من يعشق فتاة لها تلك النوعية المُقززة من الصديقات ولهذا أخذت (أميرة) بعض الآراء السياسية ذات توجه مُعين من صديقاتها وأخذت تُكلم (موسى) حوله وحول ضرورة توافقهما السياسي؟.. لقد اندهش عندما سمع منها هذا الكلام فتساءل محدثًا نفسه:

– منذ متى كان (لأميرة) اهتمام بالسياسة أو حتى قدرة على إدراك ما يدور في أروقتها؟

فأدرك أن هذا ولا شك نتيجة أذهان صديقاتها لها فمن المثير للسخرية أن تُحادثه حبيبته في موضوع توافقهما السياسي؟.. أي خبل هذا؟.. إن للفتيات أمزجة تتغير حسب اضطراب مشاعرهن ولكن هذا لا يحجُب تلك الحقيقة القائلة أنهن يسرن بعقلية الحشد.. أي إن اجتمع خمس فتيات على رأي واحد فالسادسة ستعتنق هذا الرأي آليًا وشيء كهذا يجعلهن أكثر سذاجة في عالم واسع ماكر وخبيث لا مكان فيه لأمثالهن فنحن نعيش في أوطان ورقية مُنمقة كل شيء فيها مُزيف ومُفتعل.. كل شيء.. حتى أن حُب الأرض والمُقدسات أصبح له تجار يُزايدون على سلعتهم فيمنحونا صك الوطنية والشرف متى أرادوا ويُلصقون بنا العار أيضًا متى أرادوا.. هؤلاء كهنة المعبد المستفيدون من الوضع الراهن للقضية.. تساندهم آلات إعلامية موجهة بغيضة تُريد صنع انتصارات وهمية لأبطال من ورق وقش.. يكفي أن يخرج أحدهم ملتحفًا بكوفية ويصرخ ويندد ويُخون الجميع.. كُلنا خونة إلا هو وفصيله.. تبًا له هو وفصيله!.. منذ متى كان الشرف حكرًا على جماعة أو فصيل أو تنظيم أو دولة؟.. هذه البطولات الاستعراضية لا تنتج إلا عن منظمات ذات قيادة مضمحلة متعفنة الأدمغة أو أنظمة فشلت في فرض مكانتها على الساحة الدولية فعوضت عنه بمواقف تلفزيونية مثيرة للشفقة والغثيان ومع ذلك لا تمل من الثرثرة والضجيج وكأنهم سيفتحون القدس غدًا بعد صلاة الفجر؟.. يخرجون علينا منتفخين الأوداج عبر الشاشات بثقة نابليونية تصيبك بالقشعريرة حتى تظن أن أحدهم امتلك سر تصنيع الأسلحة

النووية وما فوقها.. وما إن يتكلم فستعرف أنه لا يملك سوى السباب لمن لا يروق له ولن يُقدم لفلسطين سوى القصائد؟.. مع الأخذ بالعلم أنها قصائد ركيكة إلى حد البكاء ضحكًا.. هل تعلم أن بيت لحم وخان يونس ورام الله وصلت إلى صناديقهم البريدية مائة ألف قصيدة؟ لقد اكتفوا بذلك حقًا.. فإن أرسلت لتلك الضواحي رصاصة بدلاً من قصيدة ربما ستكون قدمت للقضية سببًا لتستمر.. لتحيا.. رصاصة تخرج من سلاح جندي عربي باسل لتستقر في يد نظيره القاطن بتلك الضواحي وهو يعرف جيدًا أين سيكون مستقرها ومتى ستصل لوجهتها النهائية.. وإلى أن يأتي ذلك اليوم ففلسطين لا تريد منكم شعرًا.. أشعاركم وفروها لرفيقاتكم هن أولى بها.. فيومًا ما ستُمطر السماء غضبًا يجرف معه كل هذه القذارة.. وهذا ما أراد (موسى) إيضاحه (لأميرة) عندما احتد بينهم النقاش حول التوافق السياسي بينهما الذي لم يكن مجالاً للطرح ولا للنقاش قبل مشاجرتهم الأخيرة.. يظن (موسى) أن فتاته أصبحت أكثر عدوانية في فترة غيابه.. أصبحت نسخة من أولئك اللواتي يمقتهن حتى النخاع ويفضل الموت على الحديث مع إحداهن.. صاحبات الفكر الخُرافي القائم على إعادة إحياء حدث قد وقع داخل بيئة معينة بظروف معينة بأقدار هكذا كُتبت والآن أصبح حلقة من حلقات التاريخ طوته صفحات الزمن ولن يُعاد.. كتلك التي تقول سأنجب الناصر صلاح الدين وأخرى تقول سأنجب المظفر قطز؟ لمجرد سماعها خطبة اعتيادية رتيبة من رجل دين أو سياسي يعيشون خارج الزمن.. وتجد الواحدة منهن تضع مائة محاكاة لكيفية فتح ابنها للقدس! هؤلاء النسوة لا تجوز عليهن سوى الشفقة لأن العظماء لا يُبعثون من مراقدهم ولكن يُخلق مثلهم في أرحام الأمهات حينما تحين مشيئة

الرب فهم منحة إلهية لا نعلم متى وكيف سنستقبل خبر قدومهم.. فكل ما يجول بخواطر المؤمنات بخرافات الاسترداد والاستعادة لن يحدث لأنه ببساطة العالم يتغير ومقومات السمحاء المُخلصين تتغير أيضًا.. ورغم كل ما دار بينهما من نقاش إلا أن (موسى) أراد بشدة إيصال فكرته حتى تتفهم (أميرة) كيف يجب أن تُفكر سياسيًا من وجهة نظره فقال بعد شهيق ينم عن امتعاض:

– ماذا تعنين بأني لست مع القضية؟

– أنت كذلك فعلاً لم أجد لك موقفًا واضحًا من وضعها الراهن لم أفهم أنت معه أم ضده؟

– هل هذا يحتاج لسؤال؟ من هذا الذي ولد عربي ولا يخفق قلبه إلى فلسطين وترابها؟

– لم تُظهر لي برهانًا.. لم تُظهر تعاطفك؟

– وهل يجب أن أُظهر تعاطفي مع تنظيم معين يدعي ما يدعيه من مقاومة لمجرد أنكِ تعتنقين فكره؟ أنا لست تابعًا إلا لما يُمليه عليّ ضميري وما يُقره عقلي.

– وما هو الذي يُملى عليك وتُقره!

– ما يرسخ في عقيدتي أنه لا مُقاومة إلا لذلك الشاب الذي يحمل سكينًا لينحر أحد كلاب الحراسة ذوي النجمة الزرقاء على نواصي الطرقات.. خرج ليُنقص الأوغاد واحدًا دون تسييس أو تحزب أو انتماء سوى للأرض والتاريخ وحق البقاء.. أما كل المشتغلين في السياسة فما هم إلا دجالين كذبة مصالحهم تأتي في المقام الأول ثم بعد ذلك يتكلمون حول القضية فالشعب

المُبارك في أرض البرتقال هو المُقاوم الوحيد لا أحزاب ولا منظمات ولا حركات.. ولائي للشعب وللشعب فقط.. ولائي لكل طفل يُمسك حجرًا ولكل أم تعلم أن جنينها لن يكف عن المثابرة والكفاح إلى أن ينتصر أو ينتصر فلا مكان للموت هنا..

– يبدو أن لكل منا توجهاته ولكل منا قناعته وأنا لن أتنازل عما أعتنق ولك حرية تقبل ذلك من عدمه.

انتهت المحادثة دون وداع.. نهاية باردة لحديث متأجج وكأن (موسى) شعر أنها لن تتخلى قريبًا عما أُذهنت به فهو يعلم أن تلك ليست فتاته قطعًا ولكنه لا يعلم أيضًا كيف يستردها.. وفي واقع الأمر إن إهماله لها وتحامله عليها وتهشيمه لقلبها هو السبب الرئيس لتصلبها نحوه وبمرور الوقت أخذت الهوة بينهما تتسع فمن كانا سابقًا لا تكفيهم اثنتي عشرة ساعة كحديث يومي أصبحا يكتفيان برسالة واحدة يوميًا وغالبًا يُرسلها أحد الأطراف ولا ينتظر الرد.. حتى ولو وصله فلا يتفحصه إلا بوقت متأخر.. لقد غرق (موسى) في مُحيط البحث عن عمل يليق به بالإضافة لخوضه الاختبارات النهائية لسنة التخرج فكان وقت الفراغ بالنسبة له شبه معدوم فحتى بعد أن أنهى اختباراته وتخرج في الجامعة لم يحتفلا بهذا الحدث ولم يُكلفا نفسيهما بالتفكير بطريقة مناسبة للاحتفال به.. إن الفجوة اتسعت حقًا وأصبحت سحيقة وباردة فربما ظن (موسى) أن المال أهم من مراعاة من يُحب.. أصبح كُل ما يشغله الآن كيف يُمكنه أن يجمع أكبر قدر من المال.. كيف لا يحتاج لفتح كفيه لأبيه طالبًا مساعدة رغم إلحاح والده عليه بالعودة للمنزل ولكنه كان دائمًا يرفض لأن العودة قد تكون مرتبطة بتنازلات لن تتوافق معه ولكن ربما أغفل

أمرًا هامًا وهو أنه بالفعل تنازل عن فتاته عندما ظن أن الاهتمام بها ليس من أولويات المرحلة.. إنه يُحب حقًا ولكنه لا يُجيد التصرف فبعض الرجال قلوبهم فضاء رحب لمحبوبتهم ولكن ألسنتهم تُصبح قاصرة عن التعبير.. ولكن أتعلمون.. يُمكن للرجل العاشق أن يكون عرافًا وذلك عندما يُمكنه الانتقال بقلبه إلى ما وراء الغيم المتراص أمام برازخ خضراء في سماء ما غير سمائنا التي نحيا تحتها ليسرق منها خطابًا صغيرًا موجهًا لمن يُحب كتبه من أجلها ملكًا عاشقًا أيضًا ولكن لم يحن موعد إرساله بعد.. يُمكنه أن يُصبح عرافًا عندما يواجه خوفه بثبات.. عندما يُطلق أخر رصاصة يمتلكها دفاعًا عنها دون النظر خلفه أكان منتصرًا أم لا.. ولأنه لا توجد مثالية في الحب ولكن توجد دائمًا معاناة فعليك أن تختار جيدًا من يكافح معك.. من يمكنه الصبر لأطول مدة ممكنة من أجل الحصول عليك.. ففي العلاقات الطويلة بين عاشقين تلك العلاقات التي تمتد لسنوات هناك دائمًا طرف يُحب بقوة وبالمقابل الطرف الآخر يتخيل أنه ضمن وجود شريكه مهما ارتكب من أخطاء فلدواعي عاطفية يظن أن ارتباط شريكه به لن ينقطع وسيظل هكذا حتى ولو غاب عنه وعاد بعد أعوام وهذا ما يدفع أي علاقة للسقوط من أعلى جرف لتتحطم.. هذا ما قام به (موسى) بعد أن فشل بتحمل شهور إضافية في العمل لم يستطع التعايش مع محيطه كعنصر نظافة لقد حاول مرارًا أن يتكيف ولكنه امتنع عن ذلك بعد ثلاثة أشهر فقط من المزاولة لعمله كان يود أن يجلب (لأميرة) خاتمًا ذهبيًا يشتريه بأموال ادخرها من عمل أُنهكت فيه عظام ذراعيه دون الاحتياج لمساعدات والده الذي دائمًا ما كانت لديه تحفظاته الخاصة على تلك العلاقة.. ولكن لانخفاض الراتب الذي يكفيه فقط لشراء خبز

وملح ليعيش عليهما إن أراد ادخار بعض جنيهات نحيلة لا تغني عن عوزه شيئًا ولتمدد آفاق تلك الحياة البائسة التي يعيشها داخل جدران غرفته المستأجرة قرر أن يتنازل عن كل شيء.. قرر الاختفاء عن ذاته قصريًا.. فوضع ملابسه داخل حقيبة بهُت سوادها ولم يعد لتلك الغرفة قط ولا لأي مكان مر به خلال تسعين يومًا مضت وأخذ يتنقل بين أكثر فنادق الإسكندرية تواضعًا ليبحث عن تلك الغرفة التي لا يزيد سعر الإقامة بها عن عشرة جنيهات لليلة الواحدة ثم أغلق هاتفه وأمات جميع سبل الوصول إليه ليبدو لمن يتصل أن صاحب هذا الهاتف ربما فُقد تحت عجلات قطار غريب مر بالمدينة ولن يعود مرة أخرى وظل مرتحلاً هكذا دون أن يترك أثرًا يدل عليه طوال ثلاثين يومًا قادمة ربما كان يائسًا يحمل بين جنبيه هزيمة كبرى وفؤادًا مسجيًا فوق أضلعٍ لا حراك له ولكنه ليس أكثر بؤسًا من والدٍ في العقد الخامس له ابن وحيد تغيب عنه منذ أسابيع أو من فتاة تعلق قلبها بمن قال لها يومًا أن الموت فقط هو من يستطيع أن يُفلت يدانا المتشابكتين.. وحين قال لها ذلك كان لا يملك إلا أن يعرض عليها ما استقر داخله بين شتات الشكاية والتمني قائلاً:

– إني أُحبكِ أكثر من عدد زخات المطر فوق الصحراء الكبرى؟ هل تعلمين أنه يمكنني فعل أي شيء من أجل أن أجلب لكِ حمرة تزين شفاهكِ إن أردتِ! حتى وإن كنت حاليًا لا أمتلك سوى كلمات وأوراق فارغة وقنينة من حُلم فاتر فهل تقبلين أن أكتب لكِ قصائد وأعلقها فوق غيوم شباط إعلانًا لحبي لكِ؟.. هل تقبلين أن يكون مهركِ رواية أكتبها من أجلكِ؟ إن الروايات أكثر صدقًا من النقود.

فلم يسعها إلا أن تشُق له في قلبها نهرًا لتحمله فوق زوارقها إلى أي وجهة أراد ولكنه فشل في التشبث بها أمام نفسه فعبر الأيام الثلاثين المتوالية أرسلت لهاتفه المغلق عشرات الرسائل تخطت حاجز المائة دون مُجيب شعرت بكل ما يمكن لأم فُجعت بالفقد أن تشعر به.. وبالوقت حديثها المعتاد قل وثقتها بجميع من يحيط بها تلاشت.. فأخذت تبكي وكأنه لا يوجد شيء يمكنه إيقافها أرادت أن تملأ غرفتها بالدموع وتسحبه للأسفل ليغرق معها.. إن الحب لا يُمكنك أن تسخر منه فشغفه مؤذٍ عندما يصبح مفرطًا وهكذا هو في غالب الأحيان.. وبغروب شمس اليوم الأخير في شهر عزلته التي لم يُحصِ عدد أيامها ولكنها تمت الثلاثين قدرًا حملته قدماه إلى بوابة منزله ليطرق الباب مرة واحدة فقط فيفتح له والده الذي تجعد ما تحت عينيه حزنًا لغيابه فنظر (لموسى) طويلاً دون حديث يذكر فربما كان ذلك عتابًا كافيًا ولم يكن منه إلا أن احتضنه.. فقط احتضنه.. ثم جلس برفقته على الأريكة ليحتضنه بقوة أكثر وبعد أن اغتسل طلب من والده ألا يسأله عن شيء وكل ما أراده هو أن يستلقي فوق سريره لينام دهرًا وفي صباح اليوم التالي أراد إعادة فتح هاتفه.. ارتجفت يداه ولم يستطع الإقدام على فعل ذلك بل إنه شعر بتعنيف ذاتي قاسٍ وفي بعض الأحيان مهينٍ.. كيف فعل بها ذلك؟.. وفكر في أن اختفاءه لمدة أطول قد يُريح عنه مرارة اللقاء ربما الموت متحسرًا أفضل له من لقائها بعد كل هذا الجفاء الغير مبرر فأعاد الهاتف لأدراج خزانته وبعد مرور ثلاثة أشهر أخرى أو يزيد قضاها منكمشًا في زاوية غرفته مكتئبًا فاشلاً هزيلاً كأسد عجوز يحتضر ويقتله الخجل من مواجهتها وبذلك أتم بذلك أربعة أشهر مكتملة غائبًا عنها اجتاحته فيها موجات من

صداع نصفي متكرر لا يُحتمل مُترافقًا بقيء وفقدان للرؤية المُحيطة لبضع دقائق.. ولكنه لم يُدِ أدنى اهتمام لما يعتريه من ألم فهو غارق في وحدته حبيس منفى اختياري تُحيط به أسوار عالية بهيئة جدران غرفة يألفها.. إنه حقًا لم يعُد يحتمل فراقًا موجعًا بكل هذا القدر لفترة أطول.. ففتح خزانته بيد مرتجفة أكثر مما كانت عليه سابقًا وأمسك بهاتفه البارد كالموتى وأعاد تشغيله بعد انقطاع طويل لدرجة أنه نسي لدقائق كيف كان يُراسلها من خلاله لتهطل عليه رسائل تخطى عددها المائتين وخمسون رسالة كلها من شخص واحد وبلا شك يعلم هوية مُرسلها جيدًا ولكنه لم يرغب في قراءتها وكان أخرها قبل خمسة أيام مضت وكأنها لم تفقد الأمل يومًا طوال أربعة أشهر في أن يُجيبها رغم كل الخسارات التي حلت بها والخذلان والنزيف اللذان رافقاها في غيابه فهي لم تكتفِ بذرف الدموع فقط على مدار المساءات المتعاقبة كسنوات مصر السبع العجاف ولكن أيضًا نزفت دمًا عبر أنفها وفمها نتيجة الحزن ذي الأطياف الأغمق على الإطلاق القابع في خلاياها ولهذا فقد بحث مطولاً عن أحرف مناسبة لكتابة نص قصير وكأنه نسي كيف تُكتب جُمل الاعتذار فأخذ نفسًا عميقًا وراسلها مجددًا وبعد وصول أولى كلماته لهاتف (أميرة) شعرت بخفقان أطاح بقلبها خارجًا ولكنها أجابت بجمود كبير فابتدرها باعتذارات بدت لا نهائية لكثرتها والتي لم يمكنها حتى أن تخدش سطح جمودها فاستمع لحديثها برجاء وتملكته خلاله الكثير من المرارة حيث قالت:

– غالبًا ما كنت أظن أن أسوأ ما يمكن أن اشعر به هو أن أكون وحيدة بدونك.. ولكن الأسوأ من ذلك هو وجودي بقرب من يشعرني أنني دائمًا وحيدة.

– ماذا تقصدين؟!

– هذا سؤال لا يمكن لأحد أن يُجيب عليه غيرك.

– منذ متى أشعرتكِ بما تصفينه؟ أنا كنت على الدوام إلى جوارك ولكن لتعلمي أن الركض بدون وجهة من أجل البحث عن مخرج أثناء اشتعال حريق لا يؤدي في الغالب إلا للموت اختناقًا.. ولهذا فأنا لم أهرب من مسئوليتي نحوكِ ولكني أردت أن أشعر بسلام الأموات لفترة من الزمن.

– مسئوليتك نحوي تحتم عليك مراعاة أدق تفاصيلي.. وكان عليك أن تعي بأنني لست من حزب أولئك الفتيات اللواتي يكتفين بكلمة مواساة من حبيب عقب اندلاع شجار ما.. ولكني كما أسكنتك بداخلي وحدك كان يجب عليك أن تُسكنني داخلك وحدي.

– وهل هنالك من تنازعك أحقيتك في ذلك؟

– نعم توجد من تنازعني.. وليست بالضرورة أن تكون فتاة لتدفعك لهجري بهذه الكيفية.. فأفكارك ومخاوفك وتقلباتك أسباب كافية لهروبك.

– لم أهرب.. حاولي أن تتفهمي ما كنت أمر به من انتكاسات.. أسرتك تطلب مني الإسراع في ترتيب إجراءات السفر من أجل إتمام الزواج وبالمقابل أسرتي تعرقلني فماذا يمكن لي أن أفعل سوى أن أقبل بالعمل في أي مهنة مهما بلغ تواضعها لأحاول جمع مبلغ كافي لشراء خاتم يليق بكِ وقطع تذكرة طيران نحو بلادكِ.. وأكثر من ذلك لا يمكنني أن أفعل.. أبي له مخططات خاصة به يُريد لحياتي أن تسير وفقها وهذا ما رفضته وتركت كل شيء لأجلكِ.. ذهبت للعمل في مطعم كعنصر نظافة متغاضيًا عن مكانة أسرتي ولم أجد في ذلك حرجًا طالما أنه الطريق الوحيد الذي يمكنني من وضع اسمي

واسمكِ على وثيقة زواج لا تعترف بها أسرتكِ وقضاة بلادكِ فحسب بل تعترف بها أمم الأرض من الصين إلى الأقطاب المتجمدة وعجزي حتى عن شراء خاتم نحاسي لكِ كان كفيلاً لأهجر نفسي قبل أن أهجركِ.

– وهل انتكاساتك النفسية سبب كافي لغيابك أربعة أشهر كاملة دون أن أسمع منك أو عنك خبرًا واحدًا؟.. لدرجة أنني تخيلت للحظات أنك في عداد الموتى لسبب ما خفي ربما تشاجرت مع أحدهم فبادرك بطعنة تخترق قلبي قبل أن تخترقك.. ربما صدمتك سيارة لتحطم عظامي دون عظامك؟.. ولكن مع الوقت استقر في نفسي حديث كُتب على مهل تكلمت به ذاتي فيبدو بأنك تنصلت من حمايتك لي ولو مؤقتًا وربما كنت تجلس على أريكة خشبية قبالة البحر تنتظر شيئًا ما لن يقع.. تاركًا فتاة تنضح حبًا لك خائفة مرتعبة باكية.. لماذا لم تستمع لما ألقيته على مسامعك سابقًا يا (موسى)؟

– كم مرة يجب علي أن أقسم بأنني لم أتنصل يومًا واحدًا منكِ وأما ما كان من غياب فهو خارج عن إرادتي وكأن روحًا بائسة لرجل ضرير مات قبل مائة عام أضجعت بداخلي وأخذت تُملي علي ما أفعل وما لا أفعل.. كنت يائسًا لدرجة أنه يُمكنني التلاشي كقالب ثلجي تُرك على الواجهة الخارجية لنافذة كوخ مهجور في غابة.. وبرغم كل ما شعرت به لا توجد كلمة واحدة أقررتِ بها لي نُسخت.

– بل فعلت.. أزلت من ذاكرتك أكثر ما يمكن لفتاة أن تُخبر به رجلاً تُريده.. ألم أقل لك إذا أراد الرب قلبًا لقلب جمعهما ولو كانا شتيتين تفصل بينهما أرض وسماء؟؟.. فلماذا لم تثق بي؟؟.. كنت على استعداد تام للزواج بك مقابل ثلاث أساور من قصدير مهترئ.. كنت سأدعوك لمنزلنا وأقل لك لا

تخف سيقبلون بك حتى ولم تمتلك فلسًا واحدًا.. فأبي يُدرك أن الذهب لا يشتري أرواح المحبين.

– لا أدري.. ربما كان عليّ التوقف عن التفكير بهذه الطريقة ولكن قد يرجع هذا إلى تلك الروايات الكثيرة التي قرأتها من قبل.. حيث المشهد الختامي المعتاد لكل قصة حب معقدة بأن يختفي البطل فجأة وهذا ما لم أود فعله ولكنه حدث.

– الفاشلون فقط هم من يفعلون ذلك ولم أظنك هكذا يومًا.. كيف يمكنك الهرب ممن تثق بك؟!!

– كنت أسعى لإيجاد حل ما يمكنني من خلاله الفكاك من عجزي ولكن يبدو أنني فشلت.. فالرجال يسعون أحيانًا وراء أشياء مستحيلة.

– أتعلم.. في الثلاث ليال الأولى لغيابك شعرت وكأنني ساخطة على الجميع وناديت باسمك طويلاً عبر أزقة خالية من المارة لم يسمعني فيها أحد.. ويجب أن أخبرك أمرًا.. إنك جيد بكل شيء سيئ تفعله.. أتود فعل المزيد؟؟

– لا أتذكر شيئًا مما فعلته.. لا أتذكر سوى أنني بكيت وأعلم أنكِ أنتِ أيضًا فعلتِ بالمثل ومن المؤلم أنه لا يوجد من يستطيع مواساتك إلا شخصًا واحدًا أصبح فجأة غير قادر على ذلك.

– إن الأنثى دائمًا ما تخلق شيئًا حميمًا داخل من تحب يجعله لا يستطيع الابتعاد عنها ميلاً واحدًا ويبدو بأنني فشلت بتخليق ذلك الشيء فيك.

– على العكس تمامًا من ذلك.. أنتِ تجعليني دائمًا حيًا ونضرًا حتى عندما أقوم ببعض الحماقات أظل على نضارتي المقتبسة منكِ.. وكنت كلما نظرت لتلك الرزنامة القابعة أعلى سطح مكتب والدي أقترب وأتصفحها ببطء وأُلقي

نظرة متمهلة على شهر شباط أنه شهرنا يا (أميرة).. حيث التقيت بكِ في حُلمي لأول مرة.. ويمكننا أن نولد فيه من جديد كل عام ويمكننا أن نجعل منه طقسًا ذا احتفالات صاخبة لا ينتهي أبدًا.

– من الجيد أنك تذكرت شباط ولكنك لم تعمل بوصاياه.. أتدري أنه كثيرًا ما كنت أسأل نفسي هل يمكنني فعلاً حب أحدهم من خلال النظر إلى صورته فقط؟ دون الغوص فيه.. دون مراعاة أية فوارق؟.. وأن يعتريني ذلك الإحساس بأنني كنت معه من قبل ومعرفتي به تمتد لسنوات وفي الحقيقة أنا لا أعرفه؟.. هكذا كنت أنا معك.. أحببتك وفقط دون أي ثرثرة أخرى حول ما إن كان ذلك عقلانيًا أم لا؟

– وأنا أيضًا أحببتكِ دون النظر إلى أي إعاقات متمترسة أمامي.. إن حبي لكِ لم يكن يومًا اختياريًا يا (أميرة).. فأنا معك كالذي يستمع إلى لحن ما ولا يُمكنه التوقف عن الرقص.. ربما أمتلك قراراتي خارج إطار تواجدكِ ولكن بحضوركِ أدع إدارة كل أموري لكِ وحدكِ.

– ما أشد عجزنا.. كُنا قريبين جدًا من بعضنا البعض لا يفصل بين قلبينا سوى بضع إنشات.. أما الآن تفصلنا مسافة أكبر من سلاسل الأوراس وأكثر امتدادًا من طول النيل.. لقد كنت بحال أفضل على الجانب الآخر منك.. عندما كنت رفيقًا لا يتخلف يومًا عن الاعتناء بي.. إنه جانبك الذي أردت دومًا العيش فيه حيث لن تمر عليّ ليلة أخرى دون نوم ولن أعزف مجددًا ألحانًا محرمة بمزامير محرمة لعل أنينها يُعيدُك.

– كم أتمنى الآن أن أُمسك يديكِ بقوة.. لأسرق منكِ أحزانكِ.. لقد وعدتكِ أنني سأقدم لكِ الحب كلما تقدمنا في السن.. وسأضع ذلك الغطاء الصوفي

الأحمر فوق قدميكِ الباردتين عندما تُثلج السماء مُجددًا في العام القادم.. فهل تعلمين أنني حِينما أنظر إليكِ تهدأ كل عواصف الشتاء بداخلي!! ويحل الربيع مكان تلك الثلوج.. هل تعلمين أنني أُحب الربيع كثيرًا؟؟.. ولكني أُحبكِ أكثر من الربيع.

كوني دائمًا وردية واتركِ لي الشتاء.. سأتجمد.. ولكن يكفيني أنكِ ستبقين دافئة.

– لا أُريد المزيد من الوعود يا (موسى).. فأنا أؤمن أنه يجب أن تقع بعض الأحداث تواليًا بصورة قدرية لتجعل شخصين ما يلتقيان.. ليرتضي كل منهما بالحب الذي يظنان أنهما أهلاً له.. ولكن عندما تتضح لك بعض الأمور المستترة خلفها عدة خيبات تُصبح خسارة هذا الحب ليست ذات وقع كبير إن وجدت الأعذار المناسبة.

– أنا لم أسعَ لخسارتكِ ولو على سبيل المجاز.. بل لقد كنت أظن أنني لن أتزوج أبدًا وخاصة بفتاة جميلة كأنتِ.. لأنني كنت أعتنق تلك القناعات التي تقول أنه كلما زاد جمال الفتاة زادت حماقتها ولكنني أبدًا لم أعلم أنه كلما زاد جمال الفتاة كلما اتسع قلبها لتُنجب أطفالاً أكثر جمالاً منها حتى ولو كان أحد هؤلاء الأطفال يتجاوز العشرين عامًا كما حدث لي معكِ.. فأنا حقًا أشكر الله كثيرًا لأنه أوجدكِ.. فبدونكِ ما كنت أدري أي إنسان سأصبح عليه لقد جعلتيني شخصًا يستحق أن يفخر به كل من يصافحه صباحًا.

– إن كنت حقًا تُريدني بقربك فكان يجب عليك أن تهدم حائط تشكك وتعبر من خلاله.. لا أن تغيب شهرًا ثم تعود لتقول لي أنك لم تستطع القتال لأجلي.

– إذا كنتِ لستِ مهتمة بما أقول فربما يجب عليّ ألا أقول أي شيء.
– أنت دائمًا تأخذ ما أقوله وتحوله لشيء أخر.. تكسر عنقه وتلويه.. إن كنت لا أهتم بما تقول فلماذا أحادثك الآن إذن؟؟
–هل تعتقدين أنه قد وُلد أحدنا محتكرًا للحقيقة؟؟ أنا لم أحاول ولو لمرة واحدة التجمل أو التهرب من سرد ما قمت به.. فما اجتاحني من يأس بالنسبة لي كان أثقل من أن أحتجزه بداخلي وأعلم أنكِ أيضًا مررتِ بأيام عصيبة مماثلة ولكن لتعلمي أنه حيثما يوجد الوباء يوجد الناجون أيضًا.. وحيثما توجد الخطيئة توجد القداسة.. ولهذا فحتى إن وجدت بداخلي هوة ما فأنتِ تقفين على الطرف المقابل منها لتمدي لي يدكِ كما تعودتِ أن تفعلي.. فقط أخبريني كيف تُريدينني أن أكون.. وسأفعل!!
– أنا لا أعلم كيف يمكنني أن أصف لك ما أوده ولكن ما أتيقن منه أنه لم يعد بمقدورك التوقف عن قلة ثقتك بي وأنا لم أعد قادرة على بث المزيد من الإيمان بك بداخلي ويبدو أنني تحملت أوجاعًا قاتمة زرقاء أكثر مما يمكنني تحمله وأعتقد أنه يحق لي الآن إحداث بعض الضرر.

أنهت (أميرة) المحادثة بعد تلك الرسالة وظل كل منهما ينظر إلى شاشة هاتفه دون أن يرغب في كتابة شيء جديد يُضيفه لما سبق.. فهي لم تعد قادرة على منحه فرصًا أكثر رغم أنها تُحبه وتعلم أنه ربما يكون على الأغلب صادقًا فيما يقول ولكن طريقة تغيبه عنها جعلتها تشعر وكأنها تتحطم كسفينة اصطدمت بجبلٍ من جليد.. إن ما نمر به من تجارب عندما نُحب أكثر مما نمر به عندما نُحارب.. وتظل القاعدة الثابتة لحالة عشق كهذه أنه يجب علينا أن نثق بقلوبنا

وأن نذهب معها حيثما أرادتنا أن نذهب.. فالحب هو الشيء الوحيد الذي إدراكنا له يفوق الزمان والمكان رغم أننا قد نبدو غير قادرين على فهمه وانقضت بعد ذلك ثمانية أيام من المحادثات المتقطعة ومن محاولات الاسترضاء اليومية التي قام بها (موسى) ولكنه دائمًا ما يصطدم بمزاجية (أميرة) التي أصبحت متقلبة حد التطرف.. فهو لا يُمكنه التخمين ما هي إجابتها على أي سؤال يطرحه أو على أي إمكانية لحل الخلافات قد يُقدمها بعكس ما كانا عليه في السابق حيث إن كل واحد منهما كان قادرًا على قراءة أفكار الأخر بمجرد سماع أنفاسه عبر الهاتف وأما الآن فلا.. ولهذا تبدلت الأماكن بينهما وأصبح (موسى) الأكثر تضررًا وتعلقًا والأكثر احتياجًا وفقدانًا للمسببات فالاشتياق لمكان ما يصعب عليك الارتحال إليه قد يجعلك تحمل حقائبك وتقطع مسيرة أيام حتى تصله.. وهكذا الاشتياق لأرواح تتلبسنا.. كل يوم هو فرصة جديدة لترميم تلك الألواح الزجاجية التي قد تكون تهشمت بفعلنا.. فقلوب من نحب ما هي إلا بلورات من زجاج وإن تضررت واستحال علينا إصلاحها فيجب أن نجمع بقاياها بحذر ونسعى لتقديم قلوب بديلة لهم إن كنا نخشى ظلال الغياب.. يجب أن نتحلى بالصدق تجاه أنفسنا لنعترف بمسئوليتنا عن توابع ما أقدمنا عليه.. ولهذا (فموسى) يبذل قصارى طاقته في محاولات متتابعة لإمكانية الاتصال بها بعد أن أغلقت جميع منافذها على الشبكة.. سيقوم بتقديم كل ما يمكنه من أجل استعادة قلب فتاة كانت ترى بعينيه وتودع جوهر روحها في خزائنه لقد أحبته ولا شيء آخر كما لو أنها خُلقت لذلك.. كل الأماكن بالنسبة لها آمنة طالما أنه حي.. إنها مرفأه الوحيد الباقي.. ولهذا فهو لا يُحبها بل ينتشي بها وكأنها حلوى تذوب في

عروقه وذهنه يركض حولها ويتمنى لو أنه امتلكها يومًا كطفل يحلم باحتجاز البرق داخل زجاجة.. وكثيرًا ما كان يراها تُشرق على الضفة الأخرى من العالم كشمس تفرض أشعتها فوق أراضيه.. إنها الحياة متجسدة في أنثى.. فهي فتاة ناضحة بالألوان تجعل العوالم الرمادية تُلقي بثيابها الداكنة بعيدًا وتحتفل بصخب.. وأسوأ ما كان يخشاه أن يتمكن الفقد منه فيهزمه ويحطم أشرعة قلبه.. فهو يعلم أن الهواء سيزداد سماكة وضواري الأحراش ستتحول لجذوع جافة إن غابت ولكنه لا يملك سبيلاً أخر يمنع به وقوع ما يخشى ويترقب.. وبعد انقضاء ساعتين من الانتظار ومحاولات التواصل المستمر مع المتاح من معارفها أو صديقاتها اللواتي لا يحبذنه وهو كذلك ولكن الأوضاع الصعبة تفرض حلولاً صعبة.. تقدم نحو باب غرفته فأسند ظهره عليه وتذكر ما قال له (شهاب) رئيسه في العمل قبل عدة شهور مضت:

– إن أردت أن تصبح ثريًا أو عاشقًا فعليك أن تتحلى بالشجاعة الكافية.. الشجاع فقط هو من يحظى بكل شيء.. هو من سيظل واقفًا في النهاية حتى بعد سقوط جميع أعمدة المعابد حوله لا شيء يمكن أن يُنقذ به ما تبقى من فرص ليستعيد فتاته سوى شجاعة المواجهة.. فمن يرتكب خطأً عليه دفع ثمن ما في المقابل ورغم أن هاتفها أصبح خارج نطاق التغطية إلا أنه ظل جالسًا أرضًا بجوار باب غرفته يُفكر فيما يُمكنه قوله ليدفع عنه شبح غيابها ولو لمسافة ضئيلة وأما الآن فالساعة تُشير للتاسعة مساءً هذا يعني أنه ظل ثابتًا على تلك الوضعية أربع ساعات منذ الخامسة عصرًا وبعد انتظار دام أكثر مما توقع إذ بها تُفعل خدمات المراسلة بهاتفها وفور ما أمكنه إدراك ذلك قام

بمراسلتها بوجل يصحبه خفقان مُضاعف.. إذن دعونا نقترب لنرى بعضًا مما خطته أيديهما من رسائل:

– (أميرة).. لِمَ كل هذا الغياب؟؟.. لقد جلست بجوار الهاتف ساعات طويلة أترقبكِ.

– الآن تترقبني وتحاول أن تتلمس وجودي؟؟

عجبًا لم يكن هذا قائمًا قبل أكثر من مائة وعشرين يومًا!!

– لقد تكلمنا عما وقع قبل ذلك بما يكفي فهل لكِ أن تتقبلي اعتذارًا لا أجد حرجًا في إعلانه!

– لم أعد أتقبل شيئًا منك حتى وإن كان جبلاً من ذهب.. يكفي ما أوصلتني إليه.. تكفيني أيام طويلة من القطيعة أحسست فيها أن السماء ستسقط فوق رأسي لأنك لست بجواري.. أما الآن يمكنني الرحيل دون خوف فالسماء لن تسقط.

– سأخبركِ أمرًا.. الخارجون عن القانون في بلادنا يزرعون القنابل لإثبات أنفسهم ويجب على الشرطة أيضًا تفكيك تلك المفخخات للبرهنة على وجودهم إنها علاقة طردية بينهما.. كذلك نحن.. أنا وأنتِ أصبحنا غير قادرين على تجاوز ما قد يتسبب به أحدنا من عثرات لكي يبرهن كل منا على وجوده ويُضعف موقف الآخر.. واليوم تلوحين لي بالرحيل ويبدو أنه من المفترض أن أفعل شيئًا حيال ذلك؟؟

– لم يجب أن أتحمل أخطاء لم أقترفها!! أنت تعلم أنني تحملت حتى فاضت الكأس ولا يمكنني استيعاب المزيد.

– أعرف أنكِ تنظرين إليّ الآن كمجرد أحمق نفد صبركِ تجاهه.. أعلم أنني مزقت قلبكِ إربًا قبل ذلك.. حتى أن صديقاتكِ أخبروكِ أنه لا فائدة تُرجى مني.. لكنهن لا يفقهن شيئًا.. لا يعلمن أنني حقًا قد أعجز عن جمع كل نجوم السماء من أجلكِ ولكن على الطرف الآخر من النهر يمكنني تقديم قلبي لكِ من جديد.

– اسمع يا (موسى).. نحن نقف على حافة طريقين وإن كُنا سنفترق فلا عودة لنا.. هذا ما سيبدو عليه الأمر ويجب أن تتقبل ذلك كما سأتقبله أنا.

– أنا لا أحاول بيعكِ كذبة أو ما شابه.. الآن أقف أمامكِ بقلب محطم طالبًا منكِ أن تأخذيني إلى الوطن حيث تنتمين.. حيث كل ما يحيط بي هناك قد خُلق منكِ بشكل أو بآخر.

– ذلك الوطن غادرته أنت بملء إرادتك الحرة.

– ولكني سأظل باحثًا عن طريق العودة إلى المنتهى.. فليس لي ديار إلا بحماكِ.

– يجب أن تبحث عن وطنٍ بديل قابع بين ملامح امرأة أخرى فوطني لم يعد صالحًا للسكنى.

– يُمكنكِ تصويب فوهة ألف مدفع نحوي ولكن هذا لن يدفعني للرحيل عنكِ أو البحث بين ملامح نساء الأرض عن وطن يشبهكِ.. فالفردوس لا يليق به إلا أن يُنحت منكِ.

– لقد جعلت الحزن يقتات مني فتتشربه أوردتي بصمت لتكف شفتاي عن البوح والصراخ.. أنا لم أهملك يومًا بل إنني كسرت كل قواعد المنطق واللا منطق لأجلك ورغم هذا كثيرًا ما كنت تشعرني أنك تُحادث صديقة.. مجرد

صديقة.. لا شريكة قبلت بك أسرتها رغم المسافات الفارقة وملوحة مياه البحر التي تفصل بيننا.. هذا كله يكفي لأرحل.

– الرحيل لن يضيف لنا شيئًا.. لن يجعلكِ أسعد ولن يجعلني أكثر اتزانًا.. فأنا لا أملك الشجاعة الكافية لمصارعة أمر كهذا.. أنني أضعف من رؤيتكِ يومًا ما أمًا لرجل آخر غيري.. أضعف من أن ترحلين ثم بعد عقود أُنجب طفلة وأطلق عليها اسمكِ وألقابكِ وروائحكِ فيجتمع عليّ العشق ومصيبة القدر.. أخبريني لما لا تبقين فأُنجب من نسلكِ قبيلة تختلط دمائهم بعطركِ!

– من يُحب بعمق لا يُفارق.. وأنت فعلت.. لا يمكنني تفهم كيف يمكن أن يجتمع بداخلك الحب والهجر؟.. أي طريق منهما تريد أن تسلك؟.. ظننت أن الحياة ستوقف بغيابك ولكن يبدو أنها لا تحترف البكاء على العابرين.

– الحياة تقف فقط على أولئك القديسين الذين يمتلكون سحرهم الخاص وعبقهم الذي لا يمكن استنساخه.. أما أنتِ فأكثرهم تساميًا.

– القديسين كالملائكة خلقوا لا لشيء سوى الترنيم للرب ومنح الغفران لكل من يُلقيهم بحجر وأنا أعجز عن القيام بذلك تجاهك.

– ليس لديكِ شيء آخر لتقومي به من أجلي.. لقد قمتِ بكل شيء.. فأنا لدي منكِ بداخلي ما يكفيني قرونًا.. ولكم وددت أن أسكن يومًا في مدينة خالية على أطراف منحدرات ربيعية خضراء كجبال عينيكِ الراسيات فأُطلق عليها اسمكِ وأشيد لكِ فيها ميادين كثيرة وأُقيم لكِ على كل قارعة طريق تمثال.

– أحيانًا ما نود حدوثه قد يقع ولكن ليس مع من شاركناه الحُلم.. يُمكنك إيجاد مدينتك ونحت ما تشاء من نُصب لتلك الآتية بعدي ربما هي ستتحمل أكثر.. ربما ستستحق ما هو أكبر.

– من تلك التي تستحق أن أمنحها حبًا يوازي ما أكنه لكِ؟؟ أتتذكرين قبل عامين عندما تشاجرنا حول ما إن كُنا سنشيخ معًا أم لا؟ سنفنى معًا أم سيسبق أحدنا الآخر؟ حينها دائمًا ما كنتِ تقولين لي عيناي لا يمكن مقارنة جمالهما أمام عينيك يا (موسى).. عيناك أجمل وأعمق.. ولهذا فلست مستعدة لخسارتهما ليوم واحد فإما أن أفنى بجوارك يدي بيدك أو أرحل وحدي تاركة لك دفئًا يغمرك حتى التلاقي مجددًا.. ولكنني الآن أقول لكِ بصدق.. أنا أُحب عينيكِ يا (أميرة) أكثر مما أُحب سماع خفقان قلبي لكِ ليلاً.. إني أُحبهما وبقية تفاصيل وجهكِ.. أنتِ جميلة حد الكفاية بالنسبة لي ولا يجب عليكِ المغادرة إلى أي مكان فالأقمار لا يمكن أن يحويها لحد ولهذا فإنني سأحتفظ بكِ في قلبي حتى نلتقي في عالم آخر.. في بُعد آخر.. وسأحمل حبكِ معي إلى قبري.. هذا وعد كتبته لكِ على عاج الفيلة قبل أن أُخلق.

– هُناك بعض البشر درجة حبهم للأشياء تكون مؤلمة.. يظل مُحبًا حتى تنكسر آخر قطعة في قلبه.. فيشعر بالوجع وتكتحل روحه بالسواد ويظهر أمام العالم كمقاتل إسبرطي مهزوم مُستقرة في صدره عدة رماح.. هؤلاء لا أحد يعلم حجم السعير المتقد بداخلهم سوى القدير المستوي فوق عرشه.. وهذا ما أُصبت به معك.

– يجب أن تعلمي أنه كثيرًا ما كنت أشعر أنني أسرت أريج نهار صيفي في قارورة عندما أستمع لصوتكِ الفواح الساطع كشمس الظهيرة.. كنت أتوق حقًا

لأن تمنحيني بعضًا من مائك المقدس لأغتسل وينبت لي جناحي ملاك ربما حينها أؤمن أني تطهرت.. ربما اقترفت أخطاء لن يغفرها لي قلبكِ يومًا ولكني كنت أُريد الحب من صميم ذاتي المُعذبة.. كنت أُريد أن تصبح حياتي أكثر سلاسة وأن أُولد من جديد كل صباح على يديكِ.. ولكني الآن سأقول لكِ كلمات باهتة قد لا تؤثر في مجرى الأمور ولكنها هي الأكثر صدقًا على الإطلاق.. ليس بوسعي أن أُحب أحدًا كما أحببتكِ.. ثقي بذلك.. وإن كان مقدر لي بأن تشملني رحمة القدير ربما سأخرج من قبري مهرولاً باحثًا عنكِ أمام بوابات الجنة لكي أخبركِ بأنني صدقت ما عاهدتكِ عليه وسأطلب من الرب أن أراكِ ولو كان ذلك مرة واحدة فقط كل مائة عام فالطريق إلى الفردوس يا عزيزتي طويل حقًا.. وليس بمقدوري الصمود أمام تلك المسافة.. ولا يجوز لمن هو مثلي أن يُجاوركِ في سماواتكِ فكأنما الرب قد خلقها من أجلكِ.. فالأبدية لا تبدو لي سيئة طالما أستطيع رؤيتكِ عشر مرات خلال كل ألفية.. وسأكتب لكِ حينها الكثير من الخطابات تبدأ دائمًا بجملة واحدة "عزيزتي.. اشتقت لعينيكِ.. أما بعد".. وستوصلها لصندوق بريدكِ ملائكة صغار يحملون في قلوبهم الكثير من الترانيم والألوان..

فأنا لطالما أحببتكِ وما زلت أُحبكِ وسأظل كذلك حتى تحترق النجوم أو تمتنع الملائكة عن التسبيح.. لذا مهما كنتِ تخالين نفسكِ كسيرة فإنكِ لستِ كسيرة بقدري.

– إن كنت أحببتني كما تزعم ما كنت لتدعني وحيدة ليالٍ طويلة أنتظر فيها رسالة قصيرة منك فقط لأطمئن أنك بجانبي.. لم تكن لتجعلني أبحث عنك في وجوه المارة لعلي أجدك أو أشتم رائحتك.. هل تعلم أنني عشقتك بملء

فؤادي؟ هل تعلم أنني كنت سأغفر لك أي شيء حتى ولو كانت خيانة كبرى!.. الخذلان يا (موسى).. الخذلان أقسى من ضربات السيف المصقول.. أنت تسببت لي بجراح عميقة وأنا سببت لك مثلها على ما يبدو ولكن أعتقد أن كلينا يروق له الوضع الذي أصبحنا عليه.. فأنا لم أعد أبكي من أجلك خوفًا منك أو خوفًا عليك وأنت لم تعد مرغمًا على رعاية تلك الطفلة التي تعلقت بأطراف أصابعك آملة أن تحميها من الجميع وأن تكون حصنها ذا الأسوار العالية المنيعة.. أتذكر جيدًا ليلة انفصالك عني دونما حتى أن تتجشم عناء النظر للوراء لترى كم أنا بائسة بدونك؟؟ ستقول لي كانت مجرد حماقة غير مقصودة وسأقول لك هي أكثر من ذلك بالنسبة لي.. لقد سحقت كرامتي ولم يتبقَ لي منها شيء وكأنني دمية قماشية تحتضنها وقتما تشاء وتُلقيها أرضًا وقتما تشاء.. ربما كنا سنغدو أعظم قصة حب حدثت يومًا ولكننا لسنا كذلك الآن.. وإن كان في قلبي بقية من حب لك فهي من أجل تلك العهود التي قطعناها.. وإن كانت لن تُنفذ فعلى الأقل دعها ترقد بسلام.

– إنكِ تفطريني لشقين.. لما كل هذا اللوم!

– فعلت بي ذلك من قبل ولم تستمع لرجائي المتصاعد بأن تظل بقربي.. كم كنت أحتاجك يا (موسى).. كم كنت أُريد الاحتماء بك.. أنا أحتاج لسنوات طويلة حتى أصف لك كم أوجعتني.. أحتاج عمرًا لأحكي.. انظر لنفسك في المرآة وحاول أن تعتني بها لأنني اعتنيت بك لثلاث سنوات ومرت كأنها ثلاثة قرون.. لقد اكتفيت ولم أعد قادرة على منحك المزيد من أمومتي.

– هذه هي طريقتك في الانتقام إذًا؟.. لا بأس في أن تريني قاتمًا أثيمًا فلربما هذا ما أنا عليه بالفعل.. ولكنني أؤكد لكِ بأنكِ أنتِ من منحتي هذا القلب قدرته على الخفقان ولهذا فسوف يظل عاشقًا متيمًا بكِ رغمًا عن أنفي.. فعبر الأيام الطويلة المتعاقبة بدونكِ كنت أشعر بالخواء.. لقد ضاعت روحي في ضواحٍ معتمة وغرقت في ظلام دام قرونًا.. كنت مسجونًا في تابوت خشبي متداعٍ تآكلت جوانبه.. بدونكِ شعرت وكأنما ولدت ميتًا.. ولدت بقلب بارد وبأنفاس كالصقيع ولكنني الآن أشتهي أنفاس الأحياء وبخاصة أنفاسكِ.. فحتى وإن أخطأت وأصبت قلبكِ بخدوش الخيبات فليس من الحب أن أقول لكِ آسف ولكن الحب أن ترين ذلك ممهورة به ذاتي.. إنني حقًا لا أُريد أن أشيخ بدونكِ.. حينها السماء ستكون ملبدة بغيوم أرجوانية وستعلن الحداد حتى ينقطع المطر.. لا أُريد أن أكون عجوزًا يحمل زهورًا ذابلة جالسًا على كرسيه المدولب لينتظركِ.

عقب تلك الرسالة أنحت (أميرة) فوق أريكتها ثم بكت وتركت دموعها الحارة تشق طريقًا وعرًا بوجنتيها وساد صمت مطبق بينهما إلى أن تماسكت قليلاً وراسلته قائلة:

– (موسى).. لا تتصل بي مجددًا ولا تراسلني نصيًا عبر هاتفي أو عبر أي حساب أمتلكه على الشبكة.. يجب علينا أن ننهي علاقتنا هُنا بالقرب من بوابات عالمنا الافتراضي الذي تمنيت لو أنه اتسع قليلاً ليُلامس واقعنا.. أما الآن فأنا لا أُريد التحدث إلى رجل يكسر قلبي متى يحلو له ذلك.. لقد

سئمت هذا الوضع ولم أعد أحتمل.. سأرحل دون وداع كي لا تُدميني وجعًا مرتين.. فقط أتمنى أن تُصبح حياتك القادمة أفضل مما كانت عليه معي.. لا تُجهد نفسك بالبحث عني.. كن بخير وحاول أن تبتهج لأجلي.

ارتجف (موسى) وشعر بعظامه وكأنها تُنقل من أماكنها.. أصابعه لا تقوى على النقر فوق لوحة المفاتيح الخاصة بهاتفه ولكنه عبثًا حاول أن يُراسلها دون أمل يُرجى فهي قد عادت لتعطيل هاتفها كما قامت بتعطيل جميع حساباتها على الشبكة.. ويبدو أن الأمر سيأخذ وقتًا طويلاً حتى تستقر العظام الثائرة ويسكن الجسد المرتجف.. (فموسى) يُخيل إليه الآن وكأنما تُنزع روحه من تحت أظافره.. فهي بالنسبة له كجانب جبل الطور الأيمن للكليم عندما جذبته حرارة الضوء المنبثق من تجليات الرب هناك في سيناء فأصبح بعد ذلك رجلاً غير الذي كان عليه.. إن الفقد الذي يعانيه لا يُمكن الفكاك منه فالجليد الذي يتراكم الآن في رئتيه معيقًا أنفاسه عن المرور يدفع بجسده نحو احتضار بطيئ لا يستحقه سوى لص أو مُرابٍ ويجتاحه إنكار شديد يُعجزه عن تحريك حدقتيه ليرى إن ما كان لا يزال حيًا أم لا كجندي تُباع أراضيه بعد أن أسال بركًا من دمائه لأجل رفع رايته فوقها.. سيحاول جمع شتاته ويُغلق ثلاثين نافذة للغياب.. سيعترف بالخريف والظلال والفناء ولا شيء سيملأ ثقوب الفراغ بداخله سوى المزيد منها.. إن التاريخ الخاص بهذا اليوم المدون بأوراق رزنامة مُعلقة على حائط غرفته البائس كصاحبه يساوي في الكمال يوم اللقاء قبل ثلاث سنوات مضت.. فضجيج اللقاء يكتمل به صمت الفراق ومعانقات

العُشاق تُماثل انفلات يدين ملتحفتين ببعضهما.. هكذا هي الحياة لكل شيء بداية ونهاية ولكل قصة حبكة تُمكنها من صنع أسطورة خاصة لأبطالها.. ويظل الشيء الثابت في حياتنا هي أرقام التقويم بما تُخفيه وتجلبه وتسرقه.. فالحب يُعرف بمواقيت الاجتماع والشتات ولهذا (فموسى) لا يُمكنه الفكاك مما قُدر له أن يعيشه وستبقى أطياف السنوات الثلاث الماضية طيرًا موسميًا مهاجرًا بين زمن التلاقي الأول وزمن التيه ولذلك فتاريخ اليوم مُقدس.. إننا في الثالث من كانون الثاني/ يناير للعام الخامس عشر بعد ألفيتين.

الفصل الثالث

(طـوفـان)

أَيا لَكِ نَظرَةً أَودَت بِقَلبي
وَغادَرَ سَهمُها جِسمي جَريحا
فَلَيتَ أَميرَتي جادَت بِأُخرى
فَكانَت بَعضَ ما يَنكى القُروحا
فَإِمّا أَن يَكونَ بِها شِفائي
وَإِمّا أَن أَموتَ فَأَستَريحا

* العباس بن الأحنف

الفراق هو لعنة الساحرات القوطيات الوحيدة الباقية.. ويُمكنك الآن معرفة أسباب حرقهن بجلاء.. إنه شيء أبشع من ترك رأس أحدهم بجوار باب غرفتك.. إنه أشد فتكًا من طاعون أوروبا الأسود.. يحدث فقط عندما تُغادر يدك ساحات يد من تُحب.. من كان يومًا ما نصفك الآخر.. أرجو أن تُخبرني حينها عن القهر.. الحزن.. الوحدة.. هواجس الارتياب.. وغير ذلك الكثير من جنود الخفاء الذين سيُقيمون بداخلك قاعات ضخمة لمحاكم تفتيش لن تقوى على الصمود أمامها أكثر من عام وبعد ذلك سترقد روحك الباردة في قبر خاص بها.. قبر يليق بروح عاشق.. هذا إن لم يلتحق بها جسدك.. يقولون أن رجال الشرق لا يبكون حبيباتهم.. هل رأيت إفكًا أكثر فجاجة من ذلك؟؟.. وهل يموت العُشاق حُبًا إلا في الشرق؟! فحسب قانون الإيمان الساري في بلادنا فالحب ممنوع والموسيقى زندقة.. إنهم يضعون التاريخ تحت الإقامة الجبرية.. يسرقون الزيتون من باحات الكنائس ويصلبون المسيح في الناصرة.. وهنا لا تعشش العنقاء فوق فروع أشجار الكرز.. وفي الشتاء يصبح لون الماء كالنبيذ قرمزيًا.. فطالما أنت رجُل شرقي يجب أن تتوقع الأسوأ دائمًا.. فهنا لا علاج للعشاق ولا طعام للزُهاد.. فقط دع مُقلتيك يذرفان جداول الماء المالح.. دع لحيتك تغرق في صمت.. فأنت تُعاني الاشتياق وهذا للآسف داء لا يُفيد معه حيل الطب الحديث.. ضع يدك في جيب معطفك بهدوء ثم استخرج هاتفك وقم بكتابة رسالة طويلة جدًا.. طويلة حد الملل.. اسرد لمعشوقتك كُل ما تُريد من حكايا.. أخبرها عن مُدنك التي لم تزرها.. أخبرها عن رائحة الخبز التي تمنيت أن ينضج بجمر أنفاسها.. أخبرها عن رجل فقد أوراقه الثبوتية وجلس فوق جسر أصابت الشيخوخة

قواعده كصعاليك بغداد الذين تناساهم الزمن.. وبعد أن تُفرغ كل ما تحتجزه أوردتك من كلمات احذف تلك الرسالة لأنها لن تصل أبدًا ثم اكتب أخرى غيرها في الغد ولتكن أكثر مللاً.. أو إن كنت تمتلك الشجاعة الكافية فارتدِ قبعتك الباريسية واحرص على أن يكون هندامك شديد الأناقة ثم انخل شوارع ضاحيتك ليلاً حتى تصل لشرفة جولييت خاصتك.. راقب خطوات القادمين جيدًا.. احذر أن يُفسد أحدهم طقوسك.. قف باستقامة نحو نافذتها وألقِ نحوها حجرًا صغيرًا.. وانتظر حتى تسمع أنين خشب النافذة القديم حين يُفتح.. قُل لها أنك تُريدُها زوجة.. تُريدُها أمًا لك ولطفلك.. يجيب أن تعلم أنه لا كرامة هُنا.. لا وجود لذاتك.. فقط أخبرها بأن فتيات العالم لا يصلحن إلا لتنظيف ردهات المنازل أما الحب فلا يليق إلا بها.. كن فطنًا ولا تتلُ عليها قصائد بالية.. فالحب إن لم يكن مكتوبًا على ورق أو مرسومًا على جدار أو منحوتًا على صخرة فسوف تنبعث روائحه من طوابع البريد.. من أوعية عطور جداتنا المُعتقة.. من ساحات المساجد.. من غابات الصنوبر.. من شرائح الكعك ومن فصوص البرتقال.. من ثرثرة مزاريب الضواحي في كانون.. من بياض الثلج والحليب.. من الطائرات الورقية.. من الطباشير.. من قرص الشمس ومن أسراب الحمام.. الحب مقيم بداخلك فقط أخبرها بذلك وكن شجاعًا لعلك تستعيد فردوسًا صغيرًا خرجت منه أو مت وحيدًا كجرذ.. إنه الآن يمر بمرحلة أخيرة من مراحل الفقد وبنوع من الفشل له مذاق خاص.. سيشعر أن كل الأبواب مفاتيحها مكسورة والسليم منها أكل عليه الصدأ وشرب.. كل شيء أصبح له رائحة العفن وكل المُبهجات أضحت مجرد سخافات لعينة ثقيلة الظل.. (موسى) الآن وحيد جدًا وقد أدرك ذلك بعد شهر

واحد من فراقهما ولكنه لم يشعر بآلام حادة لأن نصل السكين كان مصقولاً جيدًا لدرجة أن الذبيح لن يشعر أنه نُحر إلا بعد ثلاثين يومًا أما ما يلي ذلك من أيام فهو وقت كافٍ للنزيف.. إنه وحيد أكثر من فرخ نسر تركته أُمه فوق جرف صخري.. أصبح لا يعي الفرق بين الصباحات الربيعية وبين أمطار الشتاء.. الوقت تجمد بالنسبة له.. فعندما يحل المساء يجلس منحنيًا فوق سريره محتضنًا ركبتيه المضمومتين بشدة إلى صدره ويقتطع وقتًا يبدو وكأنه أبدية صغيرة ليغرق في حزنه الدافئ ويستسلم لمطارق عدة تهوي فوق رأسه فلا يدري إن كان سينجو أم أنها ستهشم ما تبقى من ذاكرته وأحلامه وطيف محبوبته.. نبضات قلبه أصبحت ثقيلة جدًا كخطوات عجوز سبعينية.. الرُكام يتطاير من بين نوافذ ضلوعه والذكريات تنهش في لحم كتفيه كأي قمام يواقع جيفة في البرية.. هو يعلم أن تلك المرحلة ستدوم ولن يكفيه مواساة طبيب نفسي وبعض الأقراص لتخطيها.. إنها قوارير ممتلئة بذلك الوجع المستقر في العظام.. إنها سُحب الوجل وليس لها كاشف إلا رحمات الرب.. هذا إن كان يستحقها.. ولذلك قرر أن يبتلع كل المرارات وحده بصبر وجلد فالهروب لن يفيد.. حقًا لن يفيد.. فمن العار أن يخدع ذاته ويوهمها أن كل شيء على ما يُرام ويبتسم رغم أنه لا يوجد هناك ما يدعو للابتسام.. هذه أفعال الحمقى المنافقين الجبناء الذين عجزوا عن منازلة أحزانهم فقرروا الهروب نحو أراضي السعادة المزيفة المصطنعة ولا يدرون أن تلك السعادة أشد بؤسًا من أحزانهم وأقل رحمة بهم منها؟!.. فطبقًا لقوانين الطبيعة كل بداية حتمًا لها نهاية خاصة بها وهذا الأمر ينطبق على حالته المتعايش معها.. ستبدأ مرحلة التعافي عندما يصل لمنطقية الأمر الواقع.. عندما يؤمن أن ما حدث كان مقدرًا له أن يحدث

فكما أن لقاءهما كان قدرًا أضحى فراقهما قدرًا أيضًا.. حتى وإن لم يرق ذلك له.. يجب أن يتقبل وحدته وقلبه المتآكل وصدى نبراتها المُقيم في أُذنيه.. ربما يرى أنه لا يستحق أن يعيش في جحيم من هذا النوع ولكن هذا ما يجب أن يكون عليه الأمر.. لا توجد بوابات سرية للهروب ولا يستطيع الشيطان نفسه أن يجد له بوابة لغرض كهذا.. لا يوجد له ترياق إلا النظر في خضرة عينيها وحدها تلك الفتاة قادرة على ضخ الدماء مجددًا لعروق الفتى.. ما أتعسه من عاشق!!.. ولكن يجب عليه أن يعلم بجمال حزنه.. فالحزن في حد ذاته طاهر وأكثر نقاءً أحيانًا من الفرح.. يجعلنا نواجه ذواتنا بصدق ويُعلمُنا كيف نُحب أنفسنا.. كيف نضع قليلاً من الملح فوق جروحنا النازفة.. فالأيام ستمضي وربما ستشرق الشمس على قلوبنا المتوهجة كأشعتها من جديد.. ربما سنرتطم بإرادتنا بجدران تلك اللحظة التي تكون فيها أرواحنا أخف من أوراق شجر متطايرة.. تلك اللحظة التي سترتفع فيها أقدامنا عن الأرض لفرط النور المتفجر فينا.. فإن استحال اللقاء بين عاشقين ضمن حدود هذا العالم لا بأس فهناك عوالم أخرى تنتظرنا بشغف.. هناك يُمكن أن نضع نهايات أبدية مناسبة لقصصنا ونُعاتب أحبتنا بأسلوب يليق بما نحمله لهم من حب.. ولكن هذا لا يمنع أن نرتاب قليلاً من كل شيء أثناء فترات وحدتنا.. أثناء فترات انكسارنا وعزلتنا فنحن جميعًا لدينا ما نخشاه وحياتنا ما هي إلا مقامرة كبرى فإما أن نُحب ونصنع قصصنا الخاصة وإما أن نكتفي بالمراقبة كعجائز لا حِراك لهم.. وأحيانًا قد لا تميل كفة تلك المقامرة لصالحنا ونصبح أكثر احتياجًا لما كانت عليه أنفسنا قبل خوض غمار تلك التجارب.. فكل شيء نفعله ونرغب به أو نسرد حكايانا الحبيسة عنه يرسخ فينا كوتد وتظهر عواقبه

تباعًا ولأنهم يقولون يكفي أن تتحدث عن الشرير كي يأتي فإن كان هذا صحيحًا فحتمًا قد ذاق (موسى) نصيبًا مما اغترفه له ذلك الشرير.. فهو لا يكل أبدًا ولا تُصاب نفسه بالركود حتى وإن ظل يتحدث عنها أيامًا متواصلة دون أن يطرف له جفن.. يتحدث عنها للجميع.. لأيام الآحاد الشتوية التي كثيرًا ما جمعتهما صباحاتها الماطرة.. لرابطة عنقه الزرقاء التي لطالما أُعجبت بها.. لمعاطفه ولجدران الغرف.. هي في حد ذاتها ليست شرًا كيف لها ذلك وهي المستقرة في نُخاع عظامه استقرار الروح في مكمن الجسد ولكن ما تجلبه له معها أسوأ بكثير من قنينة بها خلاصة الشر المُقطر.. خلاصة البؤس كما ينبغي أن يكون فحين يتحدث عنها تجلب له في حقيبتها شيطانًا مَرِيدًا وخنجرًا.. تجلب له ألم الذكرى الذي لا يذبل ليحترق به فؤاده حد التفحم وذلك لأنه كان قبل لقائه بها أخجل وأجهل من أن يتقرب من حسناء أو يتودد إليها وكثيرًا ما كان يستعرض بمخيلته داخل غرفته المنعزلة وجوه فتيات الأزقة المجاورة مضيفًا عليها صورًا من الملاحة والفتنة تفوق الواقع.. فأضحت (أميرة) أُمًا بديلة وشريكة حياة ووطنه الأمن ورفيقة نزعت عنه قناع خجله فسكنته واقتطعت شقًا من قلبه لترتديه كقلادة ولهذا فإن غيابها لم يكن مجرد فريضة يومية يجب عليه اعتيادها ولكن عليه أيضًا أن يدعها تغتاله أثناء إقامة شعائرها.. إن زمن العاشق المكلوم لا يمر كما نألفه فإن كنا ندور متوافقين مع أفلاك عقارب ساعتنا فهو يدور عكسها.. كل شيء يضادنا فيه وكأنه يعيش موازيًا لنا في برزخ ما لا يمكننا اختراقه.. فمن يعشق يقوم بكل ما عليه فعله حسب تقويم خاص به ولا يمكننا أن نجتمع معه على تعريف واحد لشيء ما.. إن محبة العاشقين ونزيف عذاباتهم متراكبان تمامًا كصوت صفير القطار

لسمعه ولا نراه وكأنين الناي يبكينا ولا نستطيع أن نحتضنه.. للعاشقين ملامح حزن خاصة بهم وعوالم سرية تختبئ تحت شراشف أسرتهم.. الزمن يتعاقب و(موسى) أصبح شاحبًا صامتًا كشاب ريفي عائد للوطن بعد حرب دامت عقودًا قد أكل الهزال منه حد التخمة وصُمت أذناه ببقايا البارود والدم.. لا يملك سوى نظرات مشحونة تحمل كل ما لا يمكن للكلمات أن تعبر عنه من تساؤل واتهام وإدانة لأوردة نقشت عليها عهود لم تمحَ ولتلك السماء الملبدة التي دائمًا ما تصوب إليه إيماءاتها الخرساء.. أمسى يضطجع كل عشية ملتحفًا بأغطية ولفائف رغم أن وهج أمسيات الصيف المتقد يكاد أن يخلع الجدران بلفحاته رجاءً منه بأن تقل رجفته ويمتنع جبينه عن إسالة العرق البارد الذي حفر على وجهه عدة أخاديد وبلل لحيته بمائه المالح.. وإن كان كتابة ألف خطاب أمرًا يكفيها لتعود فهو سيفعل.. ولأنه كلما أحبها كلما ازداد ضعفًا سيفعل.. ويمكنه أن يجرد نصلاً من عنق الياسمين ويذبح به وريدًا مراوغًا هَزيمتهُ فتوقف عن النبض باسمها وأخذ يضخ دماءه دون النظر لرائحتها المختلطة به.. إنه فقط تخلى عن كبريائه وراح يتبعها.. فقد قال لها يومًا:

– الشيء الوحيد الذي أريده منكِ هو أنتِ.

إن قلبه يخفق بتصاعد مستمر كرجل يمشي منكبًا للأمام باطراد ولا يمكنه مقاومة ذلك.. ربما لأنه يوغل في العشق أو لأنه أقر بوجود ذلك الجسد الذي يتجلى ثم يشف ثم يختفي ثم يعاود التجلي بداخله من جديد ويسلم بأنه ليس إلا هي.. تتلبسه كقرين كما تلبست حواء بآدم.. كتب لها يومًا رسالة بخط

مرتعش على ورقة صفراء باهتة لم يرسلها إلى أي صندوق بريد تملكه ولكنه اكتفى بإلصاقها على الحائط المواجه لسريره فقال:

– هنالك الكثير من بقاياكِ مازالت عالقة في خبايا معطفي تتسلل ليلاً لتبيت في راحتي حتى الصباح لتقص لي عنكِ مزيجًا من الحكايا رغم أنكِ لم تعودي هُنا.

لقد وعدها بحب لا يبلى كي لا تجزع إن غاب عنها يومًا ولتتذكر دائمًا أنه ولد ليحيا من أجلها وأما الآن ربما سيمر خمسون عامًا دون لقاء.. قد يمر جيل أو ربما اثنين ولكنه سيظل على ثباته مؤمنًا بأنه سيعود للقياها وإن هرمت كل الطرق وسقطت السماء كسفًا.. جالبًا معه قمرًا فضيًا خجولاً لتدعه يطفو أعلى غرفتها لينير لها وحدها دون البقية فتشع نوافذها الزجاجية بلون الثلج بينما الجميع في الخارج غارقون في الظلام.. إنها عطية الرب بالنسبة له وتروس مواقيت العالم تسير حسب إشراقاتها كل صباح فلا يهم كم عامًا سينتظر أو كم عقدًا سينقضي فهو يعلم أن كل ما دونها سيشيخ وستبقى هي تلك المرأة التي أحب وإن بلغت السبعين وسيبقى وقع خطاها دومًا يسابق في أذنه وقع خطاه.. نحن الآن في بداية شهر مايو/ أيار.. صيف حار يطرق الأبواب جالبًا معه ذكريات متأججة.. وها قد مرت خمسة أشهر وبضعة أيام على الانفصال أحادي الجانب كما يؤمن به (موسى).. وهو الآن يُجرب الحياة وحيدًا للمرة الأولى منذ ثلاث سنوات.. لا مزيد من رسائل الاطمئنان ولا مزيد من كلمة "اشتقتك".. كل ما تبقى له هو الخواء وبعض دُمى الطفولة القماشية.. إنه مازال يُعاني ذلك الصداع النصفي الذي باشر نخر رأسه خلال أيام عزلته عنها وعن العالم وعاودته جرعاته بعنف أكبر عقب رسالتها الأخيرة

له.. إنه شديد الاعتقاد ألا علاج له سواها ولذلك فلا يوجد في خزانته مُسكنات أو ما شابه.. الوجع يزداد وكلما اشتد كلما احتضن أطيافها الممتدة عبر الأفق.. أصبح يُحب آلامه.. أصبح متوحدًا معها.. أصبحت جزءًا منه وأصبح جزءًا منها.. كان دائمًا يسحب كرسيه ويجلس بجوار نافذته عند الشفق ربما ليستمع لأصوات العواء القادمة من صحراء ما خلف أمواج البحر المكتومة التي تخبره عن قصة عشق يُسطرها الآن ذئب ذو قلب فتي لأجل إحداهن.. أو ربما هكذا ظن أو توهم.. وفي إحدى الليالي تشابكت أصابعه خلف رأسه ليتمدد قليلاً إلى الوراء ثم يتنفس بملء رئتيه ويدخل في نقاش ليلي طويل معتاد مع ذاته فيقول:

– أتمنى لو كان فقط بإمكاني أن أقابل شخصًا جديدًا.. ولكن تبدو فرص ذلك منعدمة تقريبًا.. خصوصًا لعدم قدرتي على النظر لعيون امرأة لا أعرفها.. ويبدو جليًا أنني سأفشل مهما تعددت المحاولات فأنا أحن لعيون (أميرة) بطريقة سادية وهذا أقل ما يُمكن أن توصف به مشاعري الآن.. فإذا اقتربت نحوي أي أنثى لمسافة أقل من نصف متر ستسمع بوضوح فرقعة سياط الاشتياق المدوي صداها عبر أزقة صدري المعتمة.. ولأنها أنثى فستعلم أن ما يجري بداخلي ما هو إلا محاولة فرار من بقايا أنثى مغايرة جلست ذات يوم على أريكة قلبي الخشبية ثم مضت تاركة خلفها حقيبتها والكثير من بقايا العطر.. فأنا حقًا أشتاقها جدًا حد السماء وما بعدها.. أحتاج إلى سماع أنفاسها.. إلى شهيقها وزفيرها ورنين ضحكاتها.. لقد انتزعت فؤادي بغيابها الغجري الذي طال أكثر مما ينبغي.

وعلى الرغم من ذلك فهو يخشى أن يقع في غرام كل امرأة يراها لمجرد أنها تعطيه الحد الأدنى من الاهتمام.. وهذا لا يُعد انفصامًا أو جنونًا نحو الجنون ولكن هذا ما يحدث في تلك الفترات التي تعقب إخفاقات عاطفية عميقة.. فهو بالفعل قد يقع في غرام أي نادلة في مقهى لمجرد أنها ابتسمت له وهي تضع أمامه قهوته الصباحية.. فالوحدة ستجعله يشعر بالذنب وهذا في حد ذاته مبررًا للهروب إلى الأمام نحو أي شريك جديد متوفر فالشعور بالندم أقسى من الموت والجميع بالفعل يموتون ولكن القليل من يندمون حقًا.. ولذلك فابتسامة النادلة قد تفي بالغرض ليُحِبُها وهذا لا يدل إلا على قلب كسير أكثر بؤسًا من حيتان العنبر المنتحرة جماعيًا على سواحل نيوزلندا.. وهذا بالضبط ما سيحدث لاحقًا.. فخلال ذلك الصيف قرر أن يتعرف على فتاة جديدة وهو لم يلتقط أنفاسه بعد من مأساة سابقة عصفت به كورقة شجر صفراء ذابلة.. فلربما كان يؤمن بأن آخر العلاج الكي.. يريد أن يطرد ذكرى فتاته السابقة بفتاة جديدة تنافسها في الجمال ليرضي غروره لا لتعوضه عنها.. يريد أن يثبت لنفسه أنه مازال مرغوبًا مازال محط أنظار الفتيات ولم يكن ليعجز عن إيجاد فتاة بسرعة فبالفعل هناك واحدة تسكن في الضاحية المجاورة له وكانت أيضًا إحدى زميلات الدراسة سابقًا.. (مريم).. بلا شك هو يعرفها جيدًا وهذا مهد له الطريق نحوها فبعد لقاء عابر سبقته مراقبات عدة وتظاهر أنه مجرد صدفة استطاع الحصول على رقم هاتف زميلته السابقة نظرًا لعلاقتهما الطيبة في الجامعة.. تلك الفتاة كانت تمتلك عينين شديدتا التوهج وكأنما الشمس تشرق في عينيها بلا أدنى مبالغة.. عينان بلون العسل ووجه صبوح رقيق الملامح وبشرة بيضاء وإن كانت أقل بياضًا من فتاته السابقة

ولكن ذلك اللون يُكسِبها جمالاً خاصًا.. فتاة يتمناها الجميع.. وبعد مرور الأيام وتوالي المحادثات شعر أنه يتمتع بأوقات طيبة معها وهي كذلك ولكنه في الحقيقة لم يحبها لثانية واحدة.. وظلا أيامًا يحاول كل منهما إبهار الآخر وكسب رضاه ولكن فجأة شعرت (مريم) أن تلك العلاقة الوليدة لن تستمر للأبد وهنا تكمن قوة حواس الأنثى وصدق حدسها.. وكان ذلك أثناء جلوسهما قرب شاطئ البحر فظلت تطرح عليه أسئلة مفخخة من نوعية: أخبرني عن علاقاتك السابقة وما على شاكلة ذلك ولكنه لم يجب أبدًا وكان دائمًا يقوم بتغيير اتجاه الحوار ليشتت أفكارها.. هي لم تقبل منه ذلك وكان هذا باديًا على نبرات صوتها في الكثير من الأحيان وقبل إنهاء علاقتها معه بفترة وجيزة قالت له:

– كنت أتمنى أن أمنحك ما تريد وأن أبرهن لك أنني مميزة ومتفردة وأن تراني كما أراك ولكنك لم تساعدني على فعل ذلك.. أنت معي بقالبك الجسدي فقط أما روحك فهي مسروقة هائمة وربما قد تسكن مدينة أخرى عند امرأة أخرى.

ظل يفند لها كل تلك الأحاسيس ولكنها رفضت أن تصدقه رفضًا قاطعًا ونظرت إليه متفحصة وكأنما تنظر إلى عمق ذاته.. وشعرت أنها ترى ضلوعه عارية وتحجب خلفها الكثير من الخواء ورياح شتوية كئيبة بالغة البرودة.. ثم تابعت حديثها قائلة:

– أنا امرأة وأعرف تلك المشاعر جيدًا فأنت حينما تنظر إليّ وكأنك تنظر إلى فتاة أخرى تنتظر قدومها من خلف سحب الغيب لتنتشلك من هذا العالم

لتعيش معها في عالمها الخاص فلا داعي لأن تجهد نفسك بالتبريرات هذه العلاقة يجب أن تنتهي الآن.

انسحبت (مريم) على الفور واستقلت سيارة لتعود إلى منزلها تاركة (موسى) يجلس وحيدًا كحطام لرجل عتيق ليأخذ الوقت الكافي لاستيعاب ما حدث.. وبعد مرور ساعتين وصلته رسالة نصية على هاتفه أن علاقتهما انتهت مع تمنياتها له أن يجد الراحة التي ينشدها قريبًا وأن تنعم روحه المعذبة بالسلام الذي تستحقه.. لم يرسل لها تعقيبًا وكأنه لم يستطع مواجهة نفسه بحقيقة ما قالته وفي الواقع خسارته لتلك الفتاة كان خبرًا غير سار فهو حقًا سمح لنفسه أن يتعلق بها وأراد أن يستبدل بها (أميرة) ولكن ذهبت محاولاته أدراج الرياح فمشاعره معها ليست تلك المشاعر التي أحس بها قبل ثلاثة أعوام مع فتاة احتلته بالكامل.. إن فتاة قسنطينة لا يمكن أن تُقارن.. هذا ما وقر في صدره وأصبح عقيدة يؤمن بها تمام الإيمان.. والغريب في الأمر أنه لم يسمع عن (مريم) أي أخبار منذ ذلك اليوم ولم يسعَ لذلك.. فقط جعلها ترحل في سلام.. ويبدو أن هذه اللا مبالاة تكتسي شيئًا من الواقعية فهو رغم كل ما مر به خلال سنواته الخمس والعشرين الماضية إلا أنه لا يتذكر سوى آخر ثلاث سنوات تلك التي قضاها رفقة (أميرة) أما بقية التفاصيل الأخرى فلم تكن إلا مجرد صور باهتة لا ترتقي لتوضع ضمن إطارات ذاكرته.. فهو حاول التفكير مرارًا في (مريم) كحبيبة بديلة وأراد أقلمة وضعه معها ولكنها نفرت.. لا لسوء يسكنه ولكن لغريزة الأنثى المُسيطرة في رفض الشراكة مع أنثى أخرى حتى ولو لم تكن موجودة في الأصل وهذا أوصله لقناعة اعتُمدت ورسخت ثوابتها بداخله وتفيد بأن من ينتظرها يبدو أنها لن تعود وبديلاتها يرفضن الأدوار

الثانوية ولذلك ربما اليأس في إيجاد التماثل بينهما قالبًا وجوهرًا وبين أنثى أخرى هو الذي جعله يتوقف عن البحث.. فهي ستظل تلك الفتاة المشتعلة تواجدًا في ذاته كجذوة من اللهب.. وبكل المقاييس لا توجد من تساويها في الشكل والروح.. فأصبح يرى أغلب الفتيات داكنات البشرة قاتمات الطلة عابسات كلهن عجائز في نظره لذلك أصبح يراقب شقراوات المدينة نادرات الظهور بحذر في أيام سابقة ويمني نفسه بانتصار صغير على ذكراها التي أنهكته وأحرقته حيًا كنمش لمتوفٍ برهمي لا يُعرف مدى رضاه عن إحراقه من عدمه وظل يردد باعتقاد مرتاب:

– المجد كل المجد للشقراوات.

وأخذ ينظر في عيونهن لكنه لم يجد ذلك الخضار الذي كان كامنًا في أحداقها.. تبًا لها من فتاة وكأن الله لم يخلق لها مثيلًا!! وقد يكون هذا صحيًا ولم لا!!.. فهي تمتلك قلبًا أكثر بياضًا من ثلج متساقط فوق رماد.. إنها قلادة لازوردية مقدسة حول عنق يوغرطة.. إنها ذلك الأسد الرابض فوق تلال وهران وسراج من لهب يُنير لمن اصطفاه الرب.. وإن كان للعاشق فجيع الفؤاد وصفًا فليس هنالك من هو أقرب له من (موسى).. لقد أصبح في غيابها عجوزًا خرفًا يحمل بين شفتيه غليونه الفارغ من التبغ وينظر برجاء نحو السماء.. يتمنى أن تُمطر لعل ثجيج السُحب يجلب معه رائحتها.. إنها ليست مجرد فتاة بل هي روح متمردة جاءت من خلف ستائر الأقدار لتسكن أوردته فتُلقي به في جُب يُوسُف ثم تنتشله لتمنحه الحياة.. تقتله وتلده من جديد.

فهو ملتحم بها كسوار ذهبي حول معصمها.. إنه بدونها يبدو كجندي هارب من قعقعة معركة يرتعش بردًا ويتقلب بين حدود معطفه كدودة داخل شرنقتها..

وما إن تسيطر السكينة على محيط جسده حتى يراها تسيطر على حركة الرياح بين طرقات الأزقة الفارغة وعلى ترنحات المتصوفة داخل حلقات الذكر.. ولا يبدو هذا غريبًا فالحب هو الشيء الوحيد الذي ألغى احتمال أن تكون هذه الحياة مجرد صدفة!!.. بل إنه ينثر في نفوسنا بذور الطُهر ويرسم على كفوفنا قلوبًا حمراء ويمنح الفتيان سيوفًا وأحصنة ليُعاملوا كفرسان نبلاء ويجعل من فتيات الحي أميرات يسكنّ قلاع العصور الوسطى وينتظرن في خجل عربة بيضاء تجرها الملائكة.. وكما أنه لا يمكن للذئب استبدال اللحم بحبات الكرز فكذلك نحن لا نستطيع أن نستبدل الحب بأي شيء آخر رغم كل العذابات المتقرحة التي قد تُرافقه.. ولهذا يُمكننا العمل جاهدين على استمراريته إن أردنا للبجعات أن تُعشش على ضفاف النهر المار وسط أحياء مدينتنا المكتظة وكذلك إن أردنا إيجاد شيء ما يشغلنا عن التفكير في رغبات ذات طابع لصوصي ومهما كانت مشاعرنا مضطربة فطالما أحببنا بصدق فلن ننسى ولن نغفر لأحبائنا إن تجاوزونا عقب فراق أو فقد.. بل نُريد البقاء بداخلهم إلى مُنتهى الزمان لعل الاحتياج للخلاص من ذكرى مؤلمة تكون بمعانقة قصص عشقهم القديمة.. نحن نُريد السرمدية لذواتنا الذائبة في ذوات نورها أكثر مُحيطية من قلوب الوراقين نُساخ الوحي لأن رغبة الخلود ما هي إلا بلورة مُجسدة لمسعى قديم كالأهرامات فالأبدية لا نُريدها لأنفسنا فقط ولكن أيضًا لمن نحب وحتى إن غبنا عنهم فنطقنا لأسمائهم يُمنحهم بريقًا خاصًا ويُمد في حياتهم لبعض اللحظات الإضافية وهُنا تُسحب أوراق تعجبنا من فوق الطاولة ونفهم لماذا ذكر العُشاق من الشعراء أسماء حبيباتهم بحروف محفورة عمقًا في قصائدهم حتى لا يتمكن الزمن من محوها وكلما نُطقت

أسماؤهن أُضيفت لأبديتهن لحظات أكثر تجعل من الأبدية أطول مما كانت عليه سابقًا.. وبحلول مساء ذلك اليوم بعد عودته من مُستقر تأمله أمام البحر حيث أبلغته (مريم) أخر كلماتها شعر برغبة عميقة في النوم فهو يُريد الانسلاخ من كل شيء يحيطه بما يتضمن الوخز المستمر في رأسه فسحبته قدماه ببطءٍ نحو الفراش بوقت باكر ما بين الساعة الثامنة والتاسعة مساءً فتمدد على سريره واضعًا هاتفه على سطح كرسي مجاور ثم اعتدل على جانبه الأيمن ووضع راحة يده اليمنى تحت رأسه وأخذ ينظر نحو الهاتف لعل شاشته تضيء برسالة ما تأتيه من خلف الصحراء تلهث راكضة فهو ما زال ينتظر رسائلها رغم تعطيلها لجميع منافذ حساباتها الشبكية أو ربما الأرجح أنها قامت بحظره وأيضًا غيرت رقم هاتفها عقب انفصالهما بحيث لا يُمكنه تقفي أثرها وهي ما نجحت في تحقيقه.. وقبل أن يغفو جفناه بلحظات رن جرس هاتفه فأهمل الأمر وتكاسل حتى عن إغلاقه إن كان لا يُريد مكالمة أحد فوضع وسادة فوق رأسه وحاول استكمال غفوته ولكن الرنين لم يتوقف لدقائق متتابعة ولهذا رُفعت أستار جفونه متثاقلة ومد يده وأمسك هاتفه بأطراف أصابعه وقرر الإجابة على المتصل دون قراءة اسمه المضاءة به الشاشة وقال:

– آلو.. مرحبًا.

– أهلاً يا (موسى) كيف حالك لعلك بخير يا صديقي!

كان صوت المُتصل خشنًا نوعًا ما وله بحة مميزة تجعله مألوفًا لأذن (موسى) فاستغرق ربما عشر ثوانٍ لمعرفة المُتصل الذي لم يكن رقمه مُسجلاً في قائمة جهات الاتصال لديه.. فرد بنبرة تتخللها ابتسامة ناعسة قائلاً:

– (إبراهيم) أهذا أنت؟

– من الجيد حقًا أنك لم تنسَ صوتي حتى الآن يا رفيق.

– لا يُمكنني ذلك.. كيف لي أن أنسى شريكي في مقعد الدراسة ست سنوات من الإعدادية إلى الثانوية.. اشتقت لك كثيرًا وبحثت عنك لفترات طويلة ولم أعثر لك على أثر وكأنك تبخرت فجأة.. أين كنت؟؟

– هذه قصة طويلة سأحكيها لك عندما نتقابل.. ولكن أخبرني متى يُمكنني زيارتك؟

– يُمكنك زيارتي وقتما تشاء يا (إبراهيم) فأنا حاليًا متواجد في المنزل طوال النهار تقريبًا وأحيانًا أخرج للتريض في المساء على الشاطئ.. ما رأيك أن تأتي غدًا في الواحدة ظهرًا لنتناول طعام الغداء سويًا ونتسامر حتى المساء.. وعنوان المنزل كما هو لم يتغير.

– حسنًا.. لا مانع لدي فأنا أيضًا أريد الحديث معك بشدة ويوجد هناك الكثير من الأمور لأعرضها عليك.

– لا بأس إذن سأنتظرك.. ولكن قل لي كيف حصلت على رقم هاتفي؟

ضحك (إبراهيم) ووضع يده على رأسه ساخرًا ثم قال:

– الحصول على رقم الهاتف الخاص بصديق الطفولة الأقرب لقلبي ليس عملاً شُرطيًا معقدًا يا (موسى).. والآن عُد لفراشك فيبدو أنني أيقظتك من نومك فصوتك يُخبرني بذلك وسآتيك غدًا في الموعد.

تبادلا السلام فيما بينهما وأغلقا المكالمة وظل (موسى) في حالته ما بين النوم واليقظة ولكنه مُدرك لما حدث للتو وعلى أية حال وضع هاتفه على الكرسي المجاور كما كان ولكنه أغلقه هذه المرة وعاد للنوم على وضعيته السابقة.. ويبدو أن ظهور صديقه القديم المُقرب سيضيف أبعادًا أخرى لحياته تفصله

قليلاً عما يُعايشه من وحدة صماء مُطلقة.. وفي صباح اليوم التالي استفاق مبكرًا من نومه وأعاد ترتيب بعض الوضعيات الخاصة بالأرائك والفُرش وأعاد تجديد الورد في المزهرية التي تتوسط طاولة الطعام في غرفة الضيافة بعد أن قام بشراء باقات جديدة.. وفي تمام الثانية عشر ظهرًا وصلته رسالة من (إبراهيم) يُؤكد فيها قدومه بعد ساعة من الآن وذلك حتى يمنحه فسحة مَن الوقت لترتيبات أخيرة قد يرى أنها ذات ضرورة.. انقضت ساعات الصباح وبدأت شمس الظهيرة تُعلن عن نفسها مستعرضة توهجها في كبد سماء الإسكندرية ورافق ذلك رنين جرس الباب وكان (إبراهيم) واقفًا بالخارج ينتظر طلة من صديق قديم اشتاقه كثيرًا وما إن فتح (موسى) الباب حتى ابتسما لبعضهما وتعانقا بشدة كأخوين افترقا لمائة عام ثم جمعتهما الأقدار مجددًا وذلك دون أن ينطقا بكلمة واحدة لأن الاشتياق تُلجمه فرحة اللقاء فلا يكون هُناك متسعًا للعتاب أو الأسئلة ذات صيغ التحقيقات الرسمية.. وبعد دخولهما لغرفة الضيافة سحب (موسى) أحد الكراسي الملتفة حول طاولة الطعام ليجلس عليها (إبراهيم) ويطول بينهما حديث دافئ لرفيقين متماثلين في العمر والشغف.. فالوقت مازال باكرًا على تناول الغداء فهما ذات طابع واحد حيث يتناولا غداءهما عقب الساعة الرابعة عصرًا أو أكثر.. ولأن والده لن يأتي قبل الساعة الثامنة مساءً فاستطرد (موسى) في الحديث حول كافة ما حل بصديقه طوال هذه السنوات حتى قال مستفسرًا:

– أين كنت غائبًا خلال السنوات السبع الماضية؟؟ لقد فقدت حقًا أي أمل في إيجادك؟؟

– أعلم أني اختفيت دون أن أخبرك وهذا سبب لي بعض الحرج ولكن بعد أن تخرجنا من الثانوية أصابت والدي انتكاسة صحية مفاجئة إثر أزمة قلبية قاومها لأربعة أيام ولكنه توفي في شفق اليوم الخامس قُبيل الفجر بلحظات.. وكان أبي هو العائل الوحيد لأسرتنا المكونة من خمسة أفراد.. أمي وشقيقاتي الثلاث وأنا.. وكما تعلم فحالتنا المادية ليست على ما يُرام فقررت التخلي عن الدراسة الجامعية والالتحاق بالميناء حيث كان يعمل والدي.

– كان يمكنك الجمع بين الدراسة والعمل وكنت تستطيع الاعتماد عليّ في تجميع أجزاء مناهجك الدراسية ولكنك لم تفعل!!

– هذا غير وارد يا (موسى) فالعمل الذي أختص به لا يُتيح لك فرصة لفعل أي شيء أخر وأعتقد أنني استفدت منه أكثر من استفادتي الجامعية إن كنت التحقت بمقاعدها الدراسية.

– وما هي طبيعة عملك؟؟

– أنا بدأت كعامل بسيط في هيئة شحن وتفريغ البضائع في الميناء ثم بعد شهر واحد فقط التحقت بإحدى السُفن التجارية وعملت فيها كمساعد للبحارة في الأعمال الفنية مثل تجديد طلاء العوارض الحديدية لمقدمة السفينة التي يُصيبها الصدأ بسبب ملوحة البحر وإصلاح الأجزاء التالفة في ماكينات الدفع والمحركات وغيرها من الأعمال فالبحارة فوق سطح سفينتهم يعملون في كافة المجالات حتى أنه سيأتي اليوم وتكون مطالبًا بطهو الطعام لزملائك.. وهكذا اكتسبت العديد من الخبرات حتى أصبحت الآن بحارًا كامل الأهلية ذا تقنيات جيدة.

- ولكن خلال كل هذه الفترة لم تسنح لك الفرصة بزيارة واحدة لأصدقائك؟؟ كم أنت قاسي القلب يا رجل!

ضحك (إبراهيم) مشيرًا (لموسى) بالنفي وقال:

- حياة البحر ليست كما تتخيل.. إنها حياة ترحال مستمر وأجازاتك خلالها شبه معدومة فالسفينة أصبحت مستقرك وعليك التعامل مع هذا الواقع ويكفيك أن تُرسل المال الكافي لعائلتك شهريًا بينما أصبح سُكان السفينة هم عائلتك البديلة الأكثر تواجدًا حولك ولكن هذا لم يمنعني من التفكير بك وكثيرًا ما كنت أحتاج مساندتك ولكن الأمر الواقع يفرض نفسه.

استمر الحديث حتى حدود الساعة الثالثة والنصف عصرًا وخلال ذلك قدم (موسى) لصديقه عددًا من أكواب القهوة المُحلاة والعصائر فهو يُدرك أن (إبراهيم) يُفضل هذه المشروبات على أي أصناف أخرى.. إنها صداقة متينة لم تصبها السنوات بأي شرخ ولهذا فهما ظلا صديقين مُقربين حتى بعد فراق دام سبع سنوات.. وبحلول الساعة الرابعة أحضر (موسى) الطعام الذي أعده سابقًا من المطبخ وتناولا وجبتهما وأطراف الحديث مازالت تتجاذب بينهما وبعد الانتهاء من ذلك جلسا يحتسيان كوبين من الشاي فاعتدل (إبراهيم) في جلسته ثم اقترب قائلاً:

- أُريد أن أُقدم لك عرضًا.

- جيد.. يُمكنك إخباري به.

- عند عودتي من أخر رحلة علمت أنك تعاني بعض الانعزالية ولم تُفلح في إيجاد عمل في مجال دراستك كمرشد سياحي كما كنت تتمنى ولذلك سأتقدم لك بعرض عمل يليق بصديق.

– يبدو هذا مثيرًا للاهتمام ولكن ما هو؟؟

– انتقلت حديثًا للعمل بسفينة بضائع جديدة ولكن طاقمها ينقصه الكثير من البحارة ولهذا سأرشحك للعمل معي ليس كمساعد ولكن كبحار كامل المميزات الوظيفية وستقاضى نفس راتبي وأعتقد أنه سيكون مبلغًا مرضيًا لك.. ولا يتحتم عليك فعل شيء سوى مراقبتي وتقليد ما أقوم به فالسفر يمتد لأسابيع وأريدك بجواري فليس هنالك أجمل من أن تتقاسم أسفارك مع الرفاق.. ماذا قلت؟!!

– أنت تعلم أنني لا أفقه شيئًا في هذا المجال وأخشى أني لن أقوى على تحمل ذلك.

– لا تخشَ شيئًا فالأمر أكثر بساطة مما تتصور.

– إن كان الأمر كما تصفه فأنا أوافق من حيث المبدأ ولكن يجب إخبار والدي أولاً ومعرفة خط سير هذه السفينة حتى تتضح الرؤى.

– أعتقد أن والدك سيوافق فالراتب مجزٍ والعمل آمن وأما خط السير فهو نقل البضائع من أغذية وملابس وغيرها من الإسكندرية إلى سواحل لبنان ذهابًا وإيابًا ويوجد معنا أيضًا بحارة لبنانيون يشاركوننا العمل.. فكر بالأمر وأبلغني موافقتك خلال ساعات لتتمكن من تحضير مستلزماتك فالرحلة ستُقلع بعد يومين.

أنهى (إبراهيم) حديثه ثم قام متوجهًا نحو الباب رغم إلحاح (موسى) المتكرر عليه أن يبقى متواجدًا لفترة أكبر ولكنه اعتذر لوجود ارتباطات أخرى عليه إنهاؤها وأخبره أنه لن يُغلق هاتفه وسيظل منتظرًا إجابته على العرض الذي قدمه مع يقينه أنه سيوافق.. ثم أدار مقبض الباب وخرج بخطوات سريعة نحو

الدرج ليتمكن من إنجاز مهامه.. أغلق (موسى) الباب وهو يُفكر في إمكانية السفر لعل ذلك يُتيح له متنفسًا جديدًا بعيدًا عن روائح (أميرة) الملتصقة بجدران غرفته.. وفي تمام الثامنة مساءً عاد والده للمنزل وما إن جلس على الأريكة ليستريح من جُهد الصعود على الدرج- الذي قطعًا سيُرهق رجلاً في نهاية عقده الخامس مثله- حتى باشر (موسى) الحديث معه دون تمهيد أو مقدمات مستبقًا أي شيء سيقوم به والده خلال الدقائق القادمة قائلاً:

- أبي.. سأذهب للعمل في البحر على سفينة تجارية خلال يومين!!

وكأن والده لم يسمع حديثه جيدًا فهو كان يُرخي عُنقه على المساند القطنية للأريكة ثم انتبه فجأة ونظر (لموسى) وكأنه يقول له أعد ما قلته الآن مرة أخرى.. ولكنه بدلاً من ذلك قال متعجباً:

- بحر؟؟ أي بحر؟؟.. وما درايتك أنت بأعمال السفن التجارية؟؟ وكيف توصلت لهذا العمل من الأصل؟؟

- زارني اليوم صديق قديم وعرض الأمر عليّ وأخبرني بأنني سأتقاضى راتبًا مجزيًا وسأكون بأمان والسفينة ينقصها الكثير من الأفراد لطاقم العمل وأنا سأتعلم بالتدريج وأراها فرصة جيدة لإعادة إثبات ذاتي.

- إذن أنت قمت بترتيب كل شيء وأخر ما تذكرت فعله هو الحصول على موافقتي!!

- لا هذا غير صحيح.. الأمر برمته حدث عصر هذا اليوم وأنا أتوق لمغادرة المنزل وخوض غمار رحلة عمل جديدة.

- اسمع.. في السابق تركت المنزل من أجل سعيك لإثبات سداد رأيك في زواجك من تلك الفتاة التي أخبرتني عنها وقلت لك هذه العلاقة لن تستمر

ولن تنجح ولهذا فلن أمنحها موافقتي ولن أباركها لأنني أكثر منك دراية وخبرة.. وما أخبرتك به حدث بأسوأ مما توقعت ولهذا فإن كانت هذه الرحلة كسابقتها فمكوثك بالمنزل أفضل من تبديد الجهد والوقت والمال.

– أرجوك توقف عن تذكيري بفشلي في تحمل مسئولياتي تجاهها وهي ليست فتاة ولكنها تمتلك اسمًا وهو (أميرة).. كفاك انتقادًا لها فهي لا تستحق ذلك.. لا تستحق ذلك أبدًا.

– إذن لماذا هجرتك؟!!

– لم تهجرني يومًا واحدًا ولكن أنا من فعلت.. لم أتحمل الضغوط وخاصة تعنتك الغير مبرر ضد فكرة الزواج من خارج القُطر.. إن لم تكن رفضت أن تُمدني بالمال لكان الوضع الآن مُختلفًا.

– أنا لم أُمدك به لأنني كنت أُريدُك أن تُثبت أنك تستحقه ولكن خارت قواك في أول اختبار وكذلك كنت ستفعل إن مرت بكما مشكلة ما بعد الزواج.. كان لابد لك أن تتمرس على صعوبة الحياة لتتعلم كيف تحمي من تُحب.. يبدو أنني وفرت لك سُبل الرفاهية بصورة أكثر من المطلوب وهذا أثر عليك بالسلب.. ثم إنك لم تُخبرني بفترة غيابك خلال السفر وما هو خط سير رحلتك؟؟

– أبي.. لست هُنا لإعادة أحياء الماضي واستماع محاضرة في كيفية التعامل مع مشاق الحياة.. أنا فقط أُخبرك برحيلي وهذا ما أردتك أن تعرفه.. أما مدة الغياب خلال الرحلة أعتقد سأكون متواجدًا في المنزل مرة واحدة أو مرتين شهريًا وأما خط السير فهو من الإسكندرية إلى لبنان

انتهت المحادثة خلال دقائق وعقب ذلك ذهب (موسى) ليجلس داخل غرفته حيث يُمكنه التفكير بما يلزمه وما يُمكنه حمله معه في حقيبته ويبدو أن مناقشته المقتضبة مع والده أثارت فيه بعضًا من المقاومة لفكرة الاستسلام لما آلت إليه الأمور بينه وبين فتاته وأخذ يُمني نفسه بإمكانية استعادتها أو على الأقل تحسين صورته أمامها ولكن غالبًا ما ينتهي به المطاف مستسلمًا لواقعه خائرًا كأنه لص سقط تحت تأثير ضربات هراوات الشرطة.. قد يكون الأمر برمته ناتج عن ظرف نفسي أصابه باضطراب شديد حينها وقد تكون مبالغته في جلد ذاته أحد أثار ذلك الاضطراب الجانبية وهذا ما يجعله أكثر شجونًا وشوقًا لها عندما يكون منعزلاً فلا يوجد شيء يُسمع له صدى في مُحيطه سوى الجدار وصورتها والحديث المتبادل بينهما طويل وشاق ويُعاد كل ليلة بتؤدة كسلحفاة تسير على شاطئ رملي.. بينما (د/ عبدالناصر) ذهب ليقوم بعاداته اليومية الأكثر روتينية على الإطلاق بعد عودته من العمل.. وفي ظهيرة اليوم التالي اتصل (موسى) بصديقه الأقرب وأخبره بما دار بينه وبين والده في مساء أمس ثم بدأ (إبراهيم) يُعدد له ما يجب أن يفعل وما لا يجب عليه فعله ونصحه بأن تكون أغراض حقيبته بسيطة ولا داعي للإكثار فالسفينة يتوفر بها كل شيء ولذلك اقتصر (موسى) على وضع أدوات الحلاقة ومنشفة خاصة به وبعض الأقمصة وكتاب فلسفي بعنوان "محاورات أفلاطون" قرأه عدة مرات ولكنه لم يمل من إعادة الأمر.. ويبدو أن الوقت ما بين تلقيه عرض العمل وبين وصوله الفعلي للميناء ومشاهدته لتلك السفينة العملاقة المقسمة ألوانها بين الأبيض والأزرق لم يكن وقتًا طويلاً لأنه الآن يقف على رصيف الميناء بالفعل بعد أن ودع والده وإن كان وداعًا باردًا ولكنه يظل به بعض الشجن

مهما كانت المشاعر باردة.. فليس من السهل أن يودع والد ابنه الوحيد دون أن يتمنى في قرارة نفسه أنه يتراجع ويظل بجواره فقلوب الآباء ليست أقل رهفة من قلوب الأمهات ولكن الطابع الخشن للرجال يُغلف أفئدتهم بطبقة متكلسة تُدعى الجَلد وقوة التحمل.. وعلى الجهة الأخرى ما هي إلا خطوات قطعها (موسى) على طول الرصيف البحري للميناء في صباح اليوم المحدد للسفر حتى تقابل مع (إبراهيم) الذي يبدو من بعيد كقبطان عجوز ذهب البحر بشبابه رغم أنه مازال في الخامسة والعشرين.. فتعانقا ومشيا متجاورين يضع (إبراهيم) ذراعه فوق كتف صديقه وتتهادى خطواتهما نحو السُلم المعدني الممدود من أعلى السفينة حتى رصيف الميناء.. وبعد الصعود لسطحها لم يكن هُناك من يستقبل الزائر الجديد ربما لأن السفينة كبيرة وعدد البحارة المستيقظين على متنها في هذا الصباح الباكر قليل وتبتلعهم مساحتها وأبعادها ولذلك وضع (موسى) حقيبته بجانب باب قُمرة قولاذي واتجه نحو مُقدمة السفينة ومدد ذراعيه على قضبان الحاجز الحديدي واستنشق نفسًا عميقًا مشبعًا برائحة اليود.. وبنفس التزامن ذهب (إبراهيم) ليُعد طعام الإفطار تاركًا صديقه يتأمل البحر كيفما شاء.. وبالعودة (لموسى) فنحن لا نعلم بالتحديد في أي شيء كان يُفكر ولكن حيز الاختيارات والتخمين لن يكون صعبًا فهو لا يُمكنه السباحة ذهنيًا إلا في أمرين إما (أميرة) أو شبحها.. وبينما كان غارقًا في النظر لأمواج البحر ربتَ على كتفه رجل أربعيني ممتلئ يميل إلى البدانة ذو بشرة بيضاء ولحية سوداء متوسطة الكثافة غزتها الكثير من الشُعيرات البيضاء على أنحاء متفرقة منها فالتفت له (موسى) ليرى رجلاً مهيبًا يرتدي ملابس مدنية لا تختلف عن ملابس المُصيفين فهو يرتدي قميصًا رقيقًا

يُبرز تفاصيل جسده وبنطالاً قصيرًا يمتد إلى ما بعد الركبة بقليل ولكنه يحمر قبعة تبدو عسكرية أو شبيهة لتلك النوعية من القبعات وأثناء رصده لهيئته بادر الرجل بالمصافحة وافتتاح حديث قصير قائلاً:

– مرحبًا بك يا (موسى).. أنا القبطان (عزيز الشاذلي) ربان هذه السفينة وأتمنى لك رحلة موفقة معنا.

– شكرًا لك سيدي وأتمنى أن أقدم الإضافة المرجوة لبقية الطاقم.

– أظن أنك قادر على ذلك.. لقد أخبروني عنك قبل أن تصل بساعات وأردت أن أستقبلك بنفسي لأنني لا أؤمن بالحواجز بين رب العمل ومرءوسيه.. فكلنا نخضع لنفس المخاطر والظروف وأتمنى أن تُقدم كل مجهوداتك لجعل رحلاتنا أكثر نجاحًا.

– سأبذل قصارى جهدي.. أعدُك بذلك سيدي.

– بداية جيدة.. والآن اصعد معي لقُمرة القيادة لكي توقع عقود العمل وتستلم مهامك انطلاقًا من اليوم فالإبحار نحو السواحل اللُبنانية سيكون في الظهيرة أي بعد خمس تقريبًا من الآن.

تقدم القبطان نحو الدرج المؤدي لمكتبه في القُمرة الرئيسية وتبعه (موسى) بخطوات ساكنة وعندما جلس على مكتبه أخرج القبطان عقد عمل بصفته الممثل الرسمي للشركة التجارية المالكة للسفينة والعقد يمتد لستة أشهر قابلة للتجديد دون حد أقصى ويتضمن الراتب المتفق عليه والصفة المهنية (لموسى) على سطح السفينة وبنود الحقوق والواجبات وغيرها من القواعد القانونية لعقود العمل وبعد أن راجع كل منهما البنود وتم التوقيع بين الطرفين أشار له بالنزول لغرف البحارة لكي يتعرف على زملائه ويستلم ملابس العمل

الرسمية وهي عبارة عن بزة بحرية زرقاء وقبعة صفراء صُلبة لحماية الرأس وحذاء يُشبه أحذية الجنود من حيث السماكة وطريقة التصميم.. فسار نحو ما وجِه إليه حتى سمع أصواتًا ممتزجة لأحاديث متقطعة صادرة من خلف زجاج غرفة كبيرة تبدو وكأنها غرفة مؤتمرات مصغرة أو غرفة مخصصة لتناول الوجبات بما يُشبه المطاعم المتنقلة على أطراف القُرى في الغرب الأمريكي.. ففطن إلى أن جميع البحارة قد استفاقوا من نومهم وتحضروا لتناول الإفطار ثم استلام زمام أعمالهم كالمعتاد ولما اقترب من باب الغرفة دفعه برفق ليدخل ثم يُلقي التحية على الجميع بثقة المتمرسين والقادة فاشرأبت الرءُوس والتفتت إليه الأعناق ثم بعد الترحيب به من قِبلهم وتعريفهم بنفسه وتبادل المصافحة بينهم زفر زفرة حارة وكأنه يتخلص بها من بقايا الخوف والرهبة وكان يجلس في أقصى ركن للغرفة صديقه (إبراهيم) مرتديًا زي العمل الرسمي كما هو حال الجميع حول طاولة الطعام وحاملاً كوبًا من القهوة فأشار إليه بإبهامه إلى الأعلى إشارة إلى رضاه عما قام به من خطوة أولى نحو الاندماج وسط المجموعة الجديدة التي ستكون له بمثابة عالم جديد صغير يعيش بين أركانه لمدة ستة أشهر قبل أن يعود للمنزل مرة أخرى.. وبعد انقضاء فترة الراحة وتناول الإفطار اصطحبه (إبراهيم) لوسط سطح السفينة حيث يوجد غطاء مربع له مقبض يمثل جزءًا من السطح فرفعه ببطءٍ لثقل وزنه ثم كُشفت بعد ذلك غرفة سرية بالأسفل يقود لها سُلمًا حديديًا وبعدما هبطا داخل الفتحة وأصبحا في وسط الغرفة أضاء (إبراهيم) المصابيح بعد ضغطه على أزرار الإنارة لتتكشف أمامهما خزائن معدنية وصناديق خشبية ذات وزن خفيف وأخرى كرتونية تضم عددًا من الأحذية والخوذات الواقية وأما بداخل الخزائن

المعدنية فهناك أطقم كاملة من البِزات البحرية والقُفازات فاتضح (لموسى) أنها مستودع أو مخزن كبير للمُعدات والملابس الخاصة بالعمل فناوله (إبراهيم) ما خُصص له فأخذ الثياب وأشار له رفيقه بأن يخرج ليُبدل ملابسه في غرفتهما رقم تسعة ليستعد للعمل بينما هو سيُمضي هُنا بعض الوقت لإعادة ترتيب محتويات المستودع.. يبدو أن اليوم الأول له بعد استلام مهامه سيمر بسلام وكل شيء يسير كما خُطط له.. وحين دقت الساعة في تمام الثانية عشرة ظهرًا دارت مُحركات السفينة ليشُق هيكلها صفحة المياه الزرقاء الهادئة للبحر المتوسط وعندما انتقلت الشمس للضفة الغربية من السماء كانت السفينة في وسط البحر تمامًا حيث لا موانئ ولا أرصفة ولا يوجد شيء سوى الموج المتعاقب على لطم جوانبها بينما المُقدمة تشُق العباب متجهة لسواحل الشام.. سواحل لُبنان.. ولأن (موسى) أكثر من يحتاج للانصهار وسط مجتمع جديد لا يحمل من آثار الماضي أي علامات حتى وإن كان مجتمعًا ذكوريًا خالصًا فهو يقبل بإذابة نفسه داخله.. إنه كمَهَاتْمَا نحيل يرتدي خرقة قطنية قرمزية بالية يبحث عن مكان ما في مرتفعات التبت للتضرع والصلاة.. ولهذا فالأيام تتعاقب والسماء تتغير ألوانها كل بضع ساعات مع الشروق والمغيب جالبة له معها حياة أشبه بجرعات المورفين لمريض باتت أنفاسه تحت الحصر وتتساقط أجزاء جسده فوق شراشف المشافي فلا هي تُنسيه الوجع بالكُلية ولا تقضي عليه لتُريحه ولكنها تظل حياة أفضل قليلاً من سابقتها فهي توفر له مسحة من النسيان لتستطيع الروح الكامنة بين ضلوعه أن ترقد بسلام في المساء.. ولأن غياب (أميرة) عنه دفعه للهرب بعيدًا ليحتمي بأمواج البحر من جلدات ذاته المتتالية فوق ظهره بسياط نُقعت في الزيت

ليالٍ عدة لتكون ضرباتها مؤلمة حد العويل وهذا في حد ذاته دليلاً على اعترافه بمدى الإهمال الذي قد شاب علاقته بها فغالبًا نرى الكثير من الممتعضات يقلن أن الحب يُغير الرجال في الأفلام السينمائية وفوق صفحات الروايات ولكن في العالم الحقيقي الحب لا يُغير شيئًا من طبائع الرجال وهذا تقدير خاطئ بالكامل مثله كالذي يُجزم بأن فاقد الشيء لا يُعطيه على الرغم من أن الشخص الذي مر بأكثر التجارب فشلاً هو الوحيد القادر على إعطاء نصيحة صادقة تعبر بك نحو النجاح.. أما الآن فيجب على (موسى) الإصغاء جيدًا لصوت السكون في مساءات رحلته الممتدة لشهور فالمستقبل يجب أن يكون أكثر ملائمة من الماضي ولذلك دائمًا يقولون لماذا عليك التفاوض حول معاهدات السلام بينما يُمكنك الانتصار في الحرب!!.. هكذا بدأت كفتي ميزانه ترجحان سويًا نحو ما أراده.. وبعد مرور أسبوعين على وجوده وسط الطاقم وتقدمه الملحوظ في تعلم أسرار حياة البحارة من (إبراهيم) وإظهاره لإمكانات غير محدودة لاستيعاب أدق تفاصيل العمل وكأنه يكتسب خبرة عشر سنوات في أيام معدودات وتزامن ذلك مع وصول السفينة لسواحل لبنان واستقرارها هناك لأيام لتفريغ محتويات شُحنة الأغذية القادمة من ميناء الإسكندرية واستبدالها بشحنة ملابس وكماليات تشتهر بها بيروت عاصمة السلام والحرب والأغاني الليلية.. وعند استقرار الشمس وسط السماء بلا سُحب تحجبها دعا القبطان جميع بحارته لتناول وجبة غدائهم المعتادة من السمك المشوي مع الأرز الأبيض أو شرائح اللحم مع الخضروات المطبوخة على الطريقة الإيطالية ولكن (موسى) أراد أن يتناول وجبته موجهًا ظهره للبحر ومستندًا على قضبان مقدمة السفينة المعقوفة ولكنه لم يشأ أن يقوم ليُحضر

طعامه فجوعه ليس بذاك القدر الذي يُجبره على تعكير صفو خلوته.. ولكن بعد دقائق شاهد أحدهم قد احمّر وجهه من رطوبة الجو يتجه نحوه ويقترب منه بخطى سريعة ويحمل في يده عامود طعام معدني يتكون من أربعة أوعية بينما يحمل في يده الأخرى مجموعتين من أدوات المائدة كل منهما تتكون من ملعقة وسكين ومنديل أبيض ذو رائحة نفاذة يستخدم كمنشفة تعطير بعد تناول الطعام.. إنه (يوحنا) شاب لُبناني أحد ركائز العمل ضمن طاقم السفينة يمتاز بطول قامته وبلحيته البُنية الكثة وشاربه الذي يُماثلها بينما ينحسر شعره عن مقدمة رأسه لتبدو هيئته كرجل ثلاثيني جاد ولكن الحقيقة مختلفة فهو لطيف إلى حد كبير وهو على علاقة طيبة (بموسى) حيث بدأت صداقتهما منذ أول يوم انضم فيه كعضو جديد للطاقم وربما كان (إبراهيم) و(يوحنا) هُما صديقان (موسى) المُقربين فقط داخل محيط العمل وأما بقية البحارة فمجرد زملاء لا أكثر فالثرثرة المسائية بعد انتهاء نوبات العمل لا تحدث حصرًا إلا بين الأصدقاء وهكذا كان الحال بين الثلاثي.. وعندما اقترب منه وضع عامود الطعام أرضًا على يمينه وقال:

– رأيتُك جالسًا منعزلاً هُنا وأدركت أنك ربما لا تُريد المزيد من الصخب في غرفة الطعام

اليوم ففضلت إحضار الغداء حيث تتواجد أنت لنتناوله سويًا فأنا أيضًا مللت من صوت صرير الملاعق فوق الأطباق وسط هذا الجمع.

– نعم فأصوات الحشود تشق رأسي نصفين وتسبب لي تصدعًا في جدران العظام وأعتقد أن تصرفك هذا أفضل وأكثر هدوءًا.. ولكن أين (إبراهيم)؟؟

– إنه لا يتغير كما تعلم.. فهو أسرع من يجلس على الطاولة وأسرع من يُنهي طعامه.. ستجده الآن جالسًا على كُرسي الشاطئ الخشبي ذي المفاصل النُحاسية الصفراء المُخصص للقُبطان يُدخن بعض السجائر وبجواره كوب عصير به ثلاثة مُكعبات ثلج.. إنه شخصية فريدة ولن تفهمه إلا إذا تقربت منه بشكل كافٍ.

– أجل.. فأنا أُدرك طبائع (إبراهيم) أكثر من أي شخص هُنا فهو صديق مقاعد الدراسة ولكن يبدو أن سنوات عمله في البحر قد غيرت من سلوكه بعض الشيء.

بدأ (يوحنا) في ترتيب مائدة صغيرة فوق قطعة من القماش ليضع فوقها أوعية الطعام ويُمد (موسى) بنصيبه وملعقته وأثناء ذلك تابع حديثه قائلاً:

– البحر يا صديقي هو الملجأ الوحيد الآمن لكل من يُريد الهرب من شيء ما مهما كان خطيرًا.

– صدقت.. فحتى أنت أيضًا هاربٌ من خطب ما ولن أصدقك إن نفيت ذلك عنك لأنك تتكلم بلسان أكثر حكمة من أن يمتلكه شاب ثلاثيني.

– الحكمة لا تُكتسب عبر التقدم في السن فقط ولكن عبر انكسارات قلبك العميقة وحلول الآلام في مكامن روحك.. من يُريد أن يُصبح حكيمًا لن ينجح وإن ظل يتأمل عمره كله ولكن الحكمة لها مختارون تمامًا كالنبوة.

– وما هي تلك الإشارات التي تُميز المُختارين؟

– أولاً يجب أن تكون عاشقًا.. وثانيًا يجب أن تفهم أن هذا الكون لم يكن به شر ولا خير.. ولا طهر ولا قذارة ولكن كان رتقًا واحدًا يجمع جسدين خُلقا بكلمات إلهية فلا ندري من أي مادة صُنعا ولكن الأهم أنه بعد ذلك فتقهما

الرب لصبح لدينا الآن أرضًا وسماءً.. وجداول جارية وأنصال أعشاب طافية فوقها.. يجب أن تفقه كيف تُعبر عن البهجة وإلا تحولت إلى دموع حارة وندم والحكيم لا يبخل على العالم ببهجته.. إن الحكيم يسير على هذه الأرض بقدمين مختلفتين عما نملكه بل بجسد مغاير بالكامل لما نحن عليه وهذا ما يُمكنني إخبارك به وإن أردت المزيد فربما سأمتنع عن ذلك لا لغرض الإخفاء ولكن لمحدودية علمي بها لأنها أشياء يعجز المرء عن إبقائها نضرة في صدره وستُمحى من ذاكرته إن كان آثمًا وأظن أنني كذلك..

لقد كانت لكلماته قوة واضحة عندما كانت تنبعث من بين شفتيه ولهذا صمت (موسى) قليلاً متأملاً ما سمعه الآن وشعر أن قِدرًا ممتلئًا بالماء يغلي بداخله ولكن غليانه مختلف عن البقية فهو يفعله بهدوء ورضا.. لقد فاجأه ذلك لأنه لم يسمعه من قبل يحكي عما يطويه في أعماقه وما يجيش في مُخيلته من فرائض ورغبات ثم قال:

– أنت أعقد مما تخيلت ولك ذاتٌ سحيقة تكاد تجرفني داخلها دون إرادة مني أو مقاومة.

نظر (يوحنا) (لموسى) بدماثة واضحة وابتسم وأكملا غداءهما دون الخوض في أحاديث جانبية أخرى وبعد ذلك أزالا بقايا طعامهما وذهب كل منهما نحو عمله (فموسى) سيلحق (بإبراهيم) ليُعيدا طلاء جدران غرفة المُحرك فالطلاء القديم أُزيل أغلبه بسبب الحرارة والأبخرة المتصاعدة من المُحركات فعلى الرغم أنها مُحركات يعمل بعضها بالكهرباء والآخر بمشتقات النفط ولكن يبقى لها صهدًا متصاعدًا يُشبه أبخرة السفن العتيقة المُتحركة بقوة احتراق الفحم.. يبدو أن السُفن ستظل تمتلك تقاليدها الخاصة رغم تطورها ولكن

تبقى روائحها مميزة فهي جزء من البحر ولا يُمكن لها أن تحيد عن طابع خلقها الأول.. وعندما انتهيا من الطلاء الذي يبدو جيدًا ولكن تنقصه بعض الحرفية.. أما بالنسبة (لموسى) فهو لم يرَ ذلك ولقد كان نجاحًا عظيمًا أن يستطيع طلاء غرفة بهذا الحجم دون أخطاء واضحة وهذا ما جعل (إبراهيم) يُثني عليه ويمهد له الطريق ليكون شريكًا حقيقيًا له ونظرًا لإنهماكهما في العمل لم يدرِ أي منهما أن المسافة الزمنية بين الظهيرة وظُلمة المساء ذي القمر الغير مكتمل أصبحت أكثر خِفة وانقضت دون أن يشعُرا بها ولم يعلما بذلك إلا عندما مر القبطان مصادفة بجوار غرفة المُحركات ولفت انتباهه أنه مازال أحدهم يعمل فيها فدخل متفحصًا المكان ثم أثنى على ما قاما به وأخبرهما أن الليل قد جن لذا فقد طلب منهما ترك المُعدات جانبًا والذهاب للاغتسال وتناول الطعام وقد رحبا بذلك ويبدو أن الأساطير القائلة بأن البحر يمنح بعض السكينة للنفوس بها جزء لا بأس به من الصحة (فموسى) يعود له بريقه خلال فترات العمل قبل أن يبهت مرة أخرى حين يُفكر بمن تركها خلفه ليلاً دون وداع.. فلو كان لقلبه أن ينطق لرثاها دهرًا وإن كان يُمكنه الانتقال من مكان لأخر خارج صدره لسافر لها غوصًا ولألقى بنفسه كصريع على أرصفة الطرقات المؤدية لضاحيتها.. إن قلبه أكثر حُبًا لها منه وكأنه عاشق أخر يسكن بداخله وكأنه لا يكفيه أن يكون لها مُحب واحد بل اثنين أما على الساحل الغربي من المتوسط تقع هناك بعض التطورات التي يجب عرضها فإن ألقينا نظرة على حياة (أميرة) بعد سبعة أشهر من الانفصال قد يبدو لنا القدرة على ملاحظة بروز العديد من النتوءات في ذاتها فنحن الآن في بداية شهر يوليو/ تموز لنفس العام.. وإن أطلنا النظر سنجد أن الكثير من المعطيات قد

تغيرت فعلى مستوى البناء العاطفي لشخصيتها يُمكننا أن نقول بوضوح أنها أصبحت فاقدة التأثر بالمجال المحيط وأصبحت مرتابة بصورة أعمق عما كانت عليه سابقًا وربما وفاة جدتها آثرت بالسلب على مداركها العاطفية فجدتها كانت بمثابة خزانة أسرار وكوخ بسقف معروش آمن يقيها أمطار الشتاء ومن أكثر الأمور جلاءً أنها افتقدت بموتها أخر بقايا حسية (لموسى) مازالت عالقة بعالمها لأنها كانت متواجدة في دار جدتها حين اعترف لها بحبه لأول مرة وقَبِلته لأنها هي أيضًا شعرت أنه يُطابقها بعد الكثير من الأحاديث الجانبية العابرة في أيام سابقة وذلك رغم أنهما إلى تلك اللحظة لم يريا بعضهما ولم يتبادلا الحديث صوتيًا فيما بينهما وهذا ما زاد من الفضول والتوتر وغرابة الأمر وذكرى كهذه لا تُمحى من قلوب الفتيات حتى ولو تعاقب على يوم اللقاء الأول مائة شهر عربي.. ولكنها اتخذت قرارًا لن تُفكر في التراجع عنه على الأقل ليس في القريب المنظور.. وبدأت تُعيد ترتيب طموحاتها من البداية فالاقتران بمن أحبته لم يعُد خيارًا مُتاحًا ولذلك سعت بكل طاقتها لحجز مقعد في رحلات الابتعاث التي تُقدمها الجامعة للمتفوقين وأوائل الدُفعات وبما أنها أحد أمهر المتخصصين في مجال الخلايا السرطانية فلها فرصة عظيمة للالتحاق بجامعة تورنتو في كندا إحدى أعرق جامعات العالم وذلك ضمن الخطة الموضوعة داخل جداول الابتعاث للأقسام التخصصية لمرض السرطان وقد تكلمت كثيرًا مع (موسى) حول الأمر منذ أن كانت في السنة الثانية جامعيًا وقد رتبت لسفره هو أولاً لكندا حتى لا تشعر عند وصولها بالاغتراب.. إنها أحبته كابن لها أو ربما أكثر.. كانت تؤمن أن بقاءها إلى

جواره يُغنيها عن بقية الكماليات حتى وإن كانت لن تذوق معه طعامًا إلا خُبزًا وملحًا.. حتى أنها قالت له ذات مرة:

– اليوم حدث معي موقف طريف في الجامعة– أُفضل سماع ذلك على أن يكون طريفًا بما يكفي– أثناء وجود بعض الحالات التي تعافت من سرطان الدم لإلقاء بعض الكلمات حول معاناتهم مع المرض صادفني عجوز تخطى الستين عامًا بكثير كنت قد أخذت منه عينة من الدماء لتحليلها في المختبر عندما كان محجوزًا في المشفى قبل عام وكُنت أنا ضمن طواقم التدريب الخاصة بالجامعة.

– جيد.. وماذا بعد؟!

– عندما صعد للمنصة أشار إليَّ وقال هذه الفتاة بمُجرد سحبِها لعينة من دمي شعرت وكأنني شُفيت وسيكون ذو حظ وافر من يخضع للعلاج تحت إشرافها.. لقد سبب لي حرجًا شديدًا ولكنه كان لطيفًا في المجمل.

– أعتقد أني إن كنت حاضرًا ربما أخذت عينات أكبر من دمه لأغراض أخرى.. أنتِ شيءٌ يخصني وحدي وإن اضطررت لاحتواء جميع سرطانات العالم في جسدي لتُشرفي على علاجي أنا فقط دون غيري لفعلت.

– استعذ بالله وقل خيرًا أو اصمت.. لا أراني الله فيك سوءًا يا (موسى).. لا أراني الله فيك سوءًا.

ولأن الذكريات دائمًا قد تُسبب لنا بعض الإعاقة عن تحقيق ما قد نصبوا إليه أو ما يُخطط له غيرنا من الأقربين بالنيابة عنا لنحققه فها هي السيدة (أسمهان) والدة (أميرة) ذات الواحد والخمسين ربيعًا قد اقتربت من ابنتها في إحدى الصباحات عندما كانت تهم للذهاب لمتابعة حالات مرضاها في

المشفى العام المركزي لقسنطينة لتسحب يدها برفق وتُجلسها إلى جوارها على الأريكة ذات الفُرش القرمزية القابعة في الركن الأيمن لغرفة استقبال الضيوف لتقول لها بصوت صباحي رتيب مبحوح بعض الشيء:

– اسمعي ما سأقوله دون تعقيب.. أحدهم يُريد خِطبتُكِ ولا أجد فيه عيبًا فهو شاب ذو خُلق ومن عائلة كبرى وسيأتي مساء اليوم للتعرف عليك والشيء الذي أُؤكد لك عدم حدوثه أنه لن يهجُرك بالأشهر دون أن يُبدي اهتمامًا بمراسلتكِ حتى لمرة واحدة لرفع الحرج.

– أمي.. أعتقد أننا أغلقنا باب النقاش حول هذه القضية منذ مدة فلا داعٍ لفتح نقاشات حولها مُجددًا.

– إذن يجب عليكِ إخباري برأيك حول ما عرضته عليكِ الآن!!

– موافِقة.

قالتها (أميرة) تقريبًا دون وعي.. ربما لأنها لم تعد تهتم لما اعتبرته مؤخرًا مجرد شكليات مثل الحب المتبادل بين القرينين واكتفت باتباع قواعد الزواج الأكثر من تقليدي بعد أن كانت ستُقيم عُرسًا لقصة حب أكثر من ثورية فحتى هي لم تتوقع حدوث ذلك ولم تتوقع أبدًا أنها ستخوض يومًا هذه التجربة حتى أن الخاتم والكبش اللذان ارتضتهما مهرًا لها مع (موسى) كما أخبرته لم تعد مُلزمة بهما مع غيره وستتبع أقصى خطوات تصعيدية مُمكنة ليخرج عُرسها مُنسقًا بأبهى حُلة وأغلى ما يتوافر من زينة وأزياء.. رُبما لأنها خُذلت سابقًا من شخصٍ لم يُرد حقًا أن يخذُلها ولكن هكذا جرت الأمور دون سيطرة أو تفسير فلهذا قررت أن تنتقم لذاتها الكسيرة بكافة الطُرق المُتاحة ولكنها أغفلت شيئًا مُهمًا أنها أبدًا لن تستطيع أن تُخفي ما هو مُستقر في قلبها.. وعند سماع

والدتها لقبولها العرض دون امتعاض معتاد توّرد وجهها فرحًا وعانقتها برضا عميق ووداعة لم تكن خافية في نبرات صوتها عندما كانت تودعها على باب المنزل وأخذت تستعد لاستقبال الضيوف المرتقب وصولهم ليلاً بعد صلاة العشاء فسكبت دلوًا كبيرًا من الماء مخلوطًا بنقاط مُركزة من روح الياسمين والنرجس على الأرضية المزخرفة بخطوط أندلسية مُبهجة بلمعان فيروزي طاغٍ ومسحت الجدران بما تبقى في الدلو فانتشى المنزل بالكامل وكأنما بُعث للحياة من جديد وقضت معظم أوقات النهار في إعادة الهيكلة ثم أضاءت المصابيح وأعدت أنواعًا عِدة من الحلوى والأشربة وعندما عادت (أميرة) من المشفى استخرجت لها أثوابًا ذات ألوان زاهية لتختار منها ما يُناسب ذائقتها وتتخذ الوقت الكافي للتزين وإن كانت ليست من هواة اقتناء مساحيق التجميل فإشراقة وجهها تكفي لأن تُضيء أشد وديان نجد وعورة وظلمة وبحلول المساء استعد والدها لاستقبال الضيوف المتوقع حضورهم بعد دقائق حسب الموعد المتفق عليه سابقًا وفي تمام السابعة مساءً رن جرس الباب مُعلنًا وصول الخاطب رفقة لفيف من أسرته من ضمنهم والداه وشقيقتيه وبعد الترحيب وتبادل التحية بين الأسرتين بدأ التعارف بينهما عن قرب فوالد (أميرة) قام بسرد معلومات وجيزة عن كريمته من حيث العمل والدراسة وما شابه ذلك وبالمُقابل قام الخاطب بنفسه بالتعريف عن ذاته دون الحاجة لمساعدة والده فهو يُدعى (سُفيان) يبلغ من العمر ثمانية وعشرون عامًا يعمل مهندسًا معماريًا في إحدى أكبر شركات البناء في ولاية قسنطينة ويبدو على قدر من الوسامة وحُسن الخُلق أيضًا مما يجعله شابًا مثاليًا تتمناه أي أسرة كزوج لابنتهم ولكن الشيء المُلاحظ أنه لم يتكلم كثيرًا مع عروسه فقد اكتفى

بالنظر إليها وتأجيل كافة النقاشات جانبًا إلى حين.. وبالمجمل تمت الخطبة رسميًا حسب التقاليد والأعراف المعمول بها في مثل هذه المُناسبات والغريب أنها لم تشعر بأهمية الحدث ولكن تعاملت معه بانسيابية أقرب للا مبالاة.. وخلال ثلاثة أسابيع بعد حفل خطبتهما تبادلا المُكالمات الهاتفية على فترات متقطعة.. فلقد كان (سفيان) يراها فتاة أكثر من مثالية ولكنها كتومة جدًا ولا تُجيب عن أي سؤال يوجهه إليها مما يساعده على استشفاف حياتها قبل ارتباطهما التقليدي المبدئي.. إنه لا يجد سببًا مُقنعًا يجعله يُشكك فيما ترويه له ولكن في نفس الوقت هي لا تُجيب عن أسئلته!!.. فكيف لفتاة بمثل هذه المواصفات أن تصل لسن الخامسة والعشرين عامًا دون أن تلفت انتباه أحدهم؟؟ ففي البداية لم يكن السؤال مُلحًا ولكن شدة تكتمها وكلامها الرسمي جدًا والمقتضب معه جعله يُفكر أنها رُبما وافقت على ارتباطها به من باب الطاعة لوالديها أو لأي سبب هامشي أخر وخاصة بعد أن صارحته قبل أيام أنها تنتظر فرصة للسفر ضمن بعثة علمية إلى كندا وترجو منه أن يتفهم طموحاتها وإن كان حديثها لا يبدو أنه قيل بصيغة رجاء ولكن بصيغة إعلام بما سيحدث سواء قبل بذلك أو رفض ولهذا طلب منها أن يتقابلا في أحد المقاهي الراقية المجاورة للمشفى التي تعمل به كمخبرية وأخصائية تحاليل في قسم الأورام ولكنها فضلت أن تكون المقابلة في المطعم الخاص بالمشفى فهي لا تمتلك رفاهية هدر الوقت نظرًا لضغط العمل المضطرد على كاهلها وبالفعل تقابلا في اليوم التالي في المكان المُحدد أثناء فترة الاستراحة الخاصة بنوبات العمل الصباحية وكانت مرتدية معطفها الأبيض الممهور بشعار المشفى ولافتة ذهبية صغيرة بطول إصبع اليد كُتب عليها اسمُها وتخصصها وأضاف

لها الكثير من الثِقل بينما هو كان يرتدي بزة عمل رسمية لونها ذو درجة ما بين الرمادي والأسود مع قميص أبيض ورابطة عُنق نيلية وعندما جلسا على طاولة في الركن الأيسر للمطعم بجوار نافذة تُطل على حديقة المشفى طلبت من النادل أن يُحضر لهُما كوبين من عصير الليمون البارد متوسط التحلية وعقب مغادرة النادل بادرها قائلاً:

– أعلم أن هُنالك أمر ما بداخلكِ تُخفيه عني.

– أمر مثل ماذا؟؟

– لا أعلم بالتحديد ولكنه شيء تهرُبين منه كما يهرُب منك ظلك عند غروب الشمس.. شيء آلمكِ بشدة.

– في الحقيقة لا يوجد ما أعرضه عليك وإن شعرت بأعراض كتلك التي تصفها فأنا سأكون ممتنة إن سمحت لي بمناقشتها معك.

– أتُحبينه لهذه الدرجة التي تمنعكِ من إخباري بما حدث لك من ضرر بسببه؟؟

تفاجأت (أميرة) من سؤال (سفيان) لدرجة أنها لم تعد قادرة على إخفاء اضطراب صوتها حين أجابته قائلة:

– لا أفهم عن أي شيء تتكلم؟؟

– بلى تفهمين.. أنا بالفعل احترمت رغبتك سابقًا في الكتمان وأتفهم كون ما حدث معك قبل ارتباطي بكِ شيء لا يخُصني ومن المفترض أن أكون لست مُهتمًا بمعرفته ولكن الفضول يدفعُني للبحث وعدم إبدائك أي إشارات لإمكانية التجاوب معي لا تدُل إلا على أنكِ ما زلت متأثرة بتجربة حب ما عشتها لفترة تبدو لي طويلة ولكن أقل ما يُقال عنها أنها فاشلة وهذا يظهر

على ملامحك بوضوح هذه أمور لا يُمكنكِ إخفاؤها يا (أميرة) فأنا لست ضريرًا.

- هل انتهيت؟!!

- نعم.. ولكن حتى إن لم أحظَ منكِ بإجابة تُثبت ذلك أو تنفيه فأنا أعتقد أن عدم اكتراثكِ بي فجوته تتسع يوميًا وكأني جزء مُهمل من حياتكِ وُضِعَ فوق أحد الرفوف الجانبية لغُرفتكِ ولست شريكًا فأنا لستُ جُزءًا ولن أقبل بذلك.

- إذن قُل لي بماذا تقبل؟؟

- أنا لن أُجبرك على سرد أي شيء ولكن أعتقد أن هذا أحد حقوقي بما يفترضه ومن البديهي أن تُعرض أمامي جميع مخاوفك أو ندبات ذاكرتك كما كنت أطمح أنا لفعل ذلك ولكنكِ لم تُفسحي لي المجال لأعرض أي شيء لكِ عن حياتي السابقة ويبدو هذا مؤشرًا حقيقيًا لعدم اكتراثكِ كُليًا بي!!

- وإن أخبرتُك أنني قد أكون عاجزة عن تحقيق ذلك الأمر لك!! لا لشيء ولكن لأنني لا أمتلك المقدرة على البوح لأنني في كثير من الأحيان أُصبحُ عاجزة عن السرد فأنا لا أنتمي لذاك النوع من الفتيات القادرات على تفريغ ما بصدورهن من حكايا حبيسة.

عاد النادل للطاولة الجالسين عليها مرة أخرة وقدم لهما عصير الليمون البارد الذي طلبته (أميرة) قبل دقائق وأشارت له أن يذهب ناحية (سفيان) ليرى إن كان يحتاج شيئًا آخر فهز رأسه نافيًا ثم وضع كلتا يديه فوق الطاولة وأمال رأسه للأمام واقترب منها قائلاً:

– سأُخبِرُكِ شيئًا يُمكنه أن يجعلُكِ أكثر ترويًا في معالجة أمور كهذه.. لا يجب أن توصلي لشريكُكِ أنكِ لستِ مُهتمة لأمره حتى لا يُخيل له أنه على مشارف حياة شكلية فارغة لا تستحق أن يُحارب من أجلها.

– أنا لم أفعل هذا ولكن أنت من افترضته!!

– على أية حال ما كنت بحاجة للتأكد منه استخلصته دون المزيد من الأسئلة.. ولكن يجب أن تعرفي أنك رائعة أكثر مما تبدين عليه.. أستأذنُكِ بالانصراف وربما تكون لوالدتي زيارة أخرى لكم قريبًا.. كوني بخير.. وداعًا.

قام (سفيان) من على مِقعده بهدوء ولياقة تامة وأعاد تنسيق ملابسه ثم دفع حساب العصائر وخرج من باب المطعم دون أن يلتفت وراء ظهره ولو لمرة واحدة وهذا دفع (أميرة) للتفكير لدقائق بما قد يكون استقر في نفسه ناحيتها ولكنها أيضًا لم تُعر اهتمامًا لما قد يحدث فبعد مغادرته ظلت جالسة لبعض الوقت تُراقب حديقة المشفى باستغراق وتأمل وكأنها تنظر عبر نافذة قطار.. ومن ناحية أخرى يُمكننا أن نُجزم بتمتعه بحاسة استشفاف عظيمة فهو شعر بأن أحدهم مازال يسكنها ولو على استحياء ففضل أن يتخذ قرارًا يمنح من خلاله نفسه الراحة من حمل أثقال لم يتسبب في تراكمها فهو لا يستطيع العيش رفقتها ومازال شبح ما لشخص غامض يسلُبها نضارتها وهذا لا يحدث إلا إن كان بها مس من عشق.. فهو وإن كان صدقًا يُريدُها ويراها زوجة أكثر من مثالية ولكن إحدى أكثر اللحظات الفارقة في حياتنا هي التي تُخبرنا حقًا من نحن وقد مر بذلك أثناء حديثه معها ولذلك اتخذ قرارًا قد يجعلهما أكثر تقبلاً للواقع أو على الأقل يجعله هو كذلك.. أما هي ففي الغالب لن تتأثر كثيرًا فحتى عظائم الأمور أصبحت غير ذات وقع كبير بالنسبة لها.. لقد

استنزفها (موسى) عاطفيًا وعندما اعتقدت أنه لم يُعرها اهتمامًا لأشهر صدرت ذلك الشعور ظاهريًا للجميع بما فيهم (موسى) نفسه ولكن ما تُخفيه يظل أكثر اختلافًا مما هي عليه ولهذا فهي تقوم بكبته حتى لا يُصيبُها ذلك الضعف مُجددًا والقرينة الدالة على صحة ما تُخفيه ناحيته أنها قد تكون حذفت كل شيء خاص به من أرشيف هاتفها أو حاسوبها أو حتى قلبُها مع أن ذلك يظل صعبًا.. إلا أنها مازالت محتفظة بصورة قديمة له قد أرسلها لخوادم بريدها الرقمية عندما طلبت منه ذكرى لا تشيخ حتى وإن تقدما في السن ولا يوجد أفضل من الصور للقيام بهذا فصورته التي تمتلكها تعود لليوم الأول له في مدرسته عندما كان طفلاً في السادسة ويبدو لها أنه كان أكثر براءة مما اعتقدت ولذلك لم تُقدم على حذفها كمثيلاتها من الصور الخاصة به لسبب ما فجميع الصور الأخرى تبدو عادية ولكن هذه الصورة بالتحديد فلا!! وقد يكون ذلك راجعًا لأنه حين أرسلها أخبرها أنه غارقٌ في حُبها بالكُلية ويبدو أنها اتخذت منها قالبًا أوليًا لطفلها الذي سيغرق في حُبها بالكامل كأبيه ليُطابقه روحًا في اعتياده مغازلتها كل صباح وجسدًا عندما يرث عينيه.. إنها ببساطة أرادت قطعة خاصة بها منه رُبما أكثر مما كان يُريد هو وإن كانا يتساويان في الشغف ذاته رغم اختلافهما المستمر حول تسميته فهي كانت تُريد أن تُسميه (براء) بينما هو كان يُريد أن يُسميه (عليًا) وأما إن كان المولود الأول لهُما فتاة فهو قرر تسميتها (أميرة) أي بنفس اسم والدتها حتى وإن لم تقبل ذلك.

فما المانع أن يكون له نسختان لمحبوبة واحدة!! لقد أرادت منه شيئًا واحدًا فقط أن يشيخا متجاورين ويستمعا لصخب القاهرة من أعلى شُرفة خشبية يقفا

وراءها كعجوزين مكتوفي الأيدي ينظران نحو أضواء السيارات التي تحمل معها روائح الوطن والشباب ورسائل المغتربين المشتاقة لمنازل عتيقة تسكُنها شقائق قلوبهم.. ولذلك فإن حُبهما عندما اجتاز المسافات وتجذر بهذا العُمق فهو قطعًا يستحق أن ندعوه بالحدث الفريد فبرغم كل العوائق نما وأزهر وسيظل ينمو بغض النظر إن قبلا بذلك أو رفضا.. إنه شيء أقرب للمستحيل ويحدث لمرة واحدة على رأس كل عشرة أجيال بالضبط كرصاصة تُقذف باتجاه صدر جُندي كالهزيم ولكنه يتمكن من تفاديها بما يُشبه المُعجزة لتستقر أعلى كتفه دون أن تقتله ولو صُوبت نحوه نفس الرصاصة عشرة آلاف مرة بعد ذلك لما استطاع النجاة ولو لمرة واحدة ولكنه ببساطة فعلها عندما احتاج الأمر أن يفعلها.. وبعد عودة (سفيان) لمنزله تكلم مع والدته حول مصير علاقته (بأميرة) وصرح بأنه غير مُستعد لاستكمال الأمر رغم إدراكه بأن المُدة التي قضاها مرتبطًا بها قصيرة ولا يُمكنها إيضاح خفايا شخصيتها بشكل كامل ولكنه تيقن أن ما بداخلها من الصعب أن يتبدل لأنه ليس مرتبطًا بزمن ولكن مرتبطًا بشخص ولهذا أنهى الحديث مع والدته بصورة قطعية حول هذه القضية مما اضطرها أن تزور والدة (أميرة) مساءً لتُطلعها على قراره ولتُقدم لها اعتذارًا عما تراه خطأ ارتكبه ابنها ولأن السيدة (أسمهان) تتفهم شخصية ابنتها جيدًا فقد كانت تتوقع حدوث هذا الأمر ولكن ليس بعد ثلاثة أسابيع فقط!! إن هذه المدة بالتأكيد أسرع مما قدرت.. ولكن في النهاية تم فسخ الخطبة وفك الارتباط دون أن تُناقش ذلك مع ابنتها أو حتى تُحاول أن تجد تفسيرًا مناسبًا منها وبالنسبة (لأميرة) هذا خبر جيد فهي في الأغلب لا يروق لها الأمر برمته.. فرغم كل شيء يبقى الإنسان أسيرًا لماضيه ولا سيّما إن كان هذا

الماضي هو حبه الأول وبالتأكيد لن يتحرر منه إلا إذا اشتبك بمعركة أعنف من تلك التي خاضها سابقًا أي تجربة أقسى ذات مشاعر أكثر صفاءً عند اللقاء ودموع أكثر حرارة عن الاشتياق ولكن هذا قطعًا ليس مُتاحًا للغالبية.. إن الحب يبقى مادامت الروح متصلة بالجسد ولا مفر منه إلا بمواجهته فإما أن يقتُلنا أو يكتفي بزيارتنا بداية كل شتاء جالبًا معه حقائبه وقهوته ومدفأته وهذا أقصى ما قد نحصل عليه من غنائم إن انتصرنا في معركتنا معه.. إنه شيء لا يجدر بنا الهرب منه بل يجب أن نمارسه كطقس لنكتسب سكينة القدماء الذين فضلوا الانصياع على المواجهة ليبلغوا سدرة الخلاص فلطالما حلم العُشاق ونُساك الصوامع على حد سواء بأن تصبح الأرض صورة من السماء فأدركوا أن السماء لا شر فيها ولا غُبن بل هي مكان يسكنه المُمجدون والملائكة حملة عرش الرب فكان عليهم أن يصلوا إلى درجة من الحُب والتسامي يُمكن معها أن تُصبح الأرض سماءً.. فوضعوا قواعدًا لذلك لتجنب الخيبات والرذائل فكما أن قناني الخمر المُحرمة يُعصر محتواها من أكثر أعواد الشعير طهارة فالرذائل أيضًا كذلك تُستنسخ من أرحام أكثر الخيبات نُبلاً.. فكانت البصيرة المُستقاة من قلوبٍ طوافة في ملكوت رحب هي فقط التي بإمكانها تحقيق تلك المعادلة فكانت لهم بمثابة المعيار الذي يحكم التناغم بين الإنسان وربه وبين الإنسان ومن يُحب.. لقد جعلوا للعشق ركائز ثلاثة هي الصبر والقُدسية والاستقامة وإذا اختلت ركيزة واحدة منهن اختل الميزان وأصبح العزف نشازًا وإذا اختلت الركائز الثلاثة معًا أصبح الأمر كارثيًا.. فلن تُحيط بالعارفين هالات من نور كالمعتاد ولن يجد الزهاد راحتهم في التسبيح وبسقوطها تحكم النفوس ثلاث ركائز بديلة هي الظلام والفوضى

والشهوة.. ولذلك شرع الرب وصايا لحماية قلوب عباده حافظًا بذلك ركائزها الثلاث مانحًا السلام للباحثين عن ذاتهم في ذاته المستدلين عليه بشغف العاشقين أولئك الموصولين به بالحب قبل العقل.. فالمُحبون هم في الحقيقة أكثر من مجرد عطايا إلهية نحتفي بها بل هم الصوت المتجسد لآدم الأول الذي أحب فأطاع فعاد للفردوس حيث كان في البدء.. إن حضورهم ترسيخ لحضور قوى عُليا خفية يُرسلها الرب مع الريح لمن أراد بهم خيرًا.. إنهم الذين يمنحون ذواتنا الفضيلة والحياة والتبصر.. إنهم أسمى بكثير مما نعتقد فبينما طغت رذائل الإنسان على طبيعته الكونية الصافية وفقد التوافق بينه وبين ذاته فتحول الخير شرًا وصار الحق ضلالاً والعدل ظلمًا والحضارة اضمحلالاً كانوا هُم يُمسكون بكفتي الميزان ليجعلوا الحياة ممكنة قدر المستطاع وإن لم يفعلوا لجرف الأرض ما هو أسوأ من فيضان مُحيط غاضب لأننا نحيا تحت قانون ينص على أن كل نقيض ينتقم من نقيضه متى سنحت له الفرصة ولهذا لا يوجد من هو أكثر جهلاً مِمن لا يعتقد بقوة الحب فلولاه لكانت آدميتنا تُغتصب على قارعة كل طريق.. وبالعودة للسفينة التي رست أخيرًا في ميناء الإسكندرية بعد انقضاء ستة أشهر كاملة قاطعة خلالها البحر المتوسط طولاً وعرضًا بين سواحل لُبنان في الشمال وسواحل مصر جنوبًا فنحن الآن في أواسط شهر نوفمبر/ تشرين الثاني أي أن عقود جميع أفراد الطاقم انتهت في انتظار التجديدات والإعلان عن خط السير الجديد خلال أشهر الشتاء فقد أظهر الجميع قوة تحمل وصلابة خلال رحلات الإبحار المتصلة واجهوا خلالها أمطار وعواصف وتعرضوا للدوار عدة مرات ولكن تلك العقبات هي ما تجعلهم أكثر صلفًا في مواجهة المتوسط فيما بعد وهذا بالإضافة لبلوغ

(موسى) درجة عالية من المهارة التقنية كبحار حتى أنه في أخر شهر من الرحلات وضعه القبطان على رأس مجموعة من البحارة ليشرح لهم كيفية التأقلم مع حياة البحر بشكل سلس وهذا رفع مكانة (إبراهيم) لدى إدارة الشركة المالكة للسفينة كثيرًا وقرروا نقله من العمل كبحار للعمل كمندوب توظيف مُفوض بصلاحيات كاملة وغير محدودة من مجلس الإدارة ليبحث عن أفضل العناصر لضمها لطواقم السفن التابعة للشركة فبغض النظر عن أنه يعرف (موسى) جيدًا بحكم الصداقة إلا أن نظرته لقدرات وإمكانات الأشخاص لا تخيب في الغالب ولولا ذلك لما جلب صديقه على متن السفينة ليعمل كبحار دون أي تدريب سابق وبعد مغادرته للسفينة سيترك الأمر برمته (لموسى) ليُصبح هو النائب الأول للقبطان ولما لا بعد قليل من الخبرة يُصبح هو القبطان وذلك لأن قدراته فاقت التوقعات حتى أنه استطاع في مرات عديدة تحديد اتجاه الريح ليوم كامل عندما حدثت بعض الأعطال في أجهزة الاستشعار والرصد الخاصة بالسفينة كما أنه كرر التخمين بشكل صحيح احتمالية هياج الموج ليلاً دون دراسة سابقة وهذا ما يُسمى بفطرة البحر وكأنه ولد ليقود أرمادا خاصة به وليس مجرد سفينة تجارية.. ومع العد التنازلي لأجازة الطاقم وإخلاء السفينة حيث تبقى ثلاثة أيام فقط على ذلك قرر (موسى) البقاء على متنها وسيسعى للحصول على موافقة خطية من القبطان للتعرف على أفراد الطاقم الجديد لا سيما أن (يوحنا) لن يعود للُبنان وسيبقى على متنها أيضًا وهذا ما يزيد تساؤلاته حول تلك الشخصية فرغم نجاح تجربته الأولى في ترويض ذلك الحقل الأزرق الكبير إلا أنه كان مازال مشدوهًا (بيوحنا) ذاك الشاب قليل الكلام عميق الحكمة الذي يتكلم بلسان

المستنيرين وكأنه واحد منهم ولذلك أراد معرفة ما يُخبئه خلف تلك الهالة من الصمت فدعاه للجلوس على المقهى المتواجد شرق رصيف الميناء المطل مباشرة على البحر دون سفن راسية تحجب الرؤية فوافقه بعد إلحاح ومن ثم هبطا سويًا نحو رصيف الميناء وقطعا المسافة بين أسطوانة الحبال أسفل السفينة وبين المقهى دون أن يتكلما ولكن يُراقبا المارة من البحارة الصاعدين على سفنهم والهابطين منها وعند وصولهم جلسا على طاولة مستديرة متوسطة الحجم مصنوعة من خشب الأرز وهذا ما قاله (يوحنا) (لموسى) عقب جلوسهما فهو على دراية كاملة بتلك النوعية من الأخشاب ولكن (موسى) سأله قائلاً:

– لماذا قررت البقاء وعدم العودة إلى لُبنان خلال الأجازة الممنوحة من القبطان للطاقم؟

– لنفس السبب الذي يجعلك تفضل البقاء أيضًا.

وهُنا ظهرت ملامح الدهشة جلية على جبين موسى واتسعت حدقتا عينيه قليلاً ودون تفكير أردف متعجبًا:

– وكيف علمت بما أنوي فعله؟؟

تراجع (يوحنا) للوراء ونظر لأعلى ثم قال:

– هل تظنني لا أعلم ما تُخفيه وراء صمتك؟؟.. السقيم يا صديقي لا يُخطئ شبيهه.

– تكلم بإيضاح أكبر كي أستوعب ما تقول.

– أنت مُجرد روح هاربة قصدت البحر للاختباء حيث لا أحد يُمكنه طرح الأسئلة عليك ولكنك أغفلت شيئًا مُهمًا ألا وهو أن سُكان البحر كلهم

مُطاردون مثلك وهُنا تُطرح الأسئلة عبر حركات الأحداق ورعشات الأيادي وسيلان العرق البارد على الجباه.. ما زلت صغيرًا وستتعلم كل شيء في وقته.

– أعلم أنك أنت أيضًا هارب ولكنك لم تُفصح لي أبدًا عن هوية من تُطاردك وما هو سبب هربك منها؟

– وهل أفصحت أنت؟؟

– إذن لنعقد صفقة.. سأُخبرك دون تفاصيل أو هويات وأنت كذلك ستفعل ولكن لتُمسك أنت بزمام المُبادرة أولاً.

– رغم أنني لست من هواة السرد ولكن من أين تُريدُني أن أبدأ؟؟

– من تلك اللحظة التي قررت فيها الهرب.

– قبل عشر سنوات كُنتُ راهبًا مبتدئًا لم تمضِ سوى شهور قليلة على رهبنتي ورسمي شماسًا كاثوليكيًا في دير حجري صغير فوق تلة بضيعة ساحلية هادئة أو لتقل عاشقًا مُتخفيًا في زي الرهبان ليُصبح خارج دائرة الاهتمام والتفضيل ويكتفي بأن يُنظر إليه بجلال ومهابة ولكن لم أفهم كيف وصلت إلى اتخاذ قرار الرهبنة؟؟ فكل ما أتذكره من حياتي السابقة هو أنني أحببت تلك الفتاة حد الحُمق وعندما اقتربت منها وكُنت على بُعد أيام من وضع إكليل من الزهور فوق رأسها بمباركة الكهنة لتُنصب كزوجة لي اجتاحتها حُمى جعلت رأسها يغلي وأصبح أنفُها ينزف دمًا أكثر من جداول خمس قُرى مجتمعة ففيها الموت بين لحظة من الشك والاستفاقة ولك أن تُصدق أو لا بأنني لم أذرف دمعة واحدة عليها بل تخشبت وكأنني باب عتيق لأزيزه صوت كصراخ القبور حين تُفتح.. ولا أدري كيف للعنة مُشابهة أن تُخطئ بإصابتها لتتركني أنا حي!!

– اللعنات لا تضل طريقها أبدًا ولكن من السذاجة أن تعتقد أنها تركتك لتحيا بل تركتك لتموت.

– الأمر بالنسبة لي لم يعُد ذا قيمة فبقائي من عدمه ليس شيئًا يستحق أن يُطرح للنقاش.. ولكن عندما سمعت أبواق السُفن الآتية من المرافئ المُلتحفة بأجساد البحارة الغارقين قُرب سواحل الضيعة خرجت من صومعتي راكضًا وكأن البحر أنجبني في حياة سابقة وصرخ الآن ليستعيدُني فلبيت دون التفكير بأبعاد المكان أو حركات عقارب الساعة وعندما وصلت للميناء صعدت على متن أول باخرة وجدتها والغريب أن أحدًا لم يطلب مني أوراقًا ثبوتية وحينها علمت أن صومعتي الحقيقية هُنا وليست داخل نطاق أسوار الدير.. أما الآن فبالمُجمل أعتقد أنه يجب أن أقف عند هذا الحد.. لقد أخبرتك بما يكفي من تفاصيل.

– هُناك سؤال بدا لي في نهاية حديثك أعتقد أنه من المُهم أن تُجيب عليه لسان راهب لا بحار.

– اطرح ما تشاء من أسئلة فالإجابات تولد معها.

– ألا تعتقد أنك بسعيك هذا نحو البحر ابتعدت خطوة عن الرب؟؟ ربما كان يُريد منك أن تظل مُرنمًا لأسفاره فوق تلك التلة.

– وربما لا!!

– ولكن أنا أعلم أن الرهبان لا يتنصلون من ثيابهم السوداء ولا من أربطة خاصراتهم المصنوعة من ليف النخيل ولكن أنت حطمت صورتي النمطية.

– الرب لم يطلب أبدًا من آدم ترديد الترانيم خلف الملائكة وإلا فكان من الأولى أن يخلقه ملاكًا من الأصل ولكنه أراد أن يخلقه بشرًا ويهبه عقلاً حرًا مُتشككًا لأن الشك يُبقي الإيمان حيًا يقظًا وهذا ما فعلته تصرفت كبشر!

عندما أنهى (يوحنا) كلامه شعر (موسى) أنه غير قادر على الرؤية بشكل واضح وكأن هناك غيوم ضبابية تسد مجال الإبصار أمامه كما أن الصداع المعتاد أخذ يغزو رأسه وكأنه جيش من المرتزقة وهُنا أرخى رأسه للأسفل ووضعها بين راحتيه وبدأ العد تنازليًا من المائة فهو يعلم أن آلامه ستزول عندما يصل إلى الرقم واحد.. ذلك الرقم الحافظ لأسرار الكون المُستنسخ من عظمة الخالق المستقرة بصدور النُساك.. وعلى الفور لاحظ (يوحنا) ما أصاب صديقه فحمله وعاد به نحو السفينة فهو يمتلك في غرفته بعض المساحيق العُشبية ذات القدرة العلاجية التي قد تساعد في تحسين حالته وبما أن السفينة تُسرح طاقمها فلم يبقَ على متنها سوى ثلاثة فقط (يوحنا) و(موسى) والقبطان (عزيز الشاذلي) وكل ما دون ذلك من البحارة انسلوا خارجها حاملين تصاريح بأجازات بحد أقصى عشرون يومًا ثم سيعودون لمتابعة العمل أو لتوزيعهم على سفن أخرى ولذلك ظل (يوحنا) جالسًا بجوار العاشق الذى غُيب عن الوعي فجأة وأخذ يتأوه بعد أن سقاه خليط الأعشاب الممزوج بالعسل (فيوحنا) في الأصل خريج كلية الصيدلة ويمتلك خبرة كبيرة في تركيب الأدوية وكانت هناك رؤية تشخيصية مبدئية لما وقع (لموسى) ولكن تكتم عليها لعدم تأكده من ظنونه واكتفى بمراقبته حتى يفيق فهو يعلم أن ذلك لن يطول وبالفعل بعد أقل من ساعتين أفاق (موسى) من إغماءته وبدا بوجه شاحب وشفاه تشققت عطشًا رافق ذلك التفاته المتكرر يمينًا ويسارًا

وكأنه بُعث من لحده باحثًا عن بئر ليغتسل فيها.. لا أحد يدري عما رآه أثناء غفوته تلك ولكن المثير أنه كان يتأوه بشدة ويتمتم بكلمات غير ذات معنى وأحيانًا يقول:

– وأنا أيضًا أُحبُكِ!!

وكأنه يتحدث مع شخص ما ولكن ما يلبث أن يتغلب عليه وجعه فيصرخ ويتلوى كأفعى تحترق تحت شمس الصحراء في يوم شديد الحر.. ثم يعود له هدوءه فيقول بصوت متحشرج عدة جمل متقطعة ليس بينها ترابط:

– لم أخذِلُكِ أبدًا ولكنني تصرفت كأحمق.. أُريد أن أسكن معكِ في الجنة.. ما زلت أحمل الزهرة الحمراء!!

وبالطبع استمع (يوحنا) لكل ما قيل.. استمع لكافة التفاصيل الصغيرة التي تكلم عنها (موسى) أثناء غيابه المؤقت عن الوعي فكانت هذه الكلمات كافية ليفهم كم كان هذا الفتى مُحبًا وكم كان متعلقًا حقًا بمن أحب قلبًا وقالبًا.. إنه خُلاصة السُقم الذائب في الدم ولا تظهر آثاره إلا عندما تغادر الروح الجسد لبعض الوقت ثم تعود مرة أخرى فيحدث الهذيان الذي يتمكن من خلاله العشق أن يتكلم بلسان صاحب الجسد المُمدد كما حدث هُنا قبل لحظات وهذا ما دفعه لعدم استكمال حوارهما فهو لم يعد بحاجة لمعرفة المزيد عن قلب هذا المفتون صريع الهوى والحُمى.. وعندما استعاد (موسى) كامل وعيه طلب قنينة كبيرة من الماء البارد وعندما أُحضرت له شربها كلها دفعة واحدة وكأنما جسده تحول لأرض جدباء تبتلع الماء بنهم لعلها تكتسي بالخضار ثم ظل صامتًا لفترة توازي إغماءته دون أن يُبادر (يوحنا) بأي حديث معه ولكنه ظل جالسًا على كُرسيه بجوار باب القُمرة يُراقب ما يجري في صمت وبين

الحين والآخر يبتسم حاكًا خده الأيسر بسبابته كناية عن بلوغ مُنتهى التبصر في توصيف تلك الحالة التي أمامه ثم بعد قليل وبدون إظهار أي استعداد مسبق للنقاش طرح (موسى) سؤالاً عليه قائلاً:

– ألا تُريد أن تعرف قصتي؟ أعتقد أنه دوري؟

فرد عليه بنبرة يُفهم منها أنه ربما أصبح غير مهتم بهذا الأمر فقال:

– أعتقد أنه لا يجب عليك سرد أي تفاصيل تؤذي روحك.. فأنت حقًا غارق حتى أذنيك فيها وتبدو لي تلك الفتاة أنها كمحيط متلاطم.

لم يستغرب (موسى) أو يُبدي أيًا من علامات الاندهاش في ردة فعله فهو غير أنه يعرف قوة فراسة (يوحنا) إلا أنه أزاح الوسائد من جانبه ووضعها خلف ظهره بهدوء ثم اعتدل في جلسته وقال:

– أعلم أني تحدثت بينما كُنت نائمًا فهذه ليست المرة الأولى بل إنني اعتدت وقوع أمور مماثلة وأظن أن ما قلته كان كافيًا لتعرف ما حل بي.. أليس كذلك؟

– في الواقع لم أكن أُخطط لسماع ذلك ولكن الحُمى أو تقلصات دماغك أيًا كان توصيفها أو مُسماها كانت أشد وطأة من أن تُخفي عنها ما تحتجزه داخل صدرك.

– لن أسألك عما سمعت ولكن الأهم كيف تراني بعد ما قلته؟.. ما هو تصنيفي؟

– أنت عاشق.

بعد أن قال (يوحنا) تلك الجملة انفجر (موسى) ضحكًا وكأنه في حضرة مهرج فهو لم يعتقد أنه سيسمع ردًا منه بهذه البديهية والبساطة.. فهو يعلم أنه عاشق وهل هذا يحتاج دليلًا؟.. ولكن اللُبناني قاطعه ليستكمل حديثه فمازال لديه ما يُدلي به:

– عندما يوُصف رجُل ما بالعاشق فهذا ليس بالأمر البسيط ولكنه ربح عظيم وخسارة فادحة في الوقت ذاته.

– وكيف يُمكنُني الربح إذن؟

– يجب أن تعلم أن اعتراض طريق دوامات الطواحين ومحاولة تغيير مسار تياراتها ليس دليلاً على الشجاعة بل على البلاهة وكذلك الأمر في العشق فمكاسبك تُثمر عندما تُطيعه وتمنحه مفاتيح غرف قلبك ليحولك لما يشاء.. زوج مُحب وهذا أقصى ما يتمناه عُشاق الروح والجسد أو قتيل هوى لترى كل شيء بعينيها وتتلبسك روحها لتُصرع لأيام لكن دون أدنى شكاية بل ستتحسس في إغماءتك ما كان وما قد يكون ستصبح وليًا عارفًا والأهم أنك ستكون رابحًا في جميع الأحوال.

– وما هي الخسارة؟

– ليس من الجيد فتح تلك البوابة.. أيُمكنك المبيت في مقبرة؟.. إن كنت تستطيع فلا بأس أن تخسر.. أسمعت عن مجانين سمرقند الذين كانوا يومًا ما أسيادًا في أوطانهم ولكن لسوء حظهم خسروا في لُعبة الحُب ذات القرص الزهري الدوار.. لقد رهنوا حياتهم ثمنًا لمرافقة معشوقاتهم ولكن مؤشر القرص أشار بخسارتهم فتخلوا عن معاطفهم المصنوعة من فرو الوشق وخلعوا عن

رءُوسهم تلك العمامات الزرقاء ورقصوا عرايا في ساحات المُدن.. سيظلوا هكذا إلى أن يُنفخ في السور أو تُدركهم عناية الرب.

– وكيف أنجو؟

– كن طوفانًا تنجو.

– لم أفهم؟

– الطوفان يا (موسى) ليس دائمًا كما تظن فهو لا يخرج من قلب البِحار ليُغرق أراضي واسعة ويقتل ساكنيها دون ذنب اقترفوه بل هو تطهير لهم وثمن لآثام كامنة في ذواتهم وضمائرهم أكثر من كونه عقابًا.. كن طوفان نفسك.. طهر ذاتك وابحث عن الأرض الجديدة التي ستظهر بعد أن يسكن البحر.

– أتقصد أن أنسى ما ذقته من عشق معها؟

– بل تبحث عن المزيد منه بجهد أكبر.

– لا أعلم كيف يُمكن أن يكون كلامك متسقًا.. فكيف لطوفان يُطهر القلب أن يسكب المزيد من الإثم فيه؟

– عندما تستيقظ صباحًا دونما أن تشتاق إليها ففي تلك اللحظة ستفقد طهارتك.. لأنه ليس طاهرًا من يخلو قلبه من العشق.. إنما الطوفان يُزيل اليأس والرجاء الذابل وكل موات حل بك.. فطالما مازالت تتنفس ابحث عنها حتى وإن رفضتك مُجددًا فهذا سيجعل منك عاشقًا أفضل ومتطهرًا أجل.

– لا يُمكنني البحث عنها.. صدقًا لا أستطيع.

– إذن أنت تخاف الأشباح لأنك تمتلك واحدًا يُجعل فرائصك ترتعد وأسنانك تصطك.

– أي شبح تقصد؟

– شبح ذكراها الذي يقض مضاجعك حتى وأنت فاقد للوعي لذلك اسمع.. أنا أفهم طباعك جيدًا لأنك بالضبط تفعل ما فعلته قبل عشر سنوات وسيكون مصيرُكَ إما المنفى مثلي أو ستُعاقب كرجال سمرقند.. أنت تحاول أن تجهد نفسك بالعمل وبتفاهات أخرى حتى لا تستطيع التقاط أنفاسك وأنت تظن أنك بذلك تربح الوقت وتصم أذنيك عن صوت عقارب الساعة؟

– ليس هنالك ترياقًا لذلك بحثت ولم أجد.. أو بالأحرى لا أعلم له سبيلاً!

– بل تعلم.. ولكن سأوضح لك أمرًا هامًا.. الناس يجهدون أنفسهم هكذا بلا عذر واضح لسببين: إما لأنهم نصف آلات بلهاء تسعى فقط لجني المال أو لأنهم يحاولون النسيان.. وأنا أرى أنك تحاول الهرب والنسيان معًا ولكنك تفشل وستظل تفشل دائمًا.

– الفشل في الهرب أفضل من البقاء مع من لا يُريدُك.. هذا يبدو منطقيًا كفاية بالنسبة لي.

– وهل تعتقد أن حياتك ستكون أفضل بدونها؟.. إن أجبت بنعم فأنت لا شك كاذب.

– ربما تكون كذلك وسأشكر ذاكرتي كثيرًا إن استطاعت حذفها من أرشيفي.

– أنت جبان بالكامل.. قم ابحث عنها واستمع إليها.. أخبرها قصصًا لا تعرفها عنك.. اثبت لها أنك تستحقها وإن فشلت فأنت ليس لديك ما تخسره.

– أنا لست شماسًا صغيرًا ولا خادمًا في كنيسة لكي تمارس عليّ سُلطتك ككاهن.. لقد حاولت آلاف المرات وأرسلت عددًا لا نهائيًا من الاعتذارات ولكن لا فائدة.. فحقًا كنت أشعر وكأني أتكلم مع جدار.

– حاول حتى الموت طالما هي حبك الأول ولا محالة الأخير.. أظهر علامات الندم واطلب فرصة أخرى.

– وما فائدة كل ذلك؟

– على أحدهم أن يسترجع حبًا ضائعًا استنزفه كشاة تُسلخ.

– وكأنك تدعوني للكتابة على الماء!

– إن أخفقت ستجد طريقًا أُخرى للربح.. ربما ستقع في حب أعظم وربُما ستسلك دربًا وعرًا كمستنير يحمل قدحًا فارغًا ليُبادل حكمته بالطعام.. ولكن المؤكد أنك حينما تعود للبحث عنها ستُقدم عُذرًا كافيًا للرب يوم الدينونة لأنه لا شيء سيحميك من عقاب الخذلان إلا أن تطلب الصفح ممن خذلته وإن أبى فالملائكة ستصلي مستغفرة لك تحت العرش.

– أتعلم أنني أقرب من إتمام عام كامل دون أن أعرف عنها شيئًا وأظن أني تعودت قليلاً بصورة مقبولة على غيابها لذا....

قاطعه (يوحنا) قائلاً:

– لذا فأنت تخشى إن حادثتها مرة أخرى أن تتهشم كلوحٍ زُجاجيٍ قُذف بحجر.. صحيح!

– نعم صدقت.. ولكن لابد أن تعلم أنها ليست أنثى مُجسدة في حياتي يُمكنني رؤية ظلها عندما تُغادر الشاطئ حيث نلتقي كما قد يُخيل لك بل يفصلني عنها بحر وصحراء وهياكل عظمية مدفونة في الرمال ولهذا فكرت كثيرًا أن أتخطاها فكيف لي أن أعشق من لم أرها أمامي وجهًا لوجه من قبل؟

– يا لك من بائس!.. وهل يُشترط أن تتواجد معك بقالب جسدها حتى تُقنع نفسك بحقيقة وجودها؟.. إن الأنثى المُحبة لا يُمكن لها أن تُكرر في حياتك

مرتين حتى وإن كانت تُحدثك من القمر.. ذلك لأن الرب خلق حواء واحدة لآدم واحد وأما ما يلي ذلك من تجارب فهو مجرد عبث.

– أخشى أن أفقدها ثانيةً.. أشعر أنها أصبحت أفضل بدوني وأرى ذلك في أحلامي عندما أذهب لمراقبتها هُناك من بعيد.. لقد أهملتها كثيرًا وكنت أظن أنه ما دمت أنا سعيد ستكون هي كذلك ولكن الحقيقة كانت مُغايرة لما تصورته فأنا لم أستمع لها بما يكفي وإن كان هُناك سببًا لرحيلها فهو أنا.

– وماذا سيتغير بعد أن تجلد ذاتك؟.. قلت لك قبل دقائق كن طوفانًا.. فقط افعل ولا تخشَ شيئًا.

– سأفكر بالأمر.

– لا بل ستنتظر هُنا ريثما أُحضر حقيبتك وبها جميع ملابسك ثم بعد ذلك ستصعد لقُمرة القبطان في الأعلى لتستلم راتبك عن ستة أشهر من العمل ثم ستتوجه لمنزلك لتُحارب من أجلها في صباح الغد ولا تعد هُنا حتى وإن هُزمت.. لا تعد هُنا إلا إذا فُرغ قلبك من أي حب.

وبعد مرور دقائق جلب (يوحنا) الحقيبة من غرفة مجاورة وسلمها (لموسى) وصعد معه لقمرة القيادة ليُحرر القبطان له شيكًا بنكيًا بقيمة عشرين ألف جُنيه مصري فقط لا غير مستحقة الدفع كما نص العقد المبرم بين الطرفين ثم استلم (موسى) الشيك وودع القبطان (عزيز) بعد أن نال ثناءً وافرًا منه وعبر له عن أمله بأن يوقع عقدًا جديدًا إن أراد العمل هنا مرة أخرى كما نال (يوحنا) نفس القدر من الثناء ولكن الفرق الوحيد أن أحدهم سيغادر أما الآخر فسيبقى.. وبعد عناق حار بينهما ودع كل منهما الآخر وكأنه وداع لا لقاء بعده وعندما وصل (موسى) لرصيف الميناء ظل يلوح (ليوحنا) حتى كلت ذراعه ثم

حمل حقيبته وقرر التوجه لأقرب فرع للبنك الذي تتعامل معه الشركة المالكة للسفينة لصرف المبلغ فاستقل سيارة أجرة وخلال ذلك قام بالاتصال بوالده ليخبره بأنه قادم للمنزل بعد انتهاء مدة العمل المنصوص عليها فأجابه والده بأنه سيستعد من الآن لاستقباله وألا يُحضر معه شيئًا بل سيتكفل هو بجميع المستلزمات وبعد إنهاء المحادثة وصل للمقر المُراد وبعد تقديمه للشيك وإنهاء كافة الإجراءات القانونية من طرفه أبلغه أحد الموظفين أن ينتظر قليلاً ريثما تُستكمل بقية المُعاملات الداخلية فجلس على أحد الكراسي وكانت أمامه طاولة زجاجية صغيرة وضعت على سطحها نسخة من أشهر الصُحف اليومية واسعة الانتشار فسحب الجريدة ليتصفحها بهدوء وعندما وصل للصفحة المخصصة للاستغاثات والشكاوى لفت نظره استغاثة مُرسلة من سيدة سكندرية ترجو فيها أن يتبرع أحدهم بمبلغ عشرة آلاف جنيه لاستكمال سداد مصروفات عملية جراحية لابنتها (سارة) ذات السبعة أعوام المصابة بثقب في القلب يُهدد حياتها وأرفقت مع استغاثتها عنوان المشفى المحتجزة به ابنتها على أمل أن يتبرع أحدهم لإنقاذ حياة ملاك صغير يبلغ من العمر سبعة أعوام وبعد التفكير لدقائق استقر (موسى) على القيام بخطوة قد تساعده في التطهر الكافي لأن يصل طوفانه لذروته..

وعقب مرور حوالي ربع الساعة أشار له الموظف الجالس خلف المنفذ الزجاجي لكي يوقع على استلام المبلغ المذكور سابقًا ولكنه طلب من الموظف أن يضع النقود مقسمة إلى جزئين في ظرفين بريديين بحيث يكون كل واحد منهما يحتوي على عشرة آلاف جنيه فتم له ما أراد وبعد الاستلام خرج من المبنى واستقل سيارة أجرة من جديد وتوجه لذلك المشفى وعندما

دخل لغرفة الاستعلامات والاستقبال طلب بأن يتبرع للفتاة المحتجزة بغرفة العناية الفائقة بالمبلغ المُحدد في استغاثة والدتها فعرضت عليه إحدى الممرضات بيانات الحالة وأحضرت له وثيقة التبرع ليوقع عليها ولكنه قال للممرضة:

– لست أنا صاحب هذا المبلغ أنا مجرد وسيط وسأوقع الوثيقة بالنيابة عن المتبرع الأصلي لعدم قدرته على الحضور.

فأجابته الممرضة بالموافقة وبعد أن قرأ على عجل بنود الوثيقة أمسك بالقلم وارتكزت يده عند خانة التوقيع ثم وقع باسم (أميرة مجيد) وأوصى الممرضة أن تُخبر والدة (سارة) بخالص أمنيات المُتبرعة بتمام الشفاء وألا تنساها من صالح الدعاء وعندما خرج من المشفى شعر وكأن ضلوعه تمددت لتسع الأرض بمن عليها.. لقد شعر بقدر كبير من الحرية وكأن الرب سمح له بأن يُغادر محبسه إلى حين وأخذت خطواته تزداد اتساعًا فوق الفسيفساء الزرقاء المرصوف بها الساحل الموازي للبحر وقرر أن يعود للمنزل مشيًا على قدميه رغم أن المسافة بالسيارة من موقعه الحالي لمنزله تستغرق نصف ساعة والوقت الآن يشير لزوال الشمس أي أن أذان صلاة المغرب على وشك أن يصدح به المؤذنون خلال دقائق ورغم ذلك مضى في طريقه ربما لأن الراحة التي اكتسبها بعدما فعله تُمكنه من الركض لأيام دون كلل أو إجهاد يُذكر فاستمرت قدماه تنخل طرقات المدينة غير مكترثة ببعد المسافة ولا بطول الزمن ليصل بعد ذلك لمنزله في تمام العاشرة مساءً.. وعندما وصل للباب أدار والده المقبض قبل أن يهم هو بالطرق لقد سمع والده وقع خطاه على الدرج وميزها فهو يعرف كيف يخطو (موسى) منذ أن كان في الثانية من عمره

ولهذا فاجأه بفتح الباب قبل أن يقرعه وكان يرتدي جلبابًا أبيض بأزرار تكتسب وهج الزعفران عند الرقبة والصدر وعلى جوانب أكمام المعصمين إلا أن اللقاء بينهما كان أكثر من عاطفي فبعد معانقة طويلة وضع (د/ عبدالناصر) يده حول كتفي ابنه وسار نحو الأريكة الرئيسية في غرفة الضيافة بعد أن وضع (موسى) حقائبه بجوار الباب عقب دخوله ولكن لاحظ أن والده تتسلل من عينيه خيوط رفيعة من الدموع فسأله:

– لماذا تبكي يا أبي أخبرني؟

فأجابه بعد أن مسح دموعه بسبابته قائلاً:

– أنا لم أكن مُعتادًا أن تتغيب عن المنزل لمدة أشهر كما فعلت خلال رحلة عملك الأخيرة فهذا المنزل يفتقد والدتك بشدة وبغيابك اجتمع في قلبي فقدين وهذا ما لم أتحمله.

– أنا آسف حقًا لم أكن أعلم أن عملي سيسبب لك ضررًا ولكن لماذا لم تخبرني عندما كنت أراسلك أثناء الرحلة فصوتك كان طبيعيًا وكنت أشعر أنك بخير؟

– كلا.. لا داعي للأسف فهذا ما يجب أن يفعله كل رجل وهذا ما كنت أطمح في أن أشاهدك تفعله.. فالرجل الحقيقي يا (موسى) هو من يستطيع أن يجلب رزقه بالسعي خلفه حتى ولو كان في باطن البحر.. إنها فقط مشاعر الأبوة وستفهمها عندما تُصبح أبًا وستتذكر كل تعنيفي لك بسرور عميق لأن حينها ستعلم أن الأب لا يريد شيئًا سوى أن يرى شبله الصغير أسدًا ناضجًا ذات يوم.

لقد ظهرت على ملامح والده عاطفة لم يعتد على رؤيتها فهو دائمًا ما يرى والده مهيبًا جادًا ولكنه لا يدري أنه ذو قلب مرهف يختبئ خلف ضلوعٍ من عاج الصبر ذلك العاج الذي يُقتطع من أنياب الفيلة العجائز فهو وإن كان مستبدًا بعض الشيء فذلك للحفاظ على آخر ما يربطه بأكثر من أحب يومًا.. (خديجة) تلك الفتاة التي لا يجوز ذكرُها إلا والقمر مكتمل في ليلته الرابعة عشر لفرط جمالها.. إنها شريكته في أحلام صباه ورفيقة دربه وأم ولده الوحيد.. ورغم كل التفاصيل التي تكلموا فيها استمر حديثهما مسترسلاً حتى الثانية فجرًا قبل أن يستسلما للنوم في ليلة ذات طابع خاص تحدث فقط عندما يرى الأب صورته في وجه ابنه ليتأمل نفسه فيه متجسدًا بعمر أصغر وشجاعة مضاعفة وجموح لا تحده سماء.. وبعد مرور ساعات الليل ببطء مصطنع استفاق (موسى) في الصباح وهو يُفكر في شيء واحد.. طوفان (يوحنا)!!.. أراد استجماع قدرته على المواجهة ولكنه فشل على مدار الأيام التالية.. إنه أشبه بعُقاب أصبح منقاره معقوفًا لدرجة أنه لا يستطيع إطعام نفسه ولا حيلة له إلا كسره فوق جرف صخري لينمو منقار بديل له وإلا مات جوعًا.. إذن عليه الاختيار إما تحمل آلام الكسر ومواجهة الواقع أو الفناء.. وهكذا تمامًا تسري الأمور مع (موسى) فإما أن يواجه ما يخشاه ويتطهر أو سيهلك كأي عاشق سبقه.. ولكن هذا القرار تطلب مساءات طويلة من التفكير حتى استفاق مجددًا في صباح أحد الأيام ليُقرر خوض تلك المعركة في ساعة ما من بعد الغروب وهذا ما حدث.. فنحن الآن في الخامس والعشرين من ديسمبر/ كانون الأول وقد مرت أربعة أسابيع منذ عودته من ترحاله بين ساحلي بيروت والماريا بنت الإسكندر الأكبر كما يُسميها أهلها..

وفي الحقيقة قد يتخلى الرجل عن أي شيء كالوطن أو الأهل أو حبه الغريزي لفرض سطوته إلا أنه لا يُمكنه أن ينسى أبدًا شغفه بامرأة أُغرم بها يومًا.. ولهذا جلس (موسى) مرتكنًا إلى سور الشرفة الحديدي يُراقب المارة في ضاحيته ويُفكر باستغراق أيبعث لها رسالة أم لا؟ هل يمكن أن تقبل به مجددًا؟.. ربما كان يثق أنها ستصده لأنه تعود على ذلك منها برغم اعتذاراته التي بلغت من كثرتها عنان السماء وبرغم كل الجراح التي تسببت في حدوثها له إلا أنه كان يُريدها أكثر من أي شيء أخر.. حل المساء سريعًا وقام بمراسلتها من حساب جديد مُطابق لذلك الذي اعتاد أن يراسلها منه سابقًا وهذا لأن الحساب الأقدم لازال محظورًا لديها.. تسارعت ضربات قلبه بوجل كبير وكأنه مازال عالقًا في جسد ذلك الفتى الذي كان عليه قبل أربع سنوات مضت حين ارتجف قبل أن يخبر فتاته بحبه لها ولكنه رغم كل تأرجح إرادته بين الإبقاء على عزلته بعيدًا عنها وبين رغبته في التقرب منها مجددًا تماسك بما يكفي ليرسل لها نصًا قصيرًا قائلاً:

– السلام عليكم.. كيف حالك يا (أميرة)؟.. بعد أيام سيحل علينا عام جديد وأتمنى أن تكوني بخير.

لقد ترك رسالته دون أدنى أمل في أن تُجيبه كان ينتظر إما التجاهل أو تجاوب عنيف منها ربما لأنه أصبح غير مرغوب فيه من جهتها ولكنها كانت تختزن ما يكفي من عدم الاكتراث بهكذا موقف فأجابت دون صعوبة أو دهشة تذكر وكأن عودة حبيب قديم بعد عام من الغياب ليس كافيًا لإثارة مشاعرها نحوه أو هكذا بدا ظاهريًا فقالت:

– وعليكم السلام.. أنا بأحسن حال.. شكرًا لك.

كانت تمتلك قدرًا من الجفاء يكفي لتحطيم الهرم الأكبر وليس فقط مجرد تحطيم قلب شاب ينبض بحبها رغم كل شيء فاستمر الصمت المطبق بينها حتى أنه ظن للحظة أنها لا تعرفه وشعر بالذنب لأنه ظهر في حياتها فجأة بهذه الطريقة بدون موعد أو تلميح مما زاد صعوبة الموقف ولكنه تصور أنه يستطيع قول ما يريده أمامها ولكن ذلك لم يحدث فكل فكرة ترد إلى خاطره تبدو غير مناسبة أو ينقصها شيء ما.. وبدأ عقله يسترجع السنوات التي قضاها معها بحنين قاتل حتى أنه عندما رأى صورتها عبر صفحتها الشخصية أدرك أنها لم تختلف كثيرًا عن أخر مرة رآها فيها منذ عام.. فمازالت تلك العيون السهلية الخضراء تصدح بصلوات ربانية ومازالت تلك الشفاه الوردية تبوح بأسرار الخليقة عندما خُلقت في اليوم الأول.. لا شيء تغير.. فتخلله شعور أنها على ما يرام وعندما شعر أنه مستعد لمواصلة الحديث أخذ نفسًا عميقًا ثم قال:

– تسرني رؤيتكِ من جديد.

فأردفت قائلة:

– وأنت كذلك.

فأخذ ينظر إلى صورتها والحزن يملأ عينيه وقرب يده من ذقنه واخترقت أصابعه سواد لحيته الكثة وقال:

– أنتِ حقًا تتحدثين معي؟ أنا لا أصدق ذلك!!

بعد تلك الجملة شعرت (أميرة) بأن هناك شيء عميق وقديم ينخل الطرقات بداخلها ليستقر في قلبها فجعلها تشعر بالدوار للحظة.. ووجدت نفسها تقاوم من أجل السيطرة على ذاتها فهي لم تتوقع حدوث كل ذلك لأنها لم تتمنَّ

حدوثه فهي لا تُريد تكرار التجربة مع نفس الشخص ليخذلها مرة أخرى لتتحول إلى خرقة بالية بسببه مُجددًا ولكن هذا الإحساس مستمر رغمًا عنها.. أما هو فشعر كما لو كان قد عاد أخيرًا إلى الوطن واغرورقت عيناه بالدموع وانفرجت عن شفتيه ابتسامة تكاد تكون غير ملحوظة ومع آلاف الأسئلة التي ارتسمت على وجهه إلا أنه قال:

– يا إلهي إنكِ رائعة الجمال.. لقد أصبحتِ أكثر جمالاً من ذي قبل!!

فشعرت بالدماء تسري في وجهها تمامًا كما كان يحدث قبل أربع سنوات في بداية قصتهما فأجابته:

– شكرًا.. وأنت كذلك فصورتك توحي أنك بصحة جيدة.

ولكنها شعرت بعدم الرغبة في تجاذب أطراف الحديث معه وأدركت خطورة ما يمكن أن يحدث إن لم تكن حذرة وأخذت تحدث نفسها أن الأمور لا يجب أن تفلت من زمام يدها وألا تسمح بوقوع مثل ذلك الأمر فكلما طالت مدة الحديث زادت صعوبة المواجهة.. واستمر (موسى) في حديثه قائلاً:

– لا أريدك أن تُسيئي فهمي.. لقد اجتاحتني رغبة شديدة في رؤيتكِ.. ولكني أريد أن أوضح لكِ شيئًا.

– وما هو ذلك الشيء؟؟

– تصورت في البداية أني أستطيع أن أخبركِ ولكن الآن لست متأكدًا.

وهُنا شعر (موسى) بهبوط في دقات قلبه وكأنها تجهز له كلامًا لن يسره.

فسألته:

– لماذا عدت؟؟.. ماذا تريد؟؟.. أظنك يجب أن تعلم أني الآن مخطوبة لرجل آخر ولا يجوز لي التحدث معك.

إن ما قالته للتو لا تجد له تفسيرًا فهي ليست مرتبطة بأي شخص لأنها في الأصل لم تستطع نسيان من يُحدثها ولكن يمكننا التخمين بأن ذلك قد يكون استكمالًا لعقابه الذي لم يبدُ مثاليًا لها عندما تركته قبل عام.. إنها حقًا تُحبه ولكن على قدر الحب يكون الألم.. فهي لا تزال غير قادرة على المغفرة.. لا تزال تحاول استرجاع ما كانت عليه قبل أن يهجرها.

ولكن بلا جدوى فهي هُجرت أربعة أشهر بلا سبب وكأنها غير ذات قيمة.. كيف أمكنه أن يتحمل شهورًا طويلة من الغياب دون أن يحاول تنبيهها على أنه حي يرزق على أقل تقدير!! فهي لم تكن تعلم إن كان حيًا أم ميتًا.. ومع ذلك استمرت في مراسلته حتى بعد أن خرج هاتفه من نطاق الخدمة لثلاثة أشهر كاملة!!.. إنها أحبته بعمق وأما هو فتصرف كأحمق.. أما الآن وبعد أن أخبرته بأنها قد تمت خطبتها أحس بوهن شديد وأحنى رأسه للأسفل واستطاع أن يشعر أن أشياء كثيرة تغيرت عما كانت عليه وكم أصبحا غرباء الآن!! وقد كان يرغب في أن يقول لها أنه أُرغم على ذلك ولكنه لم يفعل.. فقال:

– جئت فقط من أجل معرفة أخبارك والاطمئنان عليكِ.. وأعلم أني أبدو سخيفًا بسبب ظهوري المفاجئ وعدم معرفتي ما يجب عليَّ أن أقوله وأن الأمر برمته لم يكن مناسبًا من البداية.

فتساءلت بينها وبين نفسها إن كان هذا كل ما في الأمر حقًا؟؟ ولكنها لم تطل عليه في أسئلتها وتحدثت معه باقتضاب شديد في موضوع آخر.. عن عمله الجديد الذي أخبرها به وعن مستجدات حياته بشكل عام.. وهذا ما كان يبدو عليه الأمر ظاهريًا.. أنهت المحادثة برغبتها في طلب المغادرة للقيام بأمر هام ولكن دون أن تقوم بحظره هذه المرة.. ومرت ساعات المساء بطيئة

وظلت (أميرة) تُفكر فيه وفي نفسها وفي أشياء كثيرة أخرى.. ثم تمنت للحظة أن تتمكن من الوقوع في حبه مرة أخرى ثم أسرعت بتأنيب نفسها فهي لا تحبه ولكن تُحب ما قد كان بينهما بالإضافة أن شعورها هذا طبيعي للغاية فذلك الفتى كان حبها الأول فكيف يمكنها أن تتوقع نسيانه!! ولكن هل من الطبيعي أن تُحس باختلاج صدرها عندما يذكرها بما كان بينهما؟.. هل حقًا مازالت تكن له القليل من الحب أم أنه وخز الذكريات يعاود الظهور من جديد؟.. ومن أجل حيرة أكبر وأعمق ظهر لها شيطان الاختيار ليفرض عليها البقاء آمنة خارج نطاق أي علاقة.. خارج نطاق أي مخاطرة.. أو أن تعود لرجل حياتها الذي تنفسته عشقًا ذات يوم!!.. وفي مساء اليوم التالي عند تمام الثامنة مساءً أرسل لها (موسى) رسالة يبتغي من ورائها أن يسترسل بعدها في الحديث معها ويعمل على استمالتها ناحيته من جديد والمثير للاهتمام أنه لم يعد لحوحًا كما كان في السابق فلم يُرسل لها أية رسالة خلال ساعات النهار ولكنه تحلى بصبر عظيم ليُراسلها في المساء لأنه يعلم أن مزاجيتها ليلاً تكون بوضعية أفضل وهذا تطور ملحوظ في شخصيته فقد كان طرفًا ضاغطًا بشدة عليها بدلاً من أن يكون متنفسًا لها لذلك انفصالها عنه كان قرارًا حاسمًا رغم أنها تحبه ومازالت كذلك.. لقد دار حديث سطحي بينهما إلى حد ما ولكنه فاجأها قائلاً:

– هل يحسن معاملتكِ؟

– نعم فهو شاب صالح ويحبني كثيرًا وستتم مراسم زفافنا قريبًا.

لقد تعجب كثيرًا بعد هذا الرد من طريقتها الهادئة في الحديث عن موعد زفافها دون أدنى مراعاة لمشاعره وكأنها تقصد أن تؤذيه بأكبر قدر ممكن.. أو ربما عقله يقوم بخداعه وكل هذا غير حقيقي؟؟.. فتماسك قليلاً ثم قال:

– هل تحبينه؟

أجابته على الفور:

– نعم أحبه.

تلك الكلمة جعلته أكثر وهنًا من أي وقت مضى ولكنه شعر أنها تقول ذلك لإقناعه بالابتعاد عنها أو لإقناع نفسها بالأمر.. وبعد دقيقتين تقريبًا من توقف المحادثة أرادت هي أن تفاجئه فسألته قائلة:

– متى ستحب من جديد؟!!

متى ستتزوج وتصبح لك أسرة؟؟

ارتعشت أطرافه وعجز عن الرد إلا أنه قال:

– أنا فعليًا مرتبط بذكرى فتاتي التي فارقتني منذ عام.. أدعو لها في صلاتي وأنتظرها

في أحلامي.. فهي ابنتي التي لم أُنجبها..

هي بنت قلبي فقصاصة من شعرها الفاحم..

تزن هذه الأرض وما عليها من نساء.

علمت أنه يقصدها ففضلت الصمت إلى حين ثم قالت له:

– لقد أصبحت الآن على مشارف السادسة والعشرين ومن الحماقة أن أفكر كفتاة غضة مازالت لم تُكمل من عمرها عقدين.. أفق فالعالم يتغير من حولك وستشيب وحيدًا إن بقيت هكذا متعلقًا بحب قديم مهترئ ولا تكن مثارًا

للسخرية فالحب لا يُغنيك عن الحياة الحقيقية التي تنتظرك فهي ستستمر به أو بدونه.

- نعم.. ما زلت أقف على حافة أرصفة ضاحيتكِ بثبات أنتظركِ هناك فوق رصيف قطار متهالك وأحمل لكِ في يدي باقة ورد حمراء ذابلة فإن كانت هذه حماقة.. إذن فليكن.. بالإضافة إلى أني لا أجد مبررًا للاستغراب حول قضية إذا ما بقيت أعزب بعد رحيلكِ أم لا فهذا أمر خاص بي وحدي الآن. ولكن يجب أن تعلمي أنكِ حين رحلتِ فقد تركتِ لي جبالاً شاهقة من الذكريات المتجمدة والكثير من عقارب الساعات المكسورة.. فمن أين يمكن لي أن ألتقي بمن هي مثلكِ يومًا!! وصدقًا أخشى كثيرًا من انزلاق السنوات دونما العثور على تلك الروح التي تطابقكِ.. ربما سأكون عجوزًا في السبعين من عمري وما زلت أبحث.. هل يمكنكِ حينها أن تأتي لتشاركيني ما تبقى من أيامي أم سيظل الفراق على حاله يشيد كل يوم ألف جدار بيننا؟

- أعتقد أن النقاش حول هذا الموضوع بدأ يأخذ أكبر من حجمه بالفعل وعلى أية حال أنا لست مستعدة للبحث عن شيء أصبح جزءًا من الماضي الآن.

لقد كان يتوقع منها مثل هذا الرد ولذلك صمت قليلاً ثم قال:

- إن كنتِ تحبينه حقًا فأنا لن أقف حجر عثرة أمامك ولكن إن كان هنالك جزء منك مازال يتشكك وغير واثق فلا تفعلي هذا الأمر ولا تقبلي بأنصاف الحلول.

أجابته بحزم قائلة:

- لقد اتخذت القرار الصائب.

وعندها ارتجف جسده قليلاً ثم قال:

– برغم كل شيء أنا سعيد بالتحدث معكِ ثانية.

وأعقب ذلك صمت ساد لعدة دقائق ثم على غير المتوقع كتب (موسى) قائلاً:

– هل تعتقدين بأننا يمكن أن نبدأ من جديد؟؟.. أنتِ أفضل من يُمكنني الوقوع في حبه وأثق به وأريد أن أظل بجانبك إلى الأبد.. فما رأيك أن يُعاود كل منا معرفة الآخر واكتشافه؟؟

الدهشت (أميرة) مما قرأته للتو وقالت بصيغة استفهامية:

– قل لي سببًا واضحًا يجعلني أقبل بك من جديد!! سببًا يجعلني أترك كل شيء من أجلك.. كن واقعيًا ولو لمرة واحدة.. فأنا لن أترك شخصًا يحبني وأقرب لي منك في المسافة وفي المشاعر.. أنا آسفة لا أريدك في حياتي مجددًا.

– بل يوجد سبب.. ألا يكفي أنني أحبئ لكِ بقلبي حبًا أثقل من أن أتحمله؟؟.. ألا يكفي أني تجرعت بحارًا بأكملها من العذاب!!.. إن كنت أخطأت فأنا لست نبيًا معصومًا ولست ملاكًا منزهًا.. عقابكِ لي كان أكبر مما أستحق.. لقد أقدمت على الانتحار عشرات المرات إما جوعًا أو غرقًا في المتوسط حيث كنت منذ أسابيع.. حياتي بدونكِ أصبحت جحيمًا لا يطاق.

– هذا الأمر لا يعنيني.. هذه مشكلتك.

– من الواضح أن الشتاء ترك بصمته على قلبكِ.. أصبحتِ باردة كثلوج مدينتكِ.. لدرجة أنه لم يعد يشفع لي أي عمل صالح قدمته من أجلكِ فقد ظللت معكِ لثلاث سنوات أحطم قواعد الاشتياق والتمني.. أنتقل من أرضك

إلى سمائك ومن خضرة عينيكِ إلى زرقة البحر الكامنة في صوتك.. ماذا كنتِ تعتقدين أن أفعل حيال غيابكِ؟ أن أطوي صفحة طُبعت عليها صورتكِ وتركتيها مثبتة على قلبي بمسمار آشوري قديم؟؟ كلص يهودي مصلوب على خشبة!!.. إن الوقت لم يعُد موجودًا ولم أعد أحسب ساعات الافتراق.. أنا غادرت هذا العالم منذ زمن.. منذ تلك اللحظة التي أغلقتِ أبوابكِ بوجهي حينها تحولت كل غابات العالم إلى صحراء.. يا حب العمر ما أنا إلا إنسان عتيق من زجاج تهشم من أجلكِ ملايين المرات.

– أرجوك كف عن تكرار ما قلته سابقًا فأنا سمعت ذلك من قبل وكان جوابي حينها واضحًا أيضًا.. لا أريدك.. هذا كل ما في الأمر.

– مازالت مشاعركِ نحوي متحجرة منذ عام.. وكأنكِ لم تستطيعي هضم خطأ أقررت بوقوعه واعتذرت عنه حتى جفت الدماء في عروقي وتوقف قلبي عن الخفقان.

– وكأنك لا تفهم ما أقول وكأنك أصم!!

– حاولت كثيرًا أن أتفهم مقدار غضبكِ ورغبت في إدانة نفسي لأكبحها عن الاستمرار بالتفكير فيكِ ولكن ذهبت محاولاتي هباءً منثورًا وكأنما أكتب على الماء.. أنا ارتضيت بكِ عذابًا لي في الدنيا ولكني ما زلت أطمع في رحمة الله.

– الرحمة تُمنح لمن يستحقها وأظنك لست مؤهلاً لذلك.

– لم أعد أمتلك شيئًا آخر لأقدمه لكِ غير قلبي الذابل ووعود مخضبة بدماء ودموع.. ولكن حتمًا سيكون بيننا لقاء إن لم يكن هنا فسيكون في الجنة

وسأعمل من أجل ذلك جاهدًا وسأعيش كراهب أتضرع لله بدعوات خافتة عسى أن أراكِ هناك وأخبركِ ببقية القصة.

– ما زلت لم تتغير.. تُجيد قلب الحقائق وتبرع تمامًا في الظهور بثوب الضحية مسلوبة القوى.

– أتمنى حقًا إذا قمتِ بتنحية هذا الكم من الجفاء جانبًا.. فهذا ليس الوقت المناسب لكي تمارسيه فوق رماد جثتي فأنا لم أعد مهتمًا سواء أكان هذا الحب صحيحًا أم لا.. أكان هذا الحب لعنة أبدية أم إحساس مقدس!!.. كيف لي أن أتحمل وجود شخص آخر بجوارك!! شخص ينتحل شخصيتي ويسرق حبي لكِ ويغريكِ بقصائدي التي طالما أنشدتها من أجلك؟؟.. هذا أكثر إيلامًا من الذبح بنصل صدئ.. ربما سأتجاوز كل ذلك يومًا ما.. صدقًا سأفعل.. ولكن لأني أحبكِ أستطيع القول أني سأغفر لكِ كل ما مر على جسدي من آلام.. كل ما مضى من بؤس.. حتى وإن لم تعودي أو حتى إن لم أركِ مرة أخرى فيجب أن تعلمي أنكِ لستِ في المرتبة الثانية بحياتي . أنتِ دائمًا كنتِ الأولى في كل شيء بالنسبة لي.. وعلى الرغم من أنكِ بعيدة جدًا إلا أن قلبي بجانبكِ... قلبي دائمًا يساندكِ.. فقط قومي باكتشاف ما أصبحت عليه.. فكل ما أريده منكِ فرصة أخرى للحياة.

– في الحقيقة أنا لا أريد أن أكتشف أي شيء ولا أريد ذلك الإنسان الذي تتحدث عنه.

– جيد.. لن أفرض نفسي كصخرة تجثم على صدركِ بعد الآن ولكن على الأقل دعيني أقوم بوداع يليق بكِ.. أو دعيني أتظاهر أني أفعل ذلك.

– صدقًا لم يعد لك مكان في ذاكرتي.. لذلك لا داعي لما ستقوم به.. فقط كف عن ملاحقتي وافتح قلبك لحب جديد وعش حياة ذات تجارب مختلفة كما فعلت أنا.. فربما ظننت لسنوات أنك تعرفني كراحة يدك ولكنك لم تكن كذلك على الإطلاق.. أما الآن أعتقد أنه لا وقت للعتاب فلم نعد صغارًا بقلوب من حلوى.. أصبحنا شخصين على النقيض.. هذه أخر رسالة أكتبها لك.. إلى اللقاء.. اهتم بشئونك.

لم تمر إلا ثوان معدودة عقب تلك الرسالة حتي قامت بحظره من جديد كما جرت العادة.. وهنا شعر (موسى) باسترخاء شديد ناتج عن يأس مترسب في عظامه.. وانخفض معدل النبض لدرجة أنه أصبح يسمع دقات قلبه بصعوبة بالغة وبدأ جسده في الاستسلام للبرودة التي تجتاحه في سكون تام.. إنه الفراق الثاني الذي يقع بينهما في عام واحد.. وفجأة كل الأشياء حوله أصبحت أصواتها مكتومة كليل صحراء بهيم خالٍ من أي عواء ولكن شيئًا واحدًا دام طنينه حتى غاب عن الوعي جزئيًا.. ذلك الصوت الذي يثقب رأسه بمعول من فولاذ ويقول:

– "إنها تُحب شخصًا آخر".

يا لها من مأساة.. لأنه لم يعد أسير ذكراها فحسب بل وقع في حبها من جديد.. فبمجرد حديثه معها بدأت تطفو على السطح مشاعر حاول دفنها لأشهر كدخان يخرج من جمر يحترق تحت الرماد.. يقولون أنه لا يمكن لأحد أن يموت إثر الحب.. قد يكون هذا صحيحًا ولكنه يظل معلقًا بين السماء والأرض.. ويبدو أنها قررت أن تمحيه من ذاكرتها كما لو كان مزحة لم تُجبرها على الضحك فقررت أن تُهملها.. ربما كان عليه أن يقتنع بأنها لم تعد تُريده وأنها الآن عاقدة العزم على أن تمضي قُدمًا تاركة وراءها الكثير من المتعلقات بما في ذلك (موسى)!!.. كان عليه أن يوفر لها هذا الخيار ويكف عن اللحاق بها مجددًا.. يكف للأبد.. إنه شاب وصل إلى أعلى مراحل الاحتضار خلال ساعتين من الزمن وفاضت عينيه بدموع باردة لم يعرف كيف يوقفها فأكثر ما يمكن أن يفتك بقلب رجل شرقي هو اقتراب رجل آخر من فتاة يُحبها أو بمعنى أدق فتاة كانت تُحبه فإذا وقرت إحداهن في قلبه وافترقا فستكون عواقب نسيانها وخيمة ولربما ستحرقه الغيرة حيًا فلكل حدث في حياتنا لُب عاطفي يجعلنا على شفا الانهيار إن ارتبط هذا الحدث بذكرى سيئة ولا أسوأ من فراق من نحب ولهذا عندما نستطيع الانتصار على المعضلة فسوف تتحلل الذكريات المستهدفة وكأن شيئًا لم يكن وفي الحقيقة هذا يُسمى تدمير جزئي للمخ وبالتأكيد لن تخسر أكثر مما خسرت سابقًا فقط الأمر يحتاج لشجاعة أكثر منها رغبة في الهروب من ماضٍ بائس ولكن الرجال في الشرق لا يفقهون فن النسيان.. هم هكذا دائمًا إما عشاق متيمون أو

ناقمون ذوو قلوب ذابلة ورغم كل الألم الذي تجدد في خلاياه وكان يظن أنه أصبح مستعدًا لمواجهته انتصب واقفًا وذهب ليُحضر دفتره الأزرق الصغير الذي كتب فيه انطباعاته في أول لقاء جمعه بها وبعد أن أحضره جلس على مكتب والده وأمسك بالقلم ثم كتب في آخر صفحات الدفتر ما يلي:

– أنا أعرف جيدًا كيف أتذكرها ولا يجب أن أفعل ذلك بمفردي ولكن يجب أن يتذكرها الجميع أيضًا فهي ليست مجرد فتاة مثل بقية حسناوات مدينتكم.. إن (أميرة) كانت وحيًا من السماء علينا أن نتعلم منه كيف نمتلك قلوبًا مزركشة كالأطفال وكيف نستطيع تجسيد النقاء ليعيش بيننا فنحتضنه ونصافحه كل صباح.

لم يختلف وصفه الأخير لها عن وصفه الأول وهذه إحدى خطوات التطهر كما وصفها له (يوحنا) فيما سبق وعلى جانب آخر لم تُخبره (أميرة) أنها نجحت أخيرًا في الحصول على منحة الابتعاث إلى كندا والتي تمتد لأربع سنوات وأن سفرها للالتحاق بجامعة تورنتو سيكون يوم الثامن والعشرين من ديسمبر أي بعد يومين فقط ولكن من الجيد أنها لم تخبره ففي غالب الظن كان هذا كفيلاً بانهيار الأجزاء الصغيرة التي تبقت منه.. ولكن كيف ستتغلب على شعورها بالاغتراب بدونه؟ إن أحد أكبر أحلامها يتحقق دون وجود من شاركها فيه وهذه بحد ذاتها مأساة من نوع خاص وبالأحرى كل شيء يربطهما من نوع خاص فحتى خطوات تطور علاقتهما ليست مؤرخة بصور تذكارية أو لقاءات في مقاهٍ على سواحل وهران أو بورسعيد ولكن تم التأريخ لها رقميًا!!

بالإضافة إلى أن النهايات أيضًا لم تكن اعتياده بل حدثت بين طرفين يُريدان بعضهما بنفس القدر الذي يتصرفان فيه بحماقة فهو هجرها دون سبب وهي ترفضه مرتين رغم أنها تعلم صدق ندمه.. ولكن إن أمعنا النظر في التحليل المنطقي لما حدث سنجد أنه يُريد أن يُعبر عن اهتمامه بها بطريقته الخاصة الغير خاضعة لأي منطق فهو حين هجرها كان يعتقد أن هجره لها في حد ذاته اهتمام؟ وهي كانت تُريد منه حُبًا تستحقه ولكن بماذا عساهم أن يُبررا فشلهما في امتزاج ذاتيهما إن كان حبهما أعمق من أن يتم التعبير عنه بكلمات أو أفعال؟ إنها علاقة في غاية التعقيد أو بالأحرى إنها معادلة صعبة للغاية ولا يُمكن لنا تخمين النهاية المناسبة أو الناتج النهائي لتلك المُعادلة فما حدث قبل قليل بينهما حتمًا لن يكون النهاية فقصة حب ثورية كهذه أعتقد أنها جديرة بنهاية تليق بها.

الفصل الرابع

(مـلـكـوت)

رَشَقَ العشّقُ سهَمًا في قلبِ العاشق

السّهمُ والجّرحُ غيرُ مرئيين..

لكنّ الدّماءَ تسيل!!

*مولانا جلال الدين الرومي.

هكذا هم المُرشدون عندما يحين وقت غيابهم تعتصر قلوب مُريديهم شوقًا وتحترق أرواحهم من أجل لقاء جديد قد يأتي بعد ألفية قادمة.. فكل حب عذري بين صبي وفتاة يُمكننا اعتباره نوعًا من التعبد فتصبح هي مُرشدته وشيخه ويُصبح هو مُريدُها الساعي من أجل صُحبتها دهرًا خاصة إن كانت وسيعة العينين تمتد تحت حاجبيها جبالاً من البازلت تخضر قوالبها إن ابتسمت.. ولذلك ستبقى صورتها نقشًا بارزًا في ذاكرته وسينسى كل ما هو دونها ولا يُمكن لأحد أن يربح رهانًا يضع فيه الزمن كعامل محفز للنسيان في مثل هذه الأنواع من الحب وبغض النظر عن أي تقديرات فأنت قد تنجح في إخفاء شعور ما لفترة وهذا يظل ليس مُبهرًا كفاية لكن المثير للدهشة حقًا أن تستطيع طرده من داخلك وليس تنحيته جانبًا فقط وإلا سيعود لك مرة أخرى بصورة أكثر وحشية من زمرة ذئاب تحوم حول ظبي وبالطبع ستخسر لأنه لا أحد يستطيع طرد حبه الأول من داخله وستعاقب القرون وهي مازالت تضع تاج الياسمين فوق جبينها تنتظره وأما هو فسيركض نحو شرفتها فجرًا كل يوم ليخوض جميع معاركه أمام منزلها ليُصرع عند الغروب فيسقط شهيدًا لمن أحب ولهذا فالرهانات القائمة على آلية تقادم زمان حتمًا مُجرد سخافة فنحن الآن في صباح اليوم العاشر من مارس/ آذار للعام السادس عشر بعد الألفية الثانية ولا زال (موسى) يحتفظ بالكثير من عبقها بداخله كما أنها عادت لتجالسه في مناماته وتتجسد بامتداد الأفق أمامه في الغدوة والرواح حتى أنه أصبح كخف الإبل يغوص في الرمال دون أن يغرق فهو يعلم كم هي قاحلة صحرائها.. كم هي مُهلكة ولكنه يُلقي بنفسه فيها بوعي أو دون وعي فقط لينتشي وذلك لأنه لا موات له فيها ولكن عندما يُصبح الاشتياق في صحراء

المحبوبة عذابًا سيتحول هذا لانتشاء يعوضه عن أراضي رضاها التي أصبح غير مأذون له بأن يطأها فحتى وإن نضج جلده فهو لن يشعر بشيء لأنه يُحب.. لأنه مُريد.. وعلى الرغم من أنه أيقن بعدم إمكانية اللقاء مرة أخرى إلا أنه لم يعد للبحر كما كان يُهيئ لذلك عقب رسالتها الأخيرة له ولكن رُبما هذا يرجع لنصيحة (يوحنا) عندما قال له:

– لا تعد هُنا إلا إذا فُرغ قلبك من أي حُب.

وهذا لم يحدث بعد وقد لا يحدث أبدًا فهو يُحبُها بطريقة لا تسمح له بالتنفس دون أن يستنشقُها مع الهواء وربما هي بالنسبة له ذات طعم أسكر من الخمر المعتقة.. فإن كان هو في حياة أخرى مجموعة من أعواد القش الجافة ستكون هي الريح التي تدحرجه إلى البعيد.. إنه يعتقد أن عينيها تشتعل بعد الزوال لتتحول إلى مصابيح مُباركة تهدي السائرين ليلاً في الصحاري وفوق حواف الجبال والكثير غيرهم من الغرباء عبر الطرقات المُعبدة والترابية.. فإن كانت الصلاة فريضة ذات ميقات معلوم قد كتبها الرب على كواهل المؤمنين كذلك هو العشق فريضة لها من الوقار ما يجعلها توازي سنوات الحزن الطويلة خص بها الرب المختارين من عباده دون غيرهم لحكمة تتجلى معانيها في نهايات الأيام حيث لا دليل لمرفأ آمن إلا النور المُفضض المنبعث من عمائم الأولياء.. وإن أحببت أن تخوض تجربة كهذه فلا يُمكن لك أن تنجح في مسعاك إلا إذا اعتدت على أن تُمرر أمامك الأسئلة المفتوحة والإجابات الناقصة دون إبداء امتعاض ظاهر فالحقيقة الكاملة غير متاحة في عالم كهذا ولكن يجب على العاشق أن يكتشف الأسئلة قبل الإجابات فحتى التساؤل المجرد من أي إجابات مبطنة قد لا تجده هنا.. سيكون كل شيء

حولك خليطًا بين الوهم واليقظة.. بين السراب وحسية الموجودات.. وفي الغالب لا ينجو في أراضٍ كتلك إلا ذو الصبر اللا منتهي والحواس فائقة الاستشعار لأن أقل حركة داخل هذه العوالم ستُنبئك عن أمر ما وكل رائحة نفاذة قد ترشدك لطريق جديد ربما يُنجيك وربما يكون فيه حتفك.. فلا يكفيك أن تكون عاشقًا فقط لتمر للضفة الأخرى ولكن يجب أن تكون ذا فراسة أيضًا فالعشق كغيره من البلايا يحتاج لصبر وإيمان وفطنة للنجاة.. وعلى جانب آخر من مساء هذا اليوم العاشر من آذار قام (موسى) بفتح حافظة الصور الموجودة بهاتفه وجلس يُمعن النظر في صورة (لأميرة) ترتدي فيها كنزة صوفية حمراء تشوبها بعض المُزركشات ذات اللون الأزرق وكانت هذه أول صورة ترسلها له وحينها خفق قلبه بشدة حتى أنه عجز عن التنفس فهي تبدو في تلك الصورة رائعة الجمال كإحدى حوريات جبل الأوليمب في الأساطير الإغريقية القديمة وربما ازدادت الصورة جمالاً مع الوقت فحتى في صورها تظل هذه الفتاة غير مستعدة لأن تشيخ ولو قليلاً فسبحان من أبدع خلقتها قلبًا وقالبًا وروحًا وجعل يُقلب في الصور دون أن يستقر على صورة معينة يُنفق في تأملها ما تبقى من وقت ليلته ولكنه التفت فجأة لتلك الصورة التي تجمعهما عندما كانا طفلين (فأميرة) أخذت نسخة من صورته عندما كان في السادسة ودمجتها مع صورتها عندما كانت في نفس السن ثم أرسلتها له فبديا وكأنهما يقفا إلى جوار بعضيهما فاتسعت عيناه حنينًا لشقيقة قلبه تلك الروح الطاهرة التي عجزت كل نساء الأرض بأن تلد مثيلتها أو أن تستنسخ الأرحام روحًا توازيها في السمو فحتى البحر كان غير قادر على أن يُذهبها عنه ولو لدقائق وعند أذان الفجر قام (موسى) بتؤدة ليتوضأ ثم عاد ليبسط سجادة

الصلاة الخاصة به متوجهًا نحو نافذة غرفته المفتوحة المُطابقة لاتجاه القبلة فصلى الفجر بتمهل عظيم وكأنه من كبار الأئمة العارفين وربما وقر في نفسه أن القرب من الخالق أفضل بكثير من التواجد في مُحيط نُزع عنه أفضل ما فيه وبعد أن أنهى صلاته جلس فوق سجادته ليدعي بتضرع مبتهلاً للرب ومتذللاً لا لنفسه ولكن لأجلها فهو يعلم أنها طالما بقيت بخير ومازالت على قيد الحياة بالتالي سيكون هو حيًا يُرزق وإن ارتقت للعُلا سيجد نفسه ميتًا مُلقى على قارعة طريق أو ساقطًا وسط ردهة منزله أو مُمددًا على سجادة صلاته فهو يعلم يقينًا أنه لا حياة له إن كانت لا حياة لها فأنفاسه التي يستنشقها صبح مساء ليست في الواقع له ولكنها بقايا ما تنفسته فتاة قلبه المتوجة بإكليل من غار وأخر من دم نزفه من أجل أن يُزين رأسها بأغلى ما يمتلك فالذهب مُقابل الدم لا قيمة له.. وبعد أن انتهى خطوه نحو سريره بتكاسل وسكينة رافق ذلك اعتدال الطقس في الخارج فأخذ يُرسل بعض تيارات الهواء الباردة التي تُشجع على ذاك النوع من الكسل اللذيذ فارتمى فوق سريره ومدد جسده دون أن يعي إن كان سيخلد للنوم بقلب بارد أم متأجج فأحوال القلوب تُسير الجسد أثناء نومه كيفما تراءى لها وبمرور الدقائق غط (موسى) في نوم عميق نفذ منه إلى مقاطعات سهلية اتساعها سحيق كعمق آبارها ذات سماوات شديدة الزرقة عبر ثقب المفتاح لتلك البوابة الخشبية الضخمة التي تفصل بين العالمين عالم اليقظة وعالم البرزخ حيث تتواجد روحه الآن وبعد خطوات قليلة فوق العشب المتمايل مع اتجاه الرياح نظر إلى أقصى يساره فوجد جدته تجلس فوق أريكة بيضاء فاقترب منها دون أن تدعُوه لذلك فوجدها على نفس تلك الحال التي لم يستطع أن

يفسرها عندما كان يراها تقرأ فنجان قهوتها الخزفي في الخامسة من عمره حيث كان دائم التساؤل:

– لماذا تفعل جدتي ذلك بعد أن ترتشف حصتها الصباحة من القهوة؟.. لماذا تتركني وحيدًا على الأريكة لتمارس هذا العبث السخيف غير المُحبب بالنسبة لطفل؟.. بماذا كانت تُريد أن يخبرها الفنجان؟.. ولماذا كانت تريد استشفاف المستقبل؟

في الحقيقة لا توجد إجابات فجدته ارتقت قبل أن تُخبره ولكنها الآن أشارت إليه بأن يجلس أرضًا بجوار أريكتها ثم مدت يدها نحوه بشريحة صغيرة من جلد غزال مدبوغ فالتقطها ثم أطال النظر ليتفحصها ليجد أنه قد كُتب عليها بخط مهزوز:

– "أيُها المُريد قم من مواتك فعند الضريح ستجد المُعلم وفي قونية ستحيا كعاشق"!

وعندما التفت ليُخبر جدته أنه فشل في فهم ما ترمي إليه تلك الجملة لم يجدها بل إن عالمها انفصل عنه بالكلية وعادت روحه إلى جسده المُمدد على حافة سريره ليستيقظ متزامنًا مع أذان العصر مشدوهًا غير مُقر بما انقضى من الزمن فهو قبل دقائق وضع رأسه فوق وسادته.. هذا حدث قبل دقائق فقط!!.. فوقر في قلبه أن جدته لم تزره في منامه عبثًا وأن تلك الرسالة تنطوي على معانٍ عدة خفية رُبما مفاتيح حلها عند ذلك الضريح الواقع في قونية ولكن أي قونية تقصد؟ فهو حسب ما يختزنه من معلومات يعلم بأن قونية هي إحدى المُدن التركية ويبدو أن الوضع أكثر تعقيدًا مما هو عليه

وسيتأجل كل شيء إلى حين الاستقرار على تفسير تتوافق معه معطيات ذاته وتستقيم معه إشارات الغيب التي تتلقاها روحه من حين لآخر فالإنسان لا يستطيع الركض نحو احتمالية ما دون دراية بما يتبعها فهو في غالب الأحيان يحدد أهدافًا وغايات تكون بمثابة منتهى الأحلام لديه في فترة من فترات عمره الثلاث ويستطيع نسيان كل شيء عن ماضيه إذا أراد ويستطيع أيضًا نسج الخرافات وتمزيقها ونحت الأصنام وتحطيمها وإعلان الحرب وإفشاء السلام إذن يُمكنه تحريك دفة الأيام كما يريد ورسم خرائط للمستقبل بالغة الوضوح إن توقف عن الوقوع في نفس هوة التجربة التي مر بها في الجنة.. تجربة التمرد ولذة الاختيار الخطأ والتقدير العبثي للعواقب!.. لكن هناك نوعيات من البشر من الصعب عليها تحديد وجهاتها وتقديم تفسيرات مقنعة عن أعمالها فهي لا تدري أين تذهب وتحت أي سقف تسكن؟.. ولماذا تعمل ولصالح من تعمل ومتى تستريح من العمل؟.. إنهم يتصرفون تمامًا كعاشق ذبلت أجفانه حزنًا ولذلك (فموسى) سيُراقب كيف تسري الأمور جيدًا قبل أن يلتحق بأضرحة وساحات تلك المدينة التي وردت في رسالة جدته على أمل ألا يجد الحب فيها يخضع لقوانين الاشتباه والطوارئ السائدة في مدينته منذ عقود وأن يجد أطفالها يرسمون في صفوفهم المدرسية سماء صافية وقمرًا فضيًا وبيوتًا واسعة ومساجد ضخمة مآذنها من الذهب وشوارع خالية من عساكر الدرك تفوح منها روائح البرتقال ورغم أنه لم يستغرق الوقت الكافي للبحث والتنقيب عما يُمكنه تفسير رؤياه بأكبر قدر من الوضوح إلا أنه خلال ذلك مر وقت طويل وأعقبته أيام عدة ربما تتخطى العشرة أيام ولكن خلال تلك الفترة عاودته آلام الرأس بأوجاع مضاعفة وكأن داخل جمجمته دبيب

نمل لا ينتهي أو طنين نحل لا يُمكن إسكاته وأصبحت القدرة على الإبصار بدون نظارات طبية أمرًا مستحيلاً ففي وقت سابق كان يستطيع أن يرتديها حسب الحاجة ولكن الآن أصبحت أمرًا حتميًا ولكنه أيضًا رغم كل تلك الأعراض أهمل أية نية للفحص الطبي واكتفى فقط بالتحضير لترحاله الأكثر غموضًا لاستكشاف ما يُمكنه أن يُخبئه القدر في جعبته فهو لم يُرسل جدته حاملة رسالة على جلد غزال مدبوغ إلا لعلة ما وهذا ما سيتضح خلال الأيام القليلة القادمة فحتى وإن كانت رحلته لتلك المدينة دربًا من العبث فلا يُمكنه الانتظار لمعرفة الترجمة الكاملة لمعاني ما طُبع على جلد الرسالة فهو أصبح هائمًا في فضاءات روحه منسابًا مع دوامات ثقوبها يهتدي عبر الطرقات بعيني تلك الفتاة التي ارتعشت لها أوصاله شوقًا في الصباحات الدفيئة ليصبح كل ما سواها عدم ينبت من عدم وحتى ماء المطر في نظره أصبح يهطل فقط فوق الآبار ذات القيعان مطموسة الملامح دون أن يُتاح للرُعاة أن يرتشفوا منه بمقدار كف واحد إنه فقط يؤمن بالرب وبها وكل ما دونهما ليس ثابتًا.. كل ما دونهما سيتغير فمن الممكن أن يكون الشيء ونقيضه في ذات الوقت حاضرين أمامه ولا يهتز له جفن ولن تتسع أحداقه اندهاشًا لأنه ببساطة يعلم أن العالم في الأصل خُلق من أجلها عندما كانت لا تزال نطفة في صلب آدم فالإله عندما يخلق الجسد يخلق معه الروح والحب أيضًا ولأن العالم يدور في راحة أكثر الناس نقاءً بعد الأنبياء فهي بالتأكيد خلقت لذلك فالحب الذي يسكنها منذ خُلقت يُعد أصفى أنواع النقاء وأطهرها ولهذا فهو مؤمن بأن الأراضين السبع والسماوات السبع خُلقت لمن هم على هيئتها أولئك الذين لا تؤثر فيهم أزمة إيمان ولحظة تشكك بل تتحول حيرتهم لرابط أقوى مع

الرب ولهذا فعندما تقع في عشق مثيلتها كن مستعدًا لإخراج العقل من المعادلة لأنه ستسلبه ولن يستطيع بأية حال أن يسبقها بخطوة وكل محاولاتك بأن تكون تصرفاتك غير متوقعة ستفشل لأنها لن تسترسل في تفحص أغوار ذاتك ولكنها ستمتلكك دون وعي منك أو إرادة وستتبعها لا بقلبك ولكن بالجزء المُنير من روحك وعلى أية حال فمثيلتها رُبما ستُخلق بعد مائة عام من الآن وذلك لأن القديسات نادرات الظهور وهي منهن.. إن (موسى) في حقيقة الأمر يعيش في بُعد سري موازٍ لما نحن فيه فيتخيلها ليلاً ترتدي قناعًا لامعًا وثوبًا يُخاط للحور فقط وتقف وسط براح لا يحده سور ولا خطوط مرسومة على الأرض تحدد الملكية ويزاحمها رجال ونساء آخرون كلهم يرقصون على مهل إلا هي تقف بثبات وتنظر له من خلف القناع ربما لأنها تعلم بأمر حبه الذي خبأه داخل معاطفه القديمة أو لأنها تريد منه التقدم لأخذ خطوة أكبر نحوها رغم المسافات والآلام والرفض وتكسير أجنحة روحهما!!.. إنه أحيانًا يُحاول أن يكتب مقالاً أو خطابًا مستفيضًا ليُرسله إليها لتقرأه ليخبرها شيئًا واحدًا فقط أن كل ما حدث بينهما في زمن الحب أو في زمن القطيعة قد وقع بفعل السحر.. نعم فالحب أفضل أنواع السحر العتيقة تأثيرًا.. وسيخبرها أيضًا أنه لم يلتزم معها بقواعد في علاقتهما فالعشق المرتبط بصيغة افعل ولا تفعل من الممكن أن يُسبب ضمور القلب فالقواعد التي تودي بك للهاوية ما قيمتها وقد تكون أصح قاعدة هي عدم اتباع أية قاعدة على شاكلة ما سبق ولذلك فقد كان معها عفوي وربما كان غبيًا أو ساذجًا أو وقحًا فلتصفه بما شاءت ولكنه أيضًا لم يوهمها لأنه يمتلك مقاييس الحياة التي ينبغي أن يحياها عاشقين ولكنه على أقل تقدير امتلك مقاييس الاعتذار عن ألم تسبب به وإن

مات الآن فإنه سيغمض عينيه للمرة الأخيرة بضلوع نبتت عليها أوراق الأوركيد.. وخاتمة ما سيخبرها به أنه حتى لو تبدلت الأزمنة وتباعد الجسدين وأصبح كل منها مصلوبًا على طرف منحدر فإن حبهما سيبقى وساعات الثرثرة الطويلة بينهما ستبقى وأعوام الملح والدراق التي عاشاها سويًا هي أيضًا ستبقى.. وبعد أن عقد العزم على الذهاب لقونية اقتطع تذكرة سفره بعد أن أنهى جميع إجراءات المغادرين المملة خلال أربعة أيام متتابعة بعد حصوله على تأشيرة دخول الأراضي التركية بالإضافة إلى أنه لم يُخبر والده سوى ليلة سفره ولكن والده أصبحت لديه الثقة الكافية التي يُبارك بها أفعال نجله الوحيد ولذلك لم يُبدِ أو يستعرض أي موانع وعندما استفسر عن مدة الغياب أجابه (موسى) بأنها ربما لن تتخطى حاجز الأسبوع على أقصى تقدير ولم يعد أمامه الآن سوى إدارة مساحة حقائبه الفارغة ليملأها بما يُناسب رحلة كهذه خاصة أن تركيا ذات أجواء متقلبة وشوارع أنقرة الواسعة المطيرة ليلاً تبتلع الأجساد الوجلة مصطكة العظام.. وقبل السفر بساعات أراد أن يُفرغ مساحة لبعض الكتب بجوار ملابسه المنتقاة بعناية.. لقد أراد أن يؤمن رحلته جيدًا فحتى إن كانت فارغة من الرفاق فهو يمتلك منهم الكثير في حقيبته.. فتحرك نحو مكتبه بهدوء وجلس على كرسيه يتأمل ما هي الكتب المناسبة لرحلة طويلة تتبعها أيام من البحث عن ضريح ومُعلم؟ ربما روايات (باولو كويلهو) قد تفي بالغرض أو ربما (جارسيا ماركيز) يكون له رأي آخر.. المساحة في الحقيبة ضيقة ولا تتسع سوى لثلاثة كتب متراصة عموديًا ولهذا فهو سيكتفي بكتاب لباولو وكتاب لجارسيا وأعتقد أن هذا تصرف حكيم ليكسب رضاهما وحتى لا يسافر ويتركهما يتصارعان فوق سطح مكتبه الخشبي.. اختار

"الخيميائي" للبرازيلي ليبقى دائمًا هناك شيء يحمل رائحة مصر في الحقيبة فقد كُتب عنها بشغف داخل هذه الصفحات.. أما الكولومبي الثائر فقط اختار له "مائة عام من العزلة" ربما لأنه يسعى الآن ليحيا مائة عام مطابقة لعنوان تلك الرواية.. ولكن ظل هنالك مكانًا واحدًا فارغًا لكتاب أخير.. الحيرة تعتريه!!.. في الحقيقة هناك أكثر من كاتب يستحق مرافقته جنبًا إلى جنب في رحلته وشيكة الإقلاع.. أخذت عيناه تتفحصان الأدراج جيدًا فهو يؤمن أن الكتاب الراغب في مرافقته سيناديه.. سيقفز من مرقده نحو المكان المخصص له في الحقيبة.. وبالفعل هذا ما حدث.. سقطت بعض الكتب عن سطح المكتب نتيجة للاهتزازات التي يُحدثها (موسى) بحثًا عن كتاب أخير منشود.. فظهر فجأة كتاب ذو غلاف أزرق أنيق كُتب عنوانه بلون شمس ساطعة.. "آنا كارنينا".. نعم ها قد أفصح "ليو تولستوي" عن نفسه أخيرًا.. الروس يا عزيزي دائمًا ما يظهرون في الوقت والمكان المناسبين تمامًا والكونت تولستوي ليس روسيًا تقليديًا بل هو عميد فلاسفة روسيا القيصرية.. أمسك (موسى) بخلاصة نضج الكونت الروائية ليضعها في الحقيبة ليتمم بذلك مراسم الاقتناء فقد اصطفى ما يُريد من رفاق ولكن هناك شيء يُحدث انبعاجًا داخل صفحات الرواية.. قام بتقليب الصفحات سريعًا ليرى السبب.. فإذا به يُحدق نحو ذلك الشيء بأسى متفجر وكأنه يُقدم بالغ مواساته عند شاهد قبر لأحد الرفاق.. مد يده وأخرج ذلك الخاتم الفضي المختبئ داخل جيوب أقمصة أبطال الرواية الروس.. هذا الخاتم رغم ركاكة تصميمه كانت رمزيته أغلى بكثير من تاج إليزابيث الثانية.. فهو كان بمثابة الميثاق بينه وبين (أميرة).. يتذكر جيدًا عندما توطدت علاقتهما حتى وصلت لأعمق نقطة

ممكنة.. حدث ذلك في صيف ٢٠١٣ أي قبل ثلاث سنوات من الآن.. عندما طلب منها شيئًا يربطهما للأبد.. شيء لا يموت بموتهما.. فأخبرته أنه ربما يجب عليه شراء خاتم لا يُخلع عن إصبعه مادام حيًا ليتذكرها كلما نظر إلى يده وكلما أحكم قبضته على شيء ما.. ولكن الخاتم خُلع!!.. هذا في حد ذاته مأساة ولكنها ليست أكثر وجعًا من مأساة فقده لها التي يحاول أن يبتلعها كل صباح.. فهو يبحث عنها كطفل أفلت يد أمه وسط الزحام.. ولك أن تعرف أن رحلة البحث تلك تستمر لمدة خمس دقائق يوميًا دون وعي حينما يستيقظ من سُباته الذي غالبًا ما تتخلله أحلام عنها.. آسف ليس غالبًا ولكن دائمًا.. ويبدو أنه عقب انفصالها عنه في المرة الأولى.. اقتلع الخاتم من بين أصابعه ووضعه داخل صفحات تلك الرواية والمثير للشفقة أن خاتمه اختار الاستقرار فوق تلك الفقرة من هدير سرد تولستوي حيث يقول:

– "حطمتني الكارثة يا عزيزتي فأمسيت شبح رجل!! إنني الآن أخاف من كل شيء بل من نفسي فما العمل؟"

حقًا إن الأقدار لا تفتعل العبث فوضعية الخاتم فوق تلك الفقرة أكاد أجزم أنها مُقدرة قبل خلق السماوات والأرض.. فهذا ما أصبح عليه فعلاً محطمًا خائفًا يخشى حتى من ظله.. وبعد طول نظر وصمت اتخذ قرارًا قد يكون شجاعًا ولكنه خيانة كبرى لذاكرته التي تجاهد في سبيل النسيان.. طعنة خنجر لن تسامحه عليها أوردته أبدًا.. قرر أن يُعيد الميثاق إلى إصبعه مرة أخرى.. وفعل!!.. وبعد دقائق شعر وكأن مسام جسده تنزف دمًا.. أو أن قرونًا حادة لثيران متصارعة تخترق رئتيه.. عض على شفتيه متحسرًا وأمطرت عيناه للحظات.. لم يبكِ ألمًا ولكنه بكى آسفًا على وعود خُذلت وآمال أُغتيلت

في المهد.. ولهذا فإن البعض يعتقد أن الحب لعبة خطيرة أحد القلبين فيها خاسر.. والبعض الآخر يعتبره قلادة من الفيروز أو تاجًا من الشوك.. هكذا هو في نظر العالم.. ولكن الثابت أنه لا يجب أن يجتمع الحزن والحب في قلب واحد وإن اجتمعا فسقر ربما ستكون أقل حرارة من جدرانه.. أشار إلى صدره ووضع عليه راحته ثم تمتم بكلمات لم تسمعها أذنيه وكأنه يقول:

– باقية أنتِ في باحتي هنا بين الضلوع مادامت السماء تحتفظ بنجومها.

ثم توجه نحو حقيبته بخطى متثاقلة ليُنهي ما بدأه من تنسيق لعله يجد في سفره المُعزي الذي يُعيد إليه ما سُرق من روح.. وفي الصباح الباكر لليوم التالي الموافق ليوم جمعة ارتدى ملابسه بأناقة ملفتة وكأنه سيذهب لعرس أحد الأصدقاء فربما يجب علينا مواجهة المجهول بأحسن صورة ممكنة فيقال أن جمال الهيئة تجلب سعة الرزق وتمنع الحظ السيء ثم وضع جواز سفره داخل جيب بنطاله وأحكمت يده تطويق مقبض الحقيبة فسحبها خلفه بهدوء وذهب ليُلقي نظرة سريعة على غرفة والده الذي وجده مازال نائمًا فلم يشأ أن يوقظه فأغلق الباب بأقل صرير ممكن وخرج نحو بوابة المنزل قاصدًا محطة الحافلات العاملة على طريق القاهرة الإسكندرية الصحراوي تلك المحطة المجاورة للبناية السكنية القاطن بها ذات الصيت الذائع لما تمتلكه من أسطول حافلات حديث ومجهز بجميع الكماليات كخدمات الإنترنت الهوائي وغيرها من الكماليات وبعد أن وصل للمحطة انتظر نحو الخمس دقائق إلى أن مرت أول حافلة فاستقلها متوجهًا نحو مطار القاهرة الدولي ليستقل بعد ذلك طائرته المُقلعة نحو أنقرة في تمام الواحدة ظهرًا بالتوقيت المحلي ولكن خلال تواجده في الحافلة لفت نظره شاب يجلس متكورًا بوضع جنيني غريب

مغمض العينين ويبدو أنه نائم في الكرسي المجاور للنافذة فسأل مفتش التذاكر إن كان هذا الرجل طبيعيًا فهذه جلسة لا توحي بسلامة القوى العقلية لصاحبها فاقترب منه المفتش ومال على أحد كتفيه ثم تهامس معه سرًا بما هو أغرب حيث قال:

– إن هذا الشاب له قصة فريدة في تفاصيلها حيث إنه يُعاني بعض الأحيان من اضطرابات في الإدراك وتشنج عضلي ظاهر أو يُمكن توصيفه كنوع من أنواع الصرع بالإضافة إلى صعوبة في النطق.

– أهذا الرُهاب حالة نفسية أم نتاج صدمة عاطفية أو اجتماعية؟

– هذه قصة طويلة ولكن على كل حال اسمه (آدم) وهو دائم السفر معنا على نفس خط السير هذا منذ عامين كل أسبوع يذهب لزيارة مقابر والديه وشقيقته في القاهرة حيث انقلبت بهم السيارة التي كان يقودها ولظروف كشف ملابسات سبب الانقلاب المروع ثم تشريح الجثث وتأخر إجراءات الطب الشرعي تم دفنهم بالقاهرة لعدم وجود من يستلم جثثهم في الإسكندرية فحتى هو دخل في غيبوبة طويلة قرابة السبعة أشهر ثم أعقبها عام كامل قضاه في مصحة نفسية ليجدوه كل ليلة ينام على هذا الوضع وكأنه يحتمي بنفسه من خطر ما أو ربما يتوحد مع ذوات تُحيط عالمه لا نعلمها.

– هل يُمكنني الحديث معه؟

– (آدم) فقد القدرة على النطق خلال مرحلة الغيبوبة ولكن يُجيد التواصل بالإشارة بطريقة مذهلة وكأنه ولد أبكم ولكن الأفضل أن تدعه نائمًا فإن أيقظته ربما سيلتزم الصمت لساعة ثم سينام مرة أخرى.

عاد مفتش التذاكر لوضعيته السابقة منتصب القامة وتقدم ليجلس على كرسيه المخصص بجوار السائق وخلال الساعتين المتبقيتين من الطريق نحو القاهرة ظل (موسى) ينظر (لآدم) الملتحم بنفسه والغني بها عن بقية البشر فقد اعتبر أن هذه المصادفة في حد ذاتها علامة فهو ذاهب لضريح يجلس أمامه مُعلم ليكتفي بنفسه عن العالمين وبذات الوقت يجلس في طريق سفره مع شخص اكتفى بالتكور داخل نسيج أفكاره الخاص دون أن يكترث بالبقية فلا ثرثرة جانبية مع الغرباء باتت تستهويه ولا رغبة في تعويض ما خسره أشعلت جذوة آماله.. فقط الزهد والاتحاد مع الموتى هو ما يسعى لأجله حتى وإن كان مرغمًا لا مُختارًا.. وبعد أن توقفت الحافلة أمام الركن المخصص لبوابة المُغادرين تحرك (موسى) بخطوات سريعة نحو ضابط أمن البوابة ليفحص أوراقه ثم يدعه يمر وهذا تكرر مع ضابط الجوازات قبل دخوله لقاعة انتظار الإقلاع حيث جلس مُنتظرًا قدوم الحافلة المخصصة لنقل المسافرين إلى سُلم الطائرة على كرسي معدني بارد فسرت قشعريرة لطيفة أعلى ظهره ثم بعد حوالي ربع الساعة توقفت الحافلة أمام بوابة قاعة الانتظار ثم استقلها وصعد على متن الطائرة المتوجهة لأنقرة وخلال الاستعداد للإقلاع جلس بجواره رجل ذو هيبة يبدو ظاهرًا على ملامحه الورع بجلاء فأحب (موسى) مجاورته دون أن يتكلم معه طوال الرحلة ولكنه شعر بأن هذا الرجل يُلقي في روعه ما هو أثقل من أن يُحكى بألسنة البشر عندما ينظر إليه ثم يبتسم ولكن في نهاية الرحلة حدث شيء مثير لكل أنواع الاحتمالات داخل عقله فعندما هبطت الطائرة في تركيا استبقه الرجل الأشيب في النزول لأرض المطار ولكنه ظل

منتظرًا حتى يحين دور (موسى) ليفعل مثله ثم اقترب منه بخفة لا تناسب رجلًا في سن الستين أو ربما أكثر وعندما دنا من أذنه همس (لموسى) قائلاً:

– عندما تصل لقونية اذهب لضريح مولانا وستجد المُعلم هُناك.. انطلق دون أن تنظر للخلف لأن المُريد ليس فضوليًا ولا يكترث بوسيلة الوصول بقدر ما يهتم بالوصول ذاته.

وبطريقة ما لم يلتفت (موسى) للرجل الواقف خلفه وبطريقة ما أيضًا سحبته قدماه لبوابة الخروج من المطار.. هو الآن في أنقرة والسماء ربما تُنذر بليلة ماطرة فزرقتها اليوم أغمق من المعتاد وهذا يدل أنها تختزن قدرًا لا بأس به من الماء ولكن (موسى) لم يهتم لأحوال الطقس بل انصب كامل تركيزه على شيء واحد فقط وهو كيف يصل لقونية بأسرع وقت ممكن والأهم أن يجد ضريح مولانا بسرعة أكبر فدفعت إحدى قدميه أختها للأمام وظل يمشي مُسرعًا بطريقة أقرب للركض ناظرًا لخريطة صغيرة لأحياء أنقرة حتى وصل أخيرًا لمحطة الحافلات ليسأل عن الطريق المؤدي لقونية حيث كل المُعضلات تُحل هُناك ويرسو على أعتابها قلب كل مُريد فصعد للحافلة التي ستُقله لمحطة القطارات المركزية التي سيستقل منها قطارًا نحو قونية مباشرة فاقتطع تذكرة فئة الدرجة السياحية فور ما وطأت قدماه أرض المحطة ثم دون أن ينظر خلفه توجه نحو القطار المسترخي على قضبان حديدية ينتظر موعده المحدد للانطلاق فعبر (موسى) بوابات التفتيش ثم دخل أول عربات القطار ليبحث عن المقعد رقم سبعة ذلك الرقم الذي اعتبره الإغريق رمزًا للكمال فكل شيء مُسبع الزوايا قد يبدو للوهلة الأولى منحرفًا هندسيًا ولكن إن تمعنت النظر فيه ستجده قد اكتمل بهاءه فحتى السموات سبع والأراضين

سبع ودركات الجحيم سبع ودرجات الجنان سبع وربما سيكون من الجيد أن يبدأ رحلته نحو الضريح الراقدة بجواره طلاسم لا تُحل إلا إذا استشفها قلب مُريد وما إن تحرك القطار حتى غاب في النوم حتى وصل لقيعانه فرأى محبوبته تقترب منه بشدة حتى أنه لم تعد هناك مسافة كافية بينهما ليمر منها كف رضيع فسألها قائلاً:

– لمَ حضرتِ؟

– لم أحضر ولكنك ناديتني فلبيت.

– ولكن لا أعتقد أنني فعلت!

– أتُريدُني أن أُغادركَ؟

– لا ورب السماء بل ظلي هُنا حيث أنتِ.. فليس في الدُنيا ما هو أكثر طهرًا من رائحتكِ.

– أتشتاقُني؟

– أيُسأل قتيل الهوى مثل هذا؟.. كيف لا أشتاقُكِ وعندما يُذكر اسمكِ تتفصد روحي ولهًا وينفلت من يدي زمام نفسي ولكن أخبريني أهذا حُلم؟

– لا.. بل حقيقة جلية.

قالت ذلك وهي تُغمغم بصوت رائق لم يسمعه منها من قبل فأرخى جفونه أمامها كسكير ثمل ليدع أذنيه تغرقان في نشوة صوتها فابتسمت وطلبت منه أن يفتح عينيه لتنظر فيهما فهي اشتاقت لمطالعة حدقتيه المكسوتين بلون شمس الظهيرة فقالت:

– افتح جفنيك ودعني أنظر لبحيرتي العسل الصافيتين المخبأتين خلفهما.. فهذا أكثر ما اشتقته فيك.

– لا أستطيع فأنا لن أمنع نفسي من الحملقة بجبال الفردوس الخضراء في عينيكِ المسكونة بملائكة صغار ومردة رُهبان في دير وسيع وكأنه مشيد تحت عرش الرب ليقضوا فيه أعمارهم رُكعًا يسبحون بحمده.

– أما زلت تُحِبُني؟

– طالما ما زلت أتنفس فنعم.

– هذا يشق عليك ويجعل منك بقايا جسد.

– وهل تظنين أن البُعد عنكِ فيه النجاة؟

– قد يُكتب لك لقاء مع من هي أفضل فالتعلق بشيء ليس مُقدرًا لك سيجعلك تقترب لتُكمل به نصفك الفارغ ولكنك ستعود بعد ذلك ناقصًا أكثر من ذي قبل.

– أتعلمين.. لم أرَ في حياتي من هو أكثر حنانًا منك ولا هو من أكثر قسوة أيضًا.. فحتى في الرؤيا تتمنعين عن المغفرة لي وكأنني أقمت علاقات مع جميع نساء الأرض دون علمكِ؟

– قلت لك سابقًا.. الخذلان يا (موسى) يُمكنه كسر أعتى قلوب العاشقين تشبثًا بالمحبوب.

– وإن اعتذرت مجددًا أيكن لي متسعًا في قلبكِ؟

– لم يعد لك في قلبي موطأ قدم ولكن هو الحنين الذي لا أستطيع مداراته ولا تسألني كيف أحن لمن خرج من قلبي باختياره ولكن الآن عليك أن تنظر للأمام فهناك مُعلم ينتظر قدومك فلتسرع يا مُريد.

ثم مسحت بيدها فوق عينيه فإذا به قد استفاق من نومه وقرأ على الجانب الأيسر من النافذة لافتة زرقاء كُتب عليها (كونيا) أي قونية باللغة التركية

فاستعد للهبوط أخيرًا في أرض مولانا ثم غادر مقعده في القطار وظل يبحث بين الناس عمن يُمكنه أن يصف له الطريق نحو مبتغاه ولحسن حظه صادفته فتاة تركية آية من آيات الرحمن في جمال الخلقة لها عيون فيروزية لامعة وبشرتها تكاد تكون أنصع بياضًا من الثلوج المُرافقة لأعياد الميلاد نهاية كل عام بالإضافة للذلك فهي ترتدي زيًا محتشمًا فضفاضًا فأشارت إليه أن يقترب منها فتلفت حوله ثم أيقن أنه هو المقصود ثم سحبته قدماه نحوها عنوة ثم قالت بلغة عربية ركيكة:

– هل أنت عربي؟

فأجابها (موسى):

– نعم أنا عربي.. وصلت اليوم لتركيا قادمًا من قاهرة الجيوش والأمم.

فابتسمت الفتاة ثم هزت رأسها وقالت:

– إذن أنت مصري؟

– نعم هذا صحيح.. أصبتِ للمرة الثانية.. ولكن ما اسمكِ؟

– اسمي (فاتيما).

أي (فاطمة) بالعربية ولكنها قالتها بلهجة قونية قحة فخرج اسمها بسحر خاص من بين شفتيها فكان أعذب ما قد سمعه قط.. ثم نظرت في عينيه وسألته:

– أتريد أن تجلس في حضرة مولانا؟.. أتريد الذهاب للضريح؟

اندهش (موسى) لما قالته وبادرها سائلاً:

– من أدراكِ أنني أُريد الذهاب للضريح؟

فضحكت بلطف حتى بان بياض أسنانها وقالت:

– الجميع يعرف أنك قادم حتى مولانا يعلم بقدومك.. ولكن الشيء الأهم أن تعمل بالوصية التي سمعتها همسًا في أذنيك ولا تسأل فقط امض حيث رُسم لك الطريق.

ثم أشارت له بأن يذهب نحو رجل ذو بنية قوية ولحية صهباء كثة وشارب منتظم الحواف خفيف أصهب كذلك يقف بجوار سيارة أجرة قد تبدو متهالكة للوهلة الأولى ولكن عندما يدنو منه يقل له بلغة فصيحة:

– حيث توجد العمامة الخضراء توجد الشمس.

رغم أنها جملة غامضة لم يجد لها معنى ولكنه ذهب إلى حيث أشارت له دون أن يلتفت للخلف أو دون أن يسأل وعندما اقترب من الرجل أبلغه الرسالة فأشار له بالركوب وسار به في وسط طرقات قونية الهادئ منها والمزدحم حتى توقف أمام صرح كبير يبدو كمتحف فخم أو مسجد عتيق بُني بمهابة وأردية لا باختلاط تراب وأحجار وماء وطوال هذه المدة داخل السيارة لم يتكلما قط وقد يكون هذا أفضل فهو تعلم مما سبق ألا يسأل ولا يلتفت للخلف فهكذا تُريد منه تلك القوى العلية التي جلبته من بلاده هائمًا مشتاقًا وبعد أن توقفت السيارة بالكامل في الركن الخاص بمركبات الزوار فتح الباب وغادر السيارة بهدوء ثم خطا نحو ضريح مولانا بتؤدة وشعر أن روحه تكورت داخله وذابت وسط الفضاءات الفسيحة لهذا المزار فوقر في قلبه أنه لا شيء بحضرة مولانا وكأنه ريشة سقطت من ذيل طاووس على شاطئ يلطمه البحر بإعصار كل يوم مائة مرة أو كأنه حبة خردل يابسة تذروها الرياح فشعر أن قدميه ليس بينهما وبين الأرض مساس فلا وزن له ولا كثافة تذكر وترك حقيبة يده خارج باب المسجد في قسم الأمانات التابع للمبنى ثم أكمل خطاه

ليدخل في صحن المسجد ووقف ورأسه محني بجمود تام تحت قبتيه ذات المآذن الثلاث المبنية من الصخر آجري اللون وتظهر بجوارهما المئذنة الرابعة الزرقاء المتفردة ذلك المسجد الذي يضم بعضًا من ألبسة مولانا (جلال الدين الرومي) وعمامته الخضراء وضريحه وكل ما كان يستخدمه من أقلام وأوراق وعمائم مولوية أسطوانية مستطالة لتوازن حركة المُريد حين يتحد معها ويدور حول مركزه لينفض عن نفسه كل ما علق به من درن الدنيا وعندما يصل للحظة الانتشاء سيتوقف ليُكمل ثوبه الأبيض الفضفاض دورته فيلتف على قدميه بينما رأسه سيكون ثملاً ممتنًا ومن ثم يسقط ممددًا على الأرض لا يُريد حينها من الدنيا شيء إلا أن يجلس على عتبات عمره يفكر في أمر آخرته فلحده لا يخيفه فكل جسم من طين سيتعفن لا محالة ولكن روحه لن تفعل وفجأة وجد نفسه وجهًا لوجه أمام الضريح الموصوف فازداد صمتًا على صمته وانتابته رعشة خفيفة كتلك التي تنتاب العشاق عندما تشتبك أياديهم سويًا لأول مرة ثم التفت حوله فلم يجد سوى رجال ذوي لحى طويلة مهذبة جالسون أرضًا يبسملون ويحوقلون بأصوات عذبة ولكنه أعاد تفحص الجالسين على امتداد طول المسجد وعرضه فلم يجد من يبحث عنه أي المعلم الجالس أمام الضريح ولكن بعد دقائق رفع أحد الجالسين رأسه ونادى عليه بلغة عربية رصينة قائلاً:

– لقد تأخرت يا (موسى)؟

فالتفت إليه فإذا هو شاب في منتصف الثلاثينات من عمره أبيض البشرة أشقر الشعر ذو عينين زرقاوين ليس له لحية ولا شارب وكأنه تمثال من الشمع

لقيصر من قياصرة روما القديمة ويرتدي زيًا بسيطًا غير ملفت فكل ما يغطي جسده مجرد عباءة رمادية وتحتها جلباب سماوي قصير ثم أشار (لموسى) بأن يأتي ليجلس بجواره ففعل ما أراده وبعد أن استراح في جلسته بادره (موسى) بسؤال مباشر:

– أأنت المُعلم؟

فأخفض الرجل رأسه لأسفل ونظر لمسبحته ثم قال:

– من ناداك لتأتي هُنا قد مُنح سُلطانًا إلهيًا خاصًا يُمكنه من مناداة العاشقين ليتجمعوا حوله ليُذهب عنهم البأس بأمر الله.

– إذن لست أنت من أقصده؟

– من تقصده يا فتى أكبر مني وأعلم وليس من اللائق أن تنطق اسمي واسمه في جملة واحدة.

– إذن أخبرني من هو ومتى سأقابله وأين؟

– إن كان الحب يغزو قلبك حينما تُريد فالإجابات ستُعرض عليك حينما تُريد أيضًا ولكن هذا لا يُمكن أن يحدث ولكن يجب عليك أن تستخلصها إما بالانتظار أو بالتبتل.

– ولكن ليس كل عاشق جدير بما يحمله في صدره فكيف أعلم أني ممن يستحقون؟

– عندما لا تُريد من حُبكَ هذا إلا وجه الله فأنت حينها تستحقه.. وعندما تذكر من تُحب بالخير غيبًا دون أن تبغضه ولو لطرفة عين فأنت تستحق أن يُناديك المُعلم وتستحق وجودك هَنا.

– إذن على الأقل أخبرني من أنت؟

– أنت تسأل كثيرًا وهذا يوحي بالحيرة التي تعتريك وذلك لأنك لم تُجرب أن تكون عبدًا ربانيًا فانيًا في ذات الإله حبًا وتقربًا وشغفًا لا خوفًا من عذابه ولكن طمعًا في رحمته.

– ولكني لا أعرف بماذا أُناديك يا سيدي؟

– أنا الباب يا مُريد.. أنا (حسام الدين) نقيب مولانا وخادمه وبابه.

صمت الرجل وراح يسبح القدير في استغراق طويل و(موسى) جالس إلى جواره متحيرًا لم يفهم كلمة واحدة مما قاله للتو ولكنه ظل يُراقبه حتى حل وقت صلاة العشاء فانتفض وذهب ليتوضأ فتبعه (موسى) ومن ثم عادا ليصطفا متجاورين لتأدية الفريضة وبعد الركعة الرابعة سلم (موسى) يمينًا ويسارًا وجلس في ركن بعيد عن المُصلين ولكن (حُسام الدين) مازال مستمرًا في الصلاة وخلال مراقبة (موسى) له غاب عن نظره بصورة مريبة ولم يشعر به إلا وهو جالس إلى جواره فتنفس بعمق ثم قال:

– اسمع يا مُريد.. إن العباد لا تتغير ولكن طبائع قلوبهم هي من تفعل فتتحول النفوس من حال إلى حال بأمر ذي الجلال.. إن كل قلب انتقل من ظلام الشهوة إلى نهار التعفف لابد له من سبب يُرافقه فإن لم تره ظاهريًا فافهم وجوده بظهور آثاره.

– لم أفهم؟.. كلماتك تجعل من السؤال الواحد ثلاثة وتجعل من قطرات الحيرة في عقلي محيطًا أنا هنا لأجل الإجابات لا الأسئلة.

– قم واجلس في أي ركن آخر من المسجد واكتفِ بنفسك عمن سواك واعتزل الناس قدر ما تشاء من ساعات وسبح رب العالمين حتى يعجز لسانك

فإن توقف عن الذكر فانتقل إلى حُجرات فؤادك وأقم فيها شعائر العبادة لرب العرش العظيم.. افعل ذلك حتى ترى برهان مولاك.

ذهب المُريد ليفعل ما أُملي عليه دونما اعتراض وكأنما يُساق إلى ذلك الركن قسرًا فجلس بهدوء ولم يبتعد عن شيخه كثيرًا.. فصمت (موسى) طويلاً وظل ينظر نحو النقيب الذي انفصل عنه وأخذت نبراته تعلو بأذكار إلهية تُذيب القلب من فرط عذوبتها تجعل (موسى) يخر مغشيًا عليه تُرافق أنفاسه المتصاعدة هيبة وقشعريرة نابعة عن محبة لا يدري كيف زُرعت فيه وبعد ثوانٍ شعر بأن روحه تطفو حتى وصلت إلى سقف مسجد مولانا كان يرى المصلين من الأعلى.. كان يرى شيخه ينظر إليه ويبتسم ثم يعاود الابتهال في خشوع.. وشاهد أيضًا جسده المُتصبب عرقًا راقدًا دون حراك بذاك الركن ولكنه لاحظ شيئًا لم يره بعيون جسده ولكن رآه ببصيرة قلبه.. إن المصلين لا يعيرون اهتمامًا (بحسام الدين) وكأنه غير موجود؟! وكأنه طيف لا جسد له؟!.. ولكن ليس ذلك بالأمر المهم الآن فروحه تتابع الطفو والارتفاع وتنفذ من بين جدران المسجد إلى أعلى. إنها تقترب من السماوات بسرعة براق يحمل فوق ظهره ملاكًا أو نبيًا.. (فموسى) الآن يخترق الغيوم ويشعر أنه يستطيع سماع صرير أقلام الملائكة؟! ثم توقف الطفو فجأة ولكنه ظل مُعلقًا بين السماوات يشاهد الأحداث من الأعلى.. لقد تبدلت الأرض غير الأرض والناس غير الناس وكأنما الريح ألقت به فوق أراضٍ غريبة؟!.. لحظة؟!.. ما هذا؟؟.. ملابس الناس؟!.. الملابس تجعله يرتعد تشككًا.. هل ما يفكر فيه ممكن حقًا؟!.. هل يُعقل أن روحه حملته إلى زمن آخر؟! هل هذا هو البرهان الذي تحدث عنه النقيب؟!.. يبدو له أنه مازال في قونية ولكن الأزياء وهندسة

المباني وتخطيط الأسواق يُعيد إلى ذهنه مشاهد القرون الوسطى هذا إن لم يكن يراها فعلاً الآن.. جلابيب مزركشة طوليًا وعمائم بيضاء وأحزمة قماشية لربط الخاصرة ولضبط الهندام بشكل جمالي.. الطرقات بالطبع غير مُعبدة ولكن هناك عربات تجرها الخيول تسير بسلاسة دونما إعاقات تُذكر.. يسقط (موسى) عموديًا بسرعة شديدة نحو منطقة مزدحمة يتوسطها سوق شعبي مكتظ.. خضروات وبهارات ولحوم.. يبدو أنه سوق قونية المركزي.. يهبط (موسى) بجوار أحد الحوانيت ويقف على مسافة غير بعيدة من أربعة أشخاص يتكلمون مع من يجاورهم بلهجة تُركية أو ربما أحد مشتقاتها المهم أنه يسمعهم ويفهم ما يقولون بصورة أو بأخرى.. نعم يفهم كلامهم كما يفهم الرضيع إيماءات وجه أُمه ولكن الأربعة لا يعرفون بعضهم بعضًا ويبدو ألا سابق تعاملات بينهم.. أحدهم تاجر يقف وسط حانوته والآخر لص يتحين الفرصة لسرقة رغيف أو ثمرة فاكهة.. أما الثالث فهو إما كبير عيون الدرك أتى لمراقبة أحوال السوق أو ربما كبير تجار المنطقة.. فنظرات عينيه توحي أنه شخص يجيد المُراقبة ويُجيد فن الفراسة فإن كان كبير بصاصي الدرك فهو الشخص المناسب لهذه المهنة وإن كان كبير التجار فهو ذكي بما فيه الكفاية ليُراقب عن كثب حركة الأموال من وإلى السوق.. أما الرابع فيبدو أنه أحد مُريدي الطرق الصوفية.. يرتدي عباءة خضراء باهتة وعمامة شديدة البياض ولكن قامته مألوفة حقًا.. هذا الرجل يقف بعيدًا موجهًا ظهره (لموسى).. يبدو أنه يقف مستندًا على عصاه.. ظل ينظر إليه متفحصًا لفترة كبيرة.. وقطع هذا الاستغراق والتأمل حركة خاطفة لفتت انتباهه.. اللص يقترب من حانوت التاجر ويحاول سرقة ما يستطيع دون إحداث جلبة.. (موسى) غير قادر على

النطق.. غير قادر على تنبيه صاحب الحانوت.. وفي نفس اللحظة التاجر يقترب من إحدى النساء متغزلاً يبدو أنه يراودها عن نفسها همسًا.. وربما كان يقول لها إن رافقته في آخر اليوم سيجزل لها العطاء أو شيئًا كهذا.. الغريب أن السيدة تركته وذهبت في صمت لكن لماذا لم تفضحه؟!.. وعلى صعيد آخر يقترب زحفًا متسول كسيح من كبير التجار أو كبير البصاصين أيًا يكن منصبه.. طالبًا منه درهمًا صدقة أو أي شيء يجود به وينظر له برجاء شديد ولكنه لم يُلبِّ له مطلبه واكتفى بركل الكسيح حتى غطى التراب وجهه.. أما لص الحانوت فهو لم يعد موجودًا وكأنما ذاب وسط الزحام بعدما نال مُراده وصاحب الحانوت أيضًا لم يُلاحظ اختفاء بعض البضائع من حانوته أو انخفاض كومة الثمار التي يعرضها للبيع متباهيًا بجودتها ورائحتها التي تنم عن ثمار طازجة تستحق سعرًا عاليًا بالفعل.. الناس تتحدث فيما بينها بجدل ظاهر عن حزن مولانا (جلال الدين) واعتصامه في خلوته حزنًا على فراق مُعلمه (شمس الدين التبريزي).. اندهش (موسى) وقال في نفسه:

– يا إلهي؟! إذن نحن الآن في عصر مولانا (الرومي)؟! هل يُمكنني زيارته؟! هل يُمكنني الحديث معه؟!

ظلت الخواطر تتهادى إلى ذهنه ولكن ظل ذلك الدرويش الملتحف بعباءة خضراء لغزًا.. حاول (موسى) الاقتراب منه فسار متجهًا إليه برزانة وترقب ثم وضع يده على كتفه وما إن أدار الرجل وجهه نحوه إذ به يغمض عينيه بألم دون أن يرى ملامح الدرويش لأنه وبدون سابق إنذار انفجرت من صدر الدرويش أنوار لا يُمكن لبشري أن يراها إلا وأصابه العمى.. النور يخرج من عباءته.. يخرج من أصابعه ولحيته وقدميه.. سقط (موسى) جاثيًا على رُكبتيه

قد أرهقته الأنوار المنبعثة من كل مكان حوله وبعد قليل شعر بأن بريقها خفت وأصبح بإمكانه الرؤية ففتح عينيه بصعوبة وحاول رفع ثقل أجفانه كرجل غط في نوم عميق وأفاق بعد خمسمائة عام.. وعندما استتب له الأمر وأصبح قادرًا على رؤية كل شيء بوضوح.. بُهت مما رآه؟!.. اللعنة؟؟.. إنها قونية أيضًا ولكن الزمن تبدل.. إنها قونية بتاريخ اليوم؟!.. نفس المنطقة لكن بعدما تم إضافة السيارات الحديثة وإشارات المرور ذات الألوان الزاهية والأضواء المُتقلبة والكثير من الضوضاء.. تلك المدينة التي انبثقت عن طوفان نوح ومر بها (برنابا) و(توما) تلاميذ السيد المسيح واتخذتها المجامع المسيحية الأولى مقرًا إداريًا لها وقام السلاجقة بتحويل المدينة إلى عاصة لمملكتهم الفتية واستقر بها الأتراك واليونانيون والهنود والعرب أيضًا.. إنها مدينة لها عبقها الخاص ولطرقاتها أنين ساحر يجعلك تظن أنها وطنك حتى وإن لم تنتمِ لها يومًا.. ولكن المثير للدهشة هم هؤلاء الأربعة.. نعم.. إنهم هُنا مرة أخرى بملابس حديثة وقصات شعر تُناسب متطلبات وسامة الرجال في هذا العصر.. اللص وصاحب الحانوت وكبير البصاصين وهناك يقف ذلك الدرويش بنفس العباءة الخضراء والعمامة شديدة البياض فهو الوحيد الذي لم يتغير مظهره ولم تتغير أيضًا طريقة وقوفه فمازال (موسى) يراه من الخلف حقًا إن الوضع جد مُحير هل هو في اختبار ما أو أنه في رحلة زمنية غير معلومة الأهداف؟.. الكثير من الأفكار المتدفقة لذهنه تجعله يُطيل النظر نحو الأربعة أشخاص الذين رافقوه في رحلته.. نظر عن يمينه فرأى اللص يجلس بسكينة ليلتقط أنفاسه بجوار سور حديقة عامة بها بعض التعديلات وتحتاج مرافقها للصيانة ويبدو عليه التعب الشديد وكأنه عامل مسئول عن تلك الإصلاحات..

بالفعل؟؟.. هو أحد العمال المسئولين عن خط سير أعمال الترميم في مرافق الحديقة ونظرًا لعدم وجود مسجد قريب من موقع العمل فها هو يبسط سجادة صغيرة فوق العُشب ويؤدي صلاة العصر كما توحي الشمس في الأفق.. عجبًا؟؟.. وعندما نقل نظره إلى الجهة الأخرى من الضاحية مازال التاجر يقف في حانوته.. ولكن هذه الأيام يسمونه "سوبر ماركت".. لحظات ودخلت للمكان سيدة في منتهى الجمال.. وكأنها (فينوس) أكثر غانيات آثينا إغواءً فجمالها يأسر قلوب أشد الرجال قسوة حقًا إنها امرأة تُلين الصخر إن نظرت إليه وها هي تقترب وتفصلها عن التاجر منضدة يوضع عليها حاسوب لتسجيل عمليات البيع والشراء لكن المثير للدهشة أن ذلك الرجل الذي راود فتيات قونية عن أنفسهن في زمن سابق لم ينظر تجاه تلك الفاتنة ولو لمرة واحدة؟ لقد غض بصره بشكل لا يستطيعه إلا ناسك متعبد وصل لقمة الزهد؟!.. أما في داخل الضاحية يقف كبير البصاصين وحوله الكثير من الأطفال يوزع عليهم حلوى وحليب وسكاكر برفق أبوي طاغٍ! وقبل لحظات كان يركل سائلاً كسيحًا! ماذا يُريد من جلبه هنا أن يقول له؟! فجأة شعر أن أحدهم يقف خلفه تمامًا فاستدار وهو يعرف من سيُلاقي.. نعم.. هو الدرويش ذو العصا والعباءة ولأول مرة يتقابل معه وجهًا لوجه فقد كان رجلاً في أواخر العقد الخامس من العمر مليح الوجه ذو لحية مُهذبة جيدًا وذو هندام أنيق على بساطته فصمت لبعض الوقت ثم ابتسم وخاطب (موسى) بصوت رخيم قائلاً:

– هل تعلمت الدرس.. هل رأيت برهان ربك؟

– لا أعلم عم تتكلم؟ من أنت ولِمَ أنا هُنا؟

– أنا مُعلم المعُلم.. أنا شيخ (جلال الدين).

شهق (موسى) باندهاش واضح وارتجفت أطرافه.. لا يعلم أهو محظوظ لهذه الدرجة لكي يُقابل المُعلم الأكبر أم أنه سيخوض اختبارًا لن يستطيع اجتيازه؟!.. مرت ثوانٍ من الصمت قبل أن يتكلم (موسى) فقال:

– (شمس الدين التبريزي)!!.. أهذا أنت؟

– لا يهم يا فتى.. ولكن لتعلم أنك ذو قلب مُحب فقد أخبرني عنك مولانا وانتظرتك وها أنت أمامي الآن– انتظرتني أنا؟ هل حادثك عني مولانا حقًا؟.. كيف ذلك وأنتم بعالم وأنا بعالم آخر؟

– الأصفياء يتلاقون دون حواجز فاصلة أو مسافات مانعة.. كف عن السؤال واسمع ما سأمليه عليك.. الزم الأعتاب أيها العاشق ولا تمل من أن تصغي برجاءٍ عظيم لصوت صرير الأبواب حين تُفتح وادفع روحك مهرًا لمن تُحب.. قم وأضرم نار محبتك في هشيم العالم فلربما كانت رؤاك في عالم الأرواح هي نفسها في عالم التراب فتجعل من العدو صديقًا وبنور نواياك قد يعود الحبيب المُفارق ليصبح خليلاً من جديد.. يا فتى كن صافيًا وتقدم نحو هدفك باستقامة أكثر من حد سكين يقص الحرير.

– ما زلت لم أعِ ما تقصد يا مُعلم؟

– أنت جئت إلى هُنا طالبًا الخلاص من حُب اتخذ من قلبك محرابًا وأضعفك فأصبحت كورقة توت ذابلة.. جئت ولم تؤمن أن أحوال القلوب يُمكن أن تتغير.. جئت لتهرب من فتاة تبعد عنك مسيرة شهور على راحلة.. اختبأت منها في مسجد مولانا وكأن طيفها سيتركك؟ كيف لك أن تهرب مما يتلبسك؟ قال لك النقيب أن العباد لا تتغير أحوالها ولكن طبائع قلوبهم هي من تفعل ولكن تشكك لم يكن ليدع السكينة تنفذ إلى قلبك فقال لك سبح لعلك ترى

برهان ربك.. وها أنت قد رأيت أرضًا غير الأرض وزمنًا غير الزمن وظل العباد هم العباد ولكن طبائع قلوبهم تضادت.. إن قلبك يا مُريد هو مُستقر ذاتك فأحسن إليه بلطيف آمالك ولا تدع للريبة شقًا لتدخل منه وكن معتمدًا على ربك ورب من تُحب ففيه يكمن كل الجمال وجنته مأوى العاشقين واعلم أنه مهما تاهت خطواتك فسوف يصححها المصير.

– هل يمكنني المكوث في حضرتك يا سيدي حتى أتم تحصيل وصاياك؟ هل يمكنك قبولي؟

– إذا استطعت تجاوز آلامك ستستحق مرافقتي وإن فشلت فهذا فراق بيني وبينك.

– صف لي طريقًا.. صف لي ترياقًا يا مُعلم.. أنا أؤمن أنه يمكنك إرشادي لذاك السبيل.

– كن مثل الماء طاهرًا على الدوام.. كن ناسكًا استغرق عمره كله في صلاة واحدة.. في ترتيل آية واحدة.. استعصم بنفسك داخل خلوتك لتنسى الدنيا وتنساك.. اطلب دائمًا المدد من إلهك وقل في كل وقت يا رب ارحم.. تعلم طرق النجاة.. تعلم كيف تكون الناجي الوحيد إذا غرقت سفينتك في بحور متلاطمة.

– كيف لي ذلك؟ إن كان بمقدوري النجاة فلما لم أنجُ منها يا سيدي؟ أنا قتيلها الذي وارته الثرى ولم أجد لخلاصي سبيلاً!!

– سبل الخلاص متاحة إن كنت ذا بصيرة.

– سمعت أن مولانا (جلال الدين) كانت له معك مآثر لا حصر لها.. أؤمن أنه أخبرك كيف ينجو من هو مثلي.. علمني فأنا مُريد جاهل لا حيلة لي.

– لا تقل لا حيلة لي بل قل تركت التدبير لرب كل أمر عسير فالمعضلات خُلقت معها الحيل كما أن السم خُلق منه الترياق.. لهذا فلتسمع ما سأمليه عليك.. استمع بقلبك لا بأذنيك.. لقد حكى لي مولانا ذات يوم أن هناك تاجر فارسي كان يهوى السفر الدائم إلى أراضي الهند وكان له ببغاء يحادثه ويُحاكيه وذات يوم أخبره الببغاء أنه إذا وصل للهند فليتوجه للغابة ويخبر بني جنسه عن أحواله وكيف لهم أن يعيشوا فوق الأغصان بينما هو يقبع خلف القضبان في قفص من فولاذ.. سافر التاجر وأخبر ببغاوات الغابة بما يحمل من رسائل فعندما سمعوا ذلك ارتجفوا بشدة وسقطوا عند قدميه فظن أنهم قد ماتوا في الحال إثر سقوطهم فحزن التاجر لما حدث وغادر الغابة ولكن عند عودته نقل ما حدث لطائره الحبيس فارتجف وسقط ميتًا كإخوته فأصابت التاجر حسرة كبيرة ولكن ماذا عساه أن يصنع؟.. فتح باب القفص ليخرج منه جثة الببغاء المسجاة بداخله وما إن فتح باب القفص حتى طار الببغاء وخرج من النافذة نحو السماء وعندما سأله التاجر لما فعلت ذلك قال له رفاقي أخبروني كيف يمكنني أن أهرب حينما احتالوا عليك وسقطوا جميعًا تحت قدميك.. الآن سأرفرف كنسر وأجثم فوق أعلى شجرة حيث لا مزيد من الأقفاص ولا مزيد من الفولاذ.. اهرب منها يا (موسى) ولا تلتفت وراءك أعجزت أن تكون في حكمة ببغاء؟

– ربما كانت حريتي داخل قفصها يا مولانا لقد اخترت البقاء في ذلك القفص عمدًا.. قلبي لا يسع غيرها وليس لي معها حول ولا قوة.

ثم سقط (موسى) على الأرض كثمرة ناضجة من أعلى شجرة وأخذ يبكي عند طرف جلباب المعلم وحقًا لم يرَ (شمس الدين) عاشقًا مشبوب الروح مثله من

قبل.. فمد له يده ليوقفه مرة أخرى على قدميه كشراع سفينة غازية تحركه رياح الغضب.. وقال بصوت رخيم:

- يا لك من درويش ذي قلب متهالك.. إن الحب الذي لا يحررك من سجونك ولا يفتح لك الآفاق فالعدم أفضل منه بكثير.

ابتعد (شمس) عن (موسى) بضع خطوات ونظر له وكأنه يقول "راقبني".. رفع يده اليمنى نحو السماء وأخفض يده اليسرى نحو الأرض ونظر للأعلى بسكون العارفين وبدأ يدور!!.. ذُهل (موسى) مما رآه فهو لم يكن ليتصور يومًا أن المعلم الأكبر سيدور أمامه كمجموعة الدراويش الدوارون أو كما يطلق عليهم المولويين.. إن هذه دعوة للرقص بجوار المعلم هكذا أحس (موسى) فقام ليقلد مولاه فأصبح الرجلان يرقصان بتوازٍ مثير للإعجاب وكأنهما نسختين متطابقتين لشخص واحد فإذا نظرت لهما من الأعلى فستجد أنه كل منهما يمثل محور الارتكاز والدائرة في نفس الوقت.. شعر (موسى) أنه ريشة في مهب ريح عاتية أكثر من تلك التي تضرب سواحل اليابان كل موسم ويبدو أنه يتخلص شيئًا فشيئًا من جميع أثقاله التي يحملها فوق كتفيه منذ زمن ربما لأنه أصبح بدورانه نقطة الالتحام بين السماء والأرض بين الذات العُليا وبين من هم أقل مقامًا وقيمة.. إنه في رحلة بين عالمين كل منهما يدور حول الآخر بطريقة ما.. ولكن المثير للدهشة حقًا أنهما استطاعا التواصل برغم دورانهم المتوافق الإيقاع.. نعم حدث ذلك بالفعل بصيغة أو بأخرى وليس لنا أن نفسر لأن أسرار الأولياء لا يعلمها إلا رب الأولياء.. لقد تحدثا دونما أن تتحرك ألسنتهم بكلمة واحدة أثناء دورانهم المتتابع الذي يبدو أنه طواف من نوع آخر حول كعبة مقرها السماوات.. فقال (موسى):

– قل لي يا معلم هل أنا الذي أتكلم وأفكر وأحب وأعتقد؟

– إذا كانت الرزنامة هي من تفرز الأيام فأنت من يفرز التفكير والكلام والحب والاعتقاد إنما هي مجرد تعبير عن مرور الزمن وليست هي من تصنعه كذلك أنت فكلامك وأفكارك وحبك وحياتك ومصيرك ترجمة لإرادة قوة عُليا خفية مسيطرة.

– كيف لي أن أنسلخ عن كل شيء؟

– حرر عقلك من عقلك.. كن أنت الشمس والكواكب وذرة الغبار.. اسعَ لأن يكون جسدك مجرد كتلة من الجزيئات تطفو في فراغ أبدي.. كن أنت الصخرة والمنجنيق الذي يقذفها.. أخرج من جلبابك الضيق.. مزقه.. عش حياتك كأنها درب من حُلم.

– هل تعلم يا سيدي.. أنا أخشى فقدانك.. هذا ما يجعلني أرتعد خوفًا أكثر من أي شيء آخر.. لست بحاجة إلى جسدي المسجى داخل مسجد مولانا.. اجعلني خادمًا أو تلميذًا مُريدًا.. اجعلني عصاك أو عمامتك.. رجاءً خذ بيدي.

– الولي ليس بحاجة لرفقة دائمة بل لعبور مُوجز.. وأنت منهم.

– كيف لي أن أكون وليًا يا شيخنا وأنا صاحب قلب كسير لا يصلح لبلوغ سدرة الزهد إنما هو قلب مهجور موحش طرقاته من قرميد عفا عليه الزمن.. أنا كرجل عربيد عاشق يقارع الخمر كل ليلة مغمومًا في حب أنثاه حتى الثمالة.. عشت حياتي متخبطًا كشحاذ ضرير يدور من باب إلى باب.. لا أمتلك وجه (يوسف) ولا عفافه فكيف لي بلوغ ذلك المقام.. هيهات.. أتعلم يا سيدي.. إنني كمثل فارس يمتطي جواده ليذهب في الغسق ليقف تحت

نافذة محبوبته ذات الإطار الحجري ليقذفها بوردة قد اقتطفها للتو من حديقة أحد جيرانه لترد عليه هي بالمقابل بأن تجعل جدائل شعرها تنسدل من النافذة حتى تصل ليديه فيقبض بهما على جدائلها ويستنشق ما احتوته من شغف ونشوة.. إن العاشق المتيم كمثلي يا مُعلم ما هو إلا صريع لا محالة ولكن متى وأين يسقط لا أحد يعلم.

– كل ما فيك ينم عن ولي.. النشوة.. التسامي.. الموت حبًا.. لست بحاجة لي.. كما أنك جئت هنا لما هو مُقدر لك فستذهب لما هو مُقدر لك.. هكذا أخبرني (الرومي).

– كيف لمولانا أن يتحدث عني وأنا الصريع على أعتابه الفقير إلى علمه.. وكيف لي أن ألتقيه ولو من وراء حجاب؟

– اللقاء لن يكون في عالم الأرواح ولا في عالم التراب.. ستلتقيه ربما في عالم آخر قد كتبه الله عليكما.. أو ربما التقيته في عالم الذر عندما كان كل منكما مجرد قُصاصة من ريش الملائكة قابعة في أصلاب آبائكم كُتب عليها كاف نون إلى أجل معلوم.

– أشعر بأن أحشائي تُريد القفز للخارج وكأنها لا تطيق البقاء داخل هذا الجسد الذي يهرب من عشق ليقع في عشق أكبر.. يفر من الحمى ليعانقها في الطريق الموازي.. يبدو أن كل شيء حولي يُريد النجاة مني وينجح إلا أنا.

– ما بك ليس داء إنما هو رشفات من قدح الدواء.. هذا هو دين العاشقين.. عُرف المحبين.. التحرق شوقًا للقاء.. أن يستحيل جسد الولي جمرًا لعناق أنيسه.. أنت تنتظره وهو ينتظرك.. ستقابلان بغير حول ولا قوة بعد أن تُتم ما

يجب عليك فعله وبعد أن تصطدم بمصيرك.. ستتقابلان بعد أن يؤخذ منك ما أؤتمنت عليه حين كنت بلا هوية بلا صفة أو اسم.

– أصطدم بمصيري؟ أولم أصطدم به بعد؟

– كلا.. مصيرك سبقك نحو أرض اللقاء لينتظرك بشغف فوق جسر بين جبلين.. أنت صريعه لا محالة فقط لا تقاوم.. ولكن دع أحبار القدر تسيل.

– أيمكنني أن أغدو صفيًا؟؟.. الولاية لا تناسبني إنها ثوب فضفاض يُغطي روحي فلا يمكن لملامحها أن تظهر.. أنا يكفيني أن أكون صفيًا، رجل أتخذ من الصفو زادًا وأرى أن هذا أيضًا لا يجوز لمن هو مثلي!!

– الولي لا يُختم له بالولاية إلا إن كان صفيًا وأنت بلغت ما هو أعلى.. أنت جليس مولانا.. ولكن احذر فترويض النفس له زمام وإن لم تُحكم قبضتك عليه فستجمح بك فرسك.. كن دائمًا منسابًا كنهر جارٍ يشق طريقه منحدرًا من أعلى جبل.. تحلى بالاستبصار فنظرات التفرس وحدها لا تكفي.. امنح كل ما تملك لمن يطرق الباب عليك سائلاً.. كن خبزًا للجائعين وماءً للظمأى.. كن مسيحًا إن استطعت والشرط الأهم لا تنسَ أبدًا أي مما سبق.

استمرا في الدوران كأجرام تسبح في أفلاك لا نهاية لها وأخذ (موسى) يتتبع خطا (التبريزي) كما تتبع يوشع بن نون خطا الكليم ابن الماء حامل التوراة.. كاسر العجل وفالق البحر بالعصا.. إلى أن عم السكون وأصبح كل منهما يغمغم بأذكار وتراتيل تخر لها الشياطين سجدًا ثم تحترق من فرط طهارتها.. كان كل هذا يحدث وجسده مُسجى يتصبب عرقًا تحت قبة مسجد مولانا وكانت الساعة تُشير إلى الثالثة والنصف فجرًا فتحلق حوله جمع غفير من

المُريدين المقيمين داخل جنبات المسجد وحوله وكان بينهم رجال عرب يُتقنون اللغتين التركية بحكم معيشتهم والعربية بحكم منشأهم ففهموا ما يهذي به (موسى) وأخبروا إدارة المسجد بضرورة نقل الشاب لأقرب مشفى لأن درجة حرارة جسده ارتفعت للغاية يكاد يكون رأسه يغلي ثم فجأة فتح (موسى) عينيه دون أن يُحرك مقلتيه يمينًا أو يسارًا بل ظل محملقًا في قبة المسجد لا يسمع من حوله ولا يراهم ثم رأى شيئًا يتكون في سقف المسجد وكأنه ضباب يتجمع في صباح يوم ماطر وتشكلت ببطء صورة تلك الفتاة.. صورة من أحب فرفع سبابته مشيرًا إليها ثم حاول أن ينهض رغم ارتعاشة جسده الظاهرة واصطكاك أسنانه بردًا وما إن قام واستقامت هيئته خطا نحو منتصف المسجد إلى أن وقف تحت القبة تمامًا فرفع يديه نحوها ملوحًا ثم قال بصوت مبحوح:

– اقتربي حتى أكشف لكِ ستر العارفين.. اقتربي كي أتنفسكِ يا خمرًا صُنعت من نور.

وبعد أن ظل يترنح للخلف وللأمام سقط مغشيًا عليه مُجددًا بلا حراك وكأنه دمية قماشية سقطت من يد طفل عابث.. وعادت روحه حيث كانت فوجد مُعلمه يجلس بجوار جذع شجرة وارفة تبدو كالأشجار المباركة التي تنبت في قيعان الجنة ولكن وجد النقيب (حُسام الدين) يجلس بجوار (التبريزي) فتقدم (موسى) نحوهما مخاطبًا باب مولانا قائلاً:

– لقد أفقت لدقائق فأبصرت ثلة من المُريدين متحلقين حولي لا أعلم لماذا ولكني لم أرك هناك؟ أين كنت وكيف وصلت إلى هُنا؟

فنظر (حسام الدين) للمُعلم واستأذنه في الحديث فأذن له ثم قام وفي يده مسبحة زرقاء حباتها من خزف مصقول يضعها حول معصمه كسوار ثم قال:

– أنا كنت هُنا طوال الوقت ولكن أنت الذي تخلفت عن ميعادك ووصلت متأخرًا كما أخبرتك سابقًا.

اندهش (موسى) لما سمعه فظن أنه لم يفهم الإجابة فقام بتكرار السؤال بصيغة أخرى فقال:

– ألم أتركك في رُكن المسجد تُسبح رب العزة في خفوت تام وخشوع؟ إذن فلماذا لم أرك هناك عندما أفقت؟

فابتسم (حسام الدين) واقترب منه ثم وضع يده على كتفه وقال:

– قلت لك أني لم أكن هُناك ولكني كنت بداخلك.. أنا خرجت منك عندما احتجت لي.. فكيف يُمكنك أن تُقابل المُعلم بدون مُرشد؟ ألم أقل لك أنني الباب؟

– أهذا يعني أنك من الأصل محض وهم؟

– وهل ما نحن فيه الآن وهم يا (موسى)؟.. إننا مجتمعون كأرواح مُحبة في مكان ما من كون القدير.. إن أرواح الأولياء تُنادي بعضها البعض ويسكن كل ولي قلب الآخر ليُؤازرون بعضهم عند الوجيف والرجيف فأنت من الآن لم تُصبح وحيدًا يا مُريد بل أصبحت وليًا ومن كان وليًا أدخله الله في زمرة الصالحين.

– أنا ما زلت لا أفهمك ولكني أُريد حقًا أن أعرف من أنت؟

– قلت لك اسمي وصفتي.

– اسم واحد وصفة لا أفهمها.. هذا لا يكفي.

خطا (حسام الدين) نحو (شمس) الجالس تحت الشجرة وأدار ظهره (لموسى) ثم قال:

– أنا (حسام الدين بن شلبي) خليفة مولانا (الرومي) وتلميذه وخادمه وباب أسراره.

– إذن لماذا لم تخبرني من البداية أني تعرضت لخدعة؟ أنت خدعتني عندما رأيتُك في المسجد جالسًا أمام الضريح.

هُنا قام (شمس الدين) من تحت الشجرة وتوجه نحو (موسى) وقد علت وجهه حمرة الغضب وبعد أن اقترب منه قال في حزم:

– الأولياء لا يخادعون أحدًا يا فتى.. الأولياء هم أرواح طوافة قبل أن يكونوا أجسادًا فانية فلا غرض لهم ولا مصلحة في خداع أحد.. وإنما كل ما حدث معك هو قدر قد كُتب لك من قبل أن تولد وما كان (ابن شلبي) إلا طريقًا يَنفذُ من خلاله أمر الله لتظهر توابع حكمته.

ارتعش (موسى) خجلاً ثم قال بوجل:

– أعتقد أني غير جدير برفقتكما يا سيدي.

فرد عليه مُعلمه بصوت أقل حدة فقال:

– بل جدير.. ولكنك ما زلت لم تفهم أن الحد الفاصل بين عالم الأولياء وعالم التراب ما هو إلا جدار بسماكة خيط مغزولٍ من صوف لا يُمكنه أن يحول بين الولي والمُريد العاشق الذي بلغ الطهر في حبه كما جرى معك.

وبعد أن أنهى المُعلم كلامه سرت في الأجواء تيارات هواء باردة فأخرج (حسام الدين) من جُعبته ثلاثة جلابيب بيضاء وثلاث عمائم ونايًا فجعل كل واحد منهم يرتدي جلبابًا وعمامة وأسند الناي (لشمس) الذي عاد للجلوس فأمسك (حسام الدين) بيد (موسى) وبدأ في الدوران ببطء شديد وهو يقول:

– سبحانك ربنا تساميت فوق عرشك فلا شريك لك ولا صاحبة ولا ولد.. يا رب ارحم.. يا رب ارحم.

وأخذ (موسى) يدور معه كما دار مع المُعلم من قبل ولكن هذه المرة أخذ يدور بقوة أكبر وفتح ذراعيه في الفراغ ثم رفعهما لأعلى ليدورا متجاورين رفقة جسده فانغمس في ذاته وشعر كأنه يرقص على الماء وربما سينفلق له البحر لطودين عظيمين كما حدث للكليم على مشارف الساحل الشرقي لسيناء.. إن للصوفيين تفسيرًا خاصًا لكل شيء.. تفسيرًا روحيًا صرفًا خالصًا فرقصهم الوجداني هو في الحقيقة استنساخ لترانيم الملائكة لكن بصورة بشرية.. وفي الطريقة المولوية التي أُسست من قِبل مولانا فإنّ للرقص صفة كونية ولاهوتية معًا.. ففي هذا الرقص يلبس الدراويش الجلابيب البيضاء التي ترمز للكفن مغطاة بمعطف أسود يرمز لظلمة القبر ووحشته ويكونون معممين بقبعة طويلة من اللباد ترمز لشاهد القبر ويمثل التيار المتكون حول الراقص الناتج عن الدوران البرزخ أو الوسيط بين السماء والأرض.. وأثناء الرقص يُتاح العزف على الناي المصنوع من القصب الذي يرمز لشجون النفس البشرية وآلامها وتُقرع الطبول بإيقاع يتهادى كموجة بحر رقيقة تموت قبل أن تعانق صخور الشاطئ لتذكرهم بنواقير يوم الدينونة ولكن بينما يدور الدرويش حول نفسه صاعدًا إلى العالم النوراني العُلوي يصعد بقية الدراويش رفقاؤه روحيًا إلى الأجرام الدائرة حول الشمس وحول ذاتها وتكون دائرة الراقصين مقسمة إلى نصف دائرة أحدهما يمثل قوس الهبوط أو انغماس الروح في المادة والآخر قوس صعود الأرواح نحو سماوات الله وعندما يشتد الانغماس هُنا يُصبح الإيقاع سريعًا جدًا فيدخل مرشد الدراويش ومُعلمهم في الرقص إلى جوارهم

ويدور في وسط الحلقة لأنه يمثل الشمس وهذه هي اللحظة العُليا للاتحاد المحقق بينهم وبين الفضاءات الرحبة.. وبالرجوع لطفولة مولانا (جلال الدين) سنرى أنه تأثر بعلم الكلام والفقه والاستنباط والأجواء ذات الروحانيات العابقة بها أجواء كل الأماكن التي يتواجد بها والده سلطان العُلماء (بهاء الدين ولد) الذي هاجر من مدينة بلخ في خُراسان إلى مدينة قونية في تركيا بعد منازعات بينه وبين السلطان (محمد خوارزم شاه) ووزيره (فخر الدين الرازي) الذي كان يُخالف الصوفية في كل المعتقدات غير الاستدلالية مخالفة صريحة مما ترك أثره بالتالي على السلطان نفسه فاعتبرهما (بهاء الدين ولد) خارجين عن الشريعة ونظرًا لشعبيته الكاسحة بين أواسط الخرسانيين توجس (خوارزم شاه) خيفة منه فضيق عليه حتى رحل إلى قونية في تركيا رفقة ولده الشاب الذي أتم لتوه الرابعة عشر ولابد أن يكون الخروج قد تم في عام ٦١٨ للهجرة فخرجا نحو بغداد ثم مكة ثم الشام ثم استقرا لدى السلاطين السلاجقة في آسيا الصغرى وبالتحديد مدينة قونية ولم يعودا مرة أخرى لخراسان التي اجتاحها المغول فيما بعد ولأن المُريد ما هو إلا تابع لمُعلمه يسمع فيطيع فقد كان مولانا مُريدًا لأبيه سلطان العلماء وعندما أمره بالزواج في سن الثامنة عشر أطاع بصمت ولم يهتم إن كانت زوجته ستروق له أم لا ولكنه أحبها بمجرد أن اختارها له والده لأنه علم بأن المُرشد دائمًا ما يعلم أسرار نفس مُريده أكثر مما تعلم الأم خبايا قلب ولدها الذي نبت من جسدها فلا يُخيل لك أن مولانا لم يعشق زوجته بل كان مُغرمًا بها لدرجة الغيرة من تيار هواء قد يزيح عنها وشاحها فكأنما قد خُلقت لتُكمل نصف شق قلبه الآخر لقد عاش مع زوجته (گوهر خاتون) حياة عاشق فقيه مُريد ذو قلب رقيق الحال ينام في صحون

المساجد هائمًا في حبين كلاهما يُذيب صبابة قلبه.. حبه للذات العلية.. ذات القدير الفاني فيه كل فاني.. وحبه لشجرة الزيتون النابتة بين ضلوعه (گوهر).. فظل هكذا حالمًا مجذوبًا للرب ولمُعلمه وأنثاه حتى توفت زوجته فكان هذا قاسيًا كفاية ليتفسخ قلب مولانا وتتناثر دماؤه على قارعة الطرقات ورغم أنه تزوج بعد ذلك بامرأة أُخرى ولكن محبوبته الأولى ظلت حية داخله حتى اجتمعا في ظلمة القبر فلذلك ليس مستغربًا أن يلتمس العُشاق الغرقى من سيرته حبل نجاة فكل من يهيم على وجهه في الأرض حُبًا حتمًا سيقع في لطيف تجليات مولانا ولكن لابد للناجي أن يكون صادقًا ذو قلبٍ مُنير حتى يولد من جديد ولهذا فبعد أن أخذ الوجد والوله من مولانا مأخذًا عظيمًا جلس إلى ركن في مسجد صغير على أطراف قونية فأنشد قائلاً:

– "لنتهى مولدي الأول وأنا مولود للعشق في هذه اللحظة.. أنا زائد على نفسي لأنني ولدتُ مرتين".

إن الحديث عن رجال العشق الإلهي الجامع لكل عشق لا يُمكننا الإلمام به في جلسة سرد كهذه ولكن يُمكننا أن نقول بإيضاح أن الرجل حين يُحب أنثاه المخلوقة من ضلعه سيتوهج قلبه شغفًا حتى تُصبح المحبوبة أقرب إليه من الروح المتلبسة جسده وأقرب إليه من الحُمى التي تعصف بعظامه إن طال الغياب وهكذا رجال إن كُسرت قلوبهم فلا دواء لهم إلا الموت أو الخوض في حُب أكبر لا يكون للبشر مكانٌ فيه بل هو ذوبان خالص في ذات الإله وكونه فيُصبح العاشق زاهدًا ثم وليًا ليرتقي إلى برزخه الخاص فوق قمم الأفلاك التسعة.. أما الآن وبالرغم من مرور ثلاثة أيام على سقوط (موسى) الأخير تحت قبة مسجد مولانا إلا أنه لم يشعر بالوقت وظل مغشيًا عليه يُصارع

الحُمى طوال هذه الفترة فتشققت شفتاه عطشًا وتعرق ليل نهار حتى جفت مسام جلده ولم يستطع أحد أن يُحرك جسده من مكانه وكأنه التصق بالأرض ولغرابة الموقف ومهابة المكان أقفلت السلطات المزار تحت دواعي الصيانة بينما كان هذا القرار بإيعاز من الدراويش المُقيمين في المسجد لأنه إن انتشر خبر هذا الفتى الذي أفاق ثم صُرع سيحدث هرج كبير يتسبب لهم وله بضرر بالغ فتُفتح الأبواب للتكهنات والادعاءات والحكايا الشعبية وهذا ما لم يُرده الدراويش ولا إداريي الضريح فالكل هُنا ينعم بالسلام والعُزلة ولكن يكفي أنهم عرفوا أن هذا الشاب المسجي فوق فُرش صحن المسجد يُخبئ في جعبته الكثير فالذي يُصرع أمام ضريح مولانا لابد أنه ذو كرامة ما.. وراح كل منهم يُراقبون حركات جسده الذي يتلوى ألمًا ونشوة في ذات الوقت وبعضهم راح يظن بأن روح ذلك الشاب في خلوة رفقة مولانا وبعضهم قال إنما هو (الرومي) بذاته قد حلت روحه في جسد جديد ليعود لهداية الأمة بعد موات دام قرون.. فهم لأول مرة يُشاهدون حدثًا كهذا لكنهم كثيرًا ما سمعوا عن كرامات الأولياء وانتقال أرواحهم من عالم لآخر في ملكوت عرضه السماوات والأرض ولكنهم أبدًا لم يُشاهدوا ذلك بأعيُنهم.. وبمرور الوقت استمر الوضع القائم كما هو دون تغيُرات تُذكر فالدراويش متكتمون و(موسى) مازال مُرافقًا (لشمس) و(حسام الدين) وعند بزوغ فجر اليوم الرابع ارتعش الصريع ثلاث رعشات وكأن أحدهم يرفعه لأعلى ثم يطرحه أرضًا فتكلم وهو مازال غائبًا عن الوعي مغمض العينين فحرك شفتيه المشققتين قائلاً بصوت متحشرج:

– إن كان الحب يا مالكًا قلبي عارًا فأنا الغارق في وحله حتى أُذني.. أيا شقيقة الفؤاد أما جاز لمن هو مثلي أن يقترب ليجلس في ظلكِ الوارف لا

أبتغي شيئًا سوى النظر لوجهكِ مرة واحدة كل عقد.. ألا تقبليني في ساحتكِ مجذوبًا فقد عقله ولكن قلبه مازال مُعلقًا بأستار الكعبة المنسدلة على أهدابكِ فأدعو الله لكِ وأتشفع به عندكِ إلى قيام الساعة؟

ثم بدأ بالتسبيح والتهليل والحوقلة بصوت يخفت تدريجيًا حتى عاد صامتًا مغشيًا عليه بالكامل.. ورفقًا بحالته أراد الدراويش أن يُقيموه من مكانه ليغسِلوه لكن عبثًا حاولوا فالجسد ملتصق بهذه البقعة وكأنه أصبح هو والأرض قطعة صلدة واحدة فأحضروا دلوًا به ماء دافئ وزجاجة بها عطر قوني هو خلاصة عدة أزهار يُمكن لرائحته أن تشفي كسيحًا بإذن الله إن استنشقها وهو يؤمن بذلك فقلبوا جسده كأنه ميت على خشبة الغُسل حتى يمكن للماء الممزوج بالعطر أن يصل لكل موضع إصبع فوق جلده الذابل وبعد أن انتهوا أحضروا له ملابس بيضاء فضفاضة كالتي يرتدونها ولكن لأن كرامات الأولياء تظهر فقط للمخلصين العارفين المتعلقين بالأعتاب فقد بُهتت أعينهم عندما شاهدوا جسد الفتى الصريع الأبيض شبه العاري تظهر عليه جُمل كُتبت بخط كوفي رصين.. كلمات متفرقة بألوان عِدة وبعد ثوانٍ غطت الحروف والكلمات صدره وبطنه وذراعيه وأصبح لها نور ينفذ من تحت جلد (موسى) فأصبحت بارزة وسهلة القراءة للعيان فقرأ الدراويش ما كُتب على جسد الشاب طريح مسجد مولانا فكان مما قرءُوه كلمات وجمل متصلة ومنفصلة ذات معنى وغير ذات معنى ومنها ما يلي:

(أنا السلطان، روح روض الورد، هو، قتيل الجسر، المدد المدد، ملكوت الرب، دفين التلال).

فنظروا لبعضهم في ذهول ثم قام أحدهم وقال:

– روح روض الورد!!.. نعم إن هُناك في الأثر عن مولانا ما يُفسر تلك الجملة فروض الورد هو المُعلم (شمس الدين التبريزي) شيخ مولانا ومُرشده وأما السلطان فهو مولانا نفسه!!

فقال أحد الذين يقفون فوق رأس (موسى):

– ولكن ما تعني قتيل الجسر وما أعقبها؟

فنظر الجميع لبعضهم البعض في حيرة ألجمتهم وأزكمت أنوفهم لكنهم تثبتوا بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا الشاب ليس مجرد مُريد ولا حتى حامل بيارق الأولياء بل هو في حد ذاته وليًا.. وبعد نقاش طال لنصف ساعة تقريبًا ألبسوه ثوبًا كأثوابهم ثم أخلوا المسجد تمامًا ليتركوه يغمغم بما لا يفهموه فغمغمته كانت بلغة لها نطق مُركب لا يعرفونها فلا هي عربية ولا تركية ولا فارسية ربما كانت لغة تستخدم في بُعد آخر حيث تتواجد روحه.. كل تلك الوقائع حدثت و(موسى) مازال يدور حول مركزه غارقًا في الرقص فذاته المترفعة عن درن الجسد صعدت لمستقرها الذي لم تُرد أن تُغادره لكن أجلها في الأرض لم ينقضِ بعد فلذلك اقترب (شمس) منه ثم قام بضمه وأحاطه بذراعيه فتوقف عن الدوران وجثا على ركبتيه أمام مُعلمه دون أن ينطق بشيء ولكن فقط ظل جاثيًا بصمت إلى أن حل معلمه عمامته البيضاء من فوق رأسه وأخذ يلُف قماشها فوق رأس (موسى) حتى بدا وكأنه هو (شمس) بذاته ثم انهضه وأمسكه من رسغيه ثم قال:

– ألم تشتق لجسدك؟

ففتح (موسى) عينيه فرأى معلمه بدون عمامته المُعتادة وشعره الأسود الذي غزاه الشيب في مواضع كثيرة انسدل على كتفيه فزاده بهاءً وشبابًا ورأى

(حُسام الدين) واقفًا خلف المعلم مُمسكًا نايه وعمامة اللباد مازالت فوق رأسه ولكنه كان ينظر نحو (موسى) بحنو طاغٍ وكأنه يرى مولانا متجسدًا فيه فقطع (موسى) شتاته وقال مُجيبًا:

– وهل أشتاق لجسد العفن والدود وأنا بصحبتك سيدي؟

فتنفس (شمس) بهدوء وظل ثابتًا على وضعيته ثم قال:

– لكل نفس أجل لابد أن تستوفيه وأجل جسدك لم يحن بعد.

– دعه يتعفن يا مُعلم فأنا ترفعت عنه.. لا أُريده.

– بل ستعود لتلبسه ويلبسك حتى يُنفذ فيك الرب وعده وحكمته.

– أتُعيدُني للحُمى والارتجاف والضعف وقلة الحيلة وانعدام القُدرة؟.. أتُعيدُني لجسد يعشق فتاة أكثر مما يعشق الحياة؟.. أتُعيدُني إليها طائعًا مُختارًا يا مُعلم؟

– وهل عندما طفت روحك لأعلى نسيتها؟.. كلا.. بل إنك همت بها حُبًا بصورة أكبر ولهذا يجب عليك العودة فقد كُشفت عنك السُتُر كما لم تُكشف لمن قبلك فعليك أن تتوقف عند هذا الحد وإلا احترقت روحك.. فمن يتجاوز الأبواب هُنا ويسترق النظر لا ينجو.

– هل تعلم يا سيدي أني منذ فارقتها أول مرة شعرت وكأن ضلوع صدري قد كُسرت كل على حِدةٍ ضلع يتبعه ضلع فأصبح قلبي عارٍ لا يمتلك ما يحمي به نفسه ولا يأمن السقوط سهوًا على أرض ترابية تشرب الدم كأنه ماء.. إن لها يا سيدي روحًا ذات مذاق أشبه بكروم الجنة وخمرها المُعتق ولها وجهًا يفيض بتجليات القدير.. إنها تقبع في أعمق جبٍ بسويداء قلبي.

– وهي أيضًا أحبتك وربما مازالت تُحبُكَ فهي أنجبت منك طفلاً صغيرًا تضعه في مهد فضي فوق خزانة ملابسها تبتسم له كل صباح وتقبل أصابعه الصغيرة وتحادثه فقط عندما تُريد أن تسترجع شيئًا من ذاتها القديمة ليكلمها وتكلمه.. إن الناس يعتقدون أن الذرية تأتي فقط عندما يلتقي جسدان بعقد شرعي أنهم أصحاب عقول بسيطة.. أنهم عوام يا (موسى).. فأنت قد تُنجب ذرية ممن تُحب دون أن تلمس خصلة واحدة من شعرها ودون أن تشُم رائحة طرف ثوبها.

– أنت تعجزُني عندما تنطق باللا معقول يا مُعلم.. كيف لذلك أن يحدث والرب له في أرضه نواميس تحصر كل شيء بين سبب ومُسبب.

– ومن قال لك إن ما قلته يُخالف النواميس؟.. الذرية هُنا وليدة القلوب لا وليدة الأرحام يا مُريد.. إنها أحبتك كصغيرها فأنت ذريتها حتى يأذن الله بأن يرزقها ما يشاء من فضله الواسع صبيًا كان أم فتاة.. ولكنك تظل دائمًا وليدها الأول.

– ولكني أشعر بأن كل ما قد مضى لا يُمكنني استعادته بل أشعر أني لست صادقًا في عشقي لها فأحيانًا أنطق بما لا أرتضيه لأريح ضميري فأظن أنني لست إلا رجُلاً طغت أنانيته على حبه فمحبتي لها كأنثى جزء من هوسي بها فحب الانطباع عن الشخص قد يكون أقوى من الوقوع في حب الشخص نفسه ولذلك أصمت لأيام دون أن أتكلم بحرف واحد لأن إدانتي لنفسي تُلجمُني.

– أنت لست كذلك لأن ما تصفه هو أحد آثار توابع الفقد.. فتشعر بأن حياتك غير ذات معنى ولا تهتم بأي شيء يجري فيها وكل ما تعودت عليه أن

يحدث رفقتها تبحث عنه في وجه كل أنثى تصادفها دون أن تعلم أن كل شيء متعلق بها لن تجده إلا معها فالرب لم يخلق منها نُسخًا أُخرى ولذلك فحُمى العشق أكثر قسوة من الموت.

ظل الحديث ممتدًا بينهما حتى كلت قدميهما من الوقوف فجلسا رفقة (حسام الدين) تحت ظل الشجرة يسمعون بشغف لبُكاء الناي وأنينه وبعد دقائق قام (شمس الدين) يُرافقه النقيب ثم خطا للأمام قليلاً وأزاح بيديه خصل شعره المنسدلة على كتفيه وقال مُخاطبًا مُريده:

– ها قد حلت ساعة الفراق يا فتى وكل ما أردت أن تعرفه قد عرفته.. أوصيك بأن تذهب حيث ولدت الحوراء سهلية الحدقات تلك التي تصرعك وقتما شاءت فهناك تجد راحتك ومستقرك ولكن كن دائمًا متطلعًا للجسر.. لا تنسَ أن تُقيم صلاتك على أطرافه.. تعبد للمتعال كما سيرشدك قلبك وأما في طريق عودتك من هُنا وفور أن تصل أراضيك ستواجه مصيرك وكل ما عليك فعله هو أن تصافحه وتُمكنه من احتوائك إن كنت راشدًا.. لكن إياك والسخط بل كن وديعًا كحملٍ يتبع قطيعًا من خراف وفي كل وقت قُل "يا رب ارحم".. أنت ولي فلا تجزع.

وكان(موسى) حينها يجثو على رُكبتيه يُرتل ترانيم الأولياء بلسانه مستمعًا لكلام مُعلمه بقلبه وهو لازال يرتدي عمامته التي نسقتها يد المُعلم فوق رأسه ثم عندما أنهى (شمس) تلاوة وصاياه ذاب في الفراغ كسحابة مُحملة ببخار ماء البحر في يوم حار وما إن أغمض عينيه حتى وجد نفسه يفتحهما مُجددًا تحت قبة مسجد مولانا لا يعلم شيئًا عما حدث لجسده ولا عن اهتمام كل هؤلاء الدراويش به ولا عن ملابسه التي تبدلت ورائحة جسده التي لم يعتدها من

قبل ولكن الشيء الأكثر غرابة أنه وجد صعوبة شديدة في النهوض من رقدته فشعر وكأن جسده ملتحمًا بالأرض ولكنه استطاع النهوض بعد مُعاناة ومقاومة فكأن الأرض مغناطيسًا وجسده مسمارًا معقوف الرأس.. وشرع الدراويش يتحلقون حوله ويقصون عليه كل ما حل به أثناء انفصاله في عالم الأرواح حيث كان والشيء الذي لاحظه بشدة هو أن كلامهم معه يحمل نبرة توقير كبيرة فعاملوه وكأنه مولانا!.. ورغم كل شيء ظل (موسى) يُفكر في كل ما سمعه من (شمس) فقد اشتاق إليه رغم أنه قد فارقه للتو ولكنه أيقن أن مُعلمه لم يُصرح له أين ومتى سيلتقيان مُجددًا لأن التقاء الأولياء يأتي في اللحظة التي ينهون فيها ما أوكل إليهم فعندها تتحرر أرواحهم فيكون اللقاء أبديًا.. أما الآن فعليه مغادرة المسجد بل مُغادرة تركيا بالكامل والعودة إلى مصر مرة أخرى وبعكس ما طلبه خلال وصوله قبل أربعة أيام من معرفة أقصر الطرق المؤدية لقونية ها هو الآن يسأل أحد الدراويش عن أطول طريق يصل بين قونية وأنقرة فدله على أحد الطرق الوعرة التي لا تسير فيها سوى سيارات الدفع الرباعي تُقساوة تضاريسها وربما الرحلة ستستغرق يومًا كاملاً وعندما أراد الاستفسار منه لماذا تُريد السفر في طُرق وعرة وأمامك طُرق أخرى أكثر اختصارًا وسرعة؟ فأجابه (موسى) قائلاً:

– الطريق المختصر صُنع لمن يُريد الراحة.. أما المُريد فهو يُبتغي الصبر لا الإسراع.. فكيف يُمكنك أن تتحمل عناء دُنياك إن لم تستطع تحمل عناء السفر؟

وعقب ذلك ذهب (موسى) ليستبدل ملابسه ثم استرجع حقيبته من قسم الأمانات الخاص بالمزار وانطلق نحو سيارة تقف أمام باب الضريح استأجرها

له ذلك الدرويش ودفع كافة تكاليف سفره محبة وكرامة له حتى أن هناك بعض الدراويش الأتراك سالت دموعهم عند وداعه وتحدثوا إليه كثيرًا بالتركية ولكنه لم يفهم مقالتهم فاكتفى بطبع قبلة على عماماتهم متبوعة بعناق دافئ وبعد أن انتهى ودع الطرفين بعضهم البعض ثم فُتِحَ باب السيارة ليصعد إليها (موسى) بحركة رشيقة دون إحداث ضجة ثم أشار للسائق بأن يمسك بأطراف طريقه وينطلق نحو أنقرة في رحلة تستغرق يومًا كاملاً ليقرأ خلالها الروايات الثلاثة التي أحضرها معه من غرفته بالإسكندرية ولكنه قرأهم هذه المرة بتبصر عميق وفهم أكثر استنارة من ذي قبل فالحب لم يعد في نظره بتلك السذاجة التي كان يعتقدها قبل لقائه (بشمس) ولكنه أيقن أن الحب كان قابعًا في طين آدم قبل أن يُخلق.. إن الحب أكثر قداسة الأولياء أنفسهم فلا وجود لهم بدون حب فكل ولي لابد أن يكون عاشقًا استطاع أن يسمو فوق نزيفه لا بأن يوقفه ولكن بأن يتقبل وجوده ولذلك فإن القدرة على التعايش مع ذكرى مكان فارقته أو شخص انفصلت عنه هي هبة يمنحها القدير لمن يشاء وليس كل البشر يُمكنهم تجاوزها ولهذا ندعوه بالتعافي الجزئي فهو يحدث عندما تتوقف عن التفكير في آلام الماضي وجراحاته وهو بالمعنى الدقيق تجاهل عن قصد ولكنه ليس حلاً كاملاً ولا علاجًا نهائيًا بل إنه بمجرد تذكرك لما تقوم به سينفي عقلك صفة المتعافي عنك ويُلزمك بصفة المتصنع ولهذا ستتذكر كل شيء بألم أكبر.. بألم مُضاعف.. وهُنا يُمكننُا تقييم حُبك فإما أن يستيقظ الولي الراقد بين أضلعك المختبئ داخل حناياك فتُمسي شخصًا أكثر صفاءً وإما أن يُصبح قلبك مقبرة كل شيء يُدفن فيها حتى أنت فلذلك كن حذرًا واختر بحكمة.. ولكن على سبيل إدخال السرور إلى نفسك فإنهم يقولون أن

هنالك صندوق بريد أزرق اللون في شوارع لندن كُتب عليه عبارة (رسائل حبُ) إنه لا يستقبل أية رسائل إلا أن تكون قد كُتبت بيد عاشق فلربما إن وضعت رسالتك داخله سيكتسب خطابك سحرًا ما يجعل حبرك ذو بريق نجمي يروق لها عندما تقرأه وكأن حروفك قد كُتبت بغبار السماء اللامع.. افعل كل شيء لتُعبر عن حُبك لها بالطريقة الأمثل حتى وإن كانت مجرد وضع عدة رسائل في صندوق أزرق فالعاشقات تُخبرهُن إناث النوارس عن كل شيء يقوم به رجالهن فكن مُحتاطًا جيدًا عندما تُلقي بخطابك داخل الصندوق فألقه برق ولكن الأفضل أن تُقبله قبل أن تُلقيه فهي ستعرف كيف عاملت رسائلها فمثل أولئك الفتيات يعتقدن أن كل ما قد يُقدم إليهن من عشاقهن هو بمثابة دعوة صريحة لإقامة احتفال صغير فرفقًا بها وبما تختزنه في قلبها من فرح طفولي بك.. وبعد أن وصل (موسى) لبوابة مطار أنقرة في مساء اليوم التالي لسفره اتبع نفس الإجراءات حين غادره فاقتطع تذكرة لطائرة ستقلع فجرًا نحو مصر وخلال ساعات انتظاره هاجمته تلك الأعراض التي ما انفكت تصرعه كل حين قبل أن يصل لضريح مولانا وكأنها خجلت أن تقوضه في حضرة (الرومي) فبدأت الاهتزازات العضلية بالتسارع حتى أنه سقط من كُرسيه متبوعة بازدواج الرؤية وفقدان البصر المحيطي بالإضافة إلى صداع يشل قدرته على الإدراك تمامًا فتدخل الطاقم الطبي المتواجد في صالة المُغادرين وبالفحص الظاهري أخبره أحد المسعفين بضرورة مراجعة طبيب متخصص في مجال المخ والأعصاب بشكل فوري وقد اكتفى فريق الإسعاف بإعطائه القليل من المسكنات التي تُمكنه من السفر جوًا بشكل آمن.. وبالفعل استطاع (موسى) استكمال رحلته نحو بلاده بسلاسة لا يعكر صفوها سوى بعض الوخز في

الرأس المصاحب ببعض الخدر وثقل الجفنين.. وعند وصوله صباحًا لمطار القاهرة الدولي عانق الأرض شوقًا وقبلها وكأنه يطبع شفتيه فوق جبهة محبوبته فحب الوطن من حب الإله فلا وجود ولا قيمة تذكر للإنسان إن كان وطنه مسلوبًا ممزقًا أو إن كان بلا وطن.. فهو عندما عانق أرض مصر فهو لم يقصد معانقة الأرض الصماء وإنما معانقة خطوات الأنبياء والصديقات والقديسين والعشاق والأولياء الذين ساروا عليها وطُبعت فوق تُرابها آثار أقدامهم.. وفور مغادرته المطار ذهب ليستقل نفس الحافلة التي جاء فيها من الإسكندرية في اليوم الذي قرر فيه المُغادرة إلى قونية قبل خمسة أيام مضت فوقف داخل محطة الحافلات ومر العديد منها متجهًا نحو أراضي بنت الإسكندر البكر ولكنه لم يُعر اهتمامًا لذلك وجلس أكثر من ثلاث ساعات ينتظر تلك الحافلة ولكن بعد نصف ساعة أخرى وصلت الحافلة فاقتطع تذكرة وصعد ليجلس في نفس كُرسيه السابق ولكن هذه المرة لم يرَ (آدم) فانحنى للأمام وسأل سائق الحافلة عنه فأخبره بأنه وُجدَ مُتوفيًا قبل يومين في ساحة المقابر الواقعة خلف أضرحة الأولياء في القاهرة القديمة حيث شوهِد جالسًا بسكينة محتضنًا شاهد قبر أبيه ولكنه في الواقع حينها كان قد توفي منذ ساعات فدُفن بجواره.. ثم تابع حديثه قائلاً:

– لقد كُنا نعتبره تميمة مُباركة لا غنى عنه داخل حافلتنا فهو كان نقيًا لدرجة أنك تستطيع رؤية قلبه ينبض إذا نظرت لصدره.. ولم أرَ في حياتي رَجُلاً يحزن حتى يفقد قدرته على مواصلة الحزن فيموت!!

لم يُعلق (موسى) على ما سمعه ولكنه اكتفى بالربت على كتف السائق وتعزيته ثم أعاد رأسه للخلف وظل يُردد بصوت خفيض قائلاً:

– كل من عليها فان.. حتى العشاق والأولياء والحزانى.

ثم أغلق جفنيه وغط في نوم عميق حتى وصلت به الحافلة إلى محطتها الأخيرة القابعة خلفها بنايته السكنية ذات الطوابق التسعة فتقدم مُفتش التذاكر ليوقظه من سباته فأفاق (موسى) ببطء ففتح عينيه وهم بمغادرة الحافلة ولكنه شعر بأنه هنالك غِشاوة ما أو طبقة من الضباب تُعيق بصره فاعتقد أنها بسبب الإرهاق المتتابع لأيام فمد يده ليحمل حقيبته وتقدم بخطوات ثقيلة نحو باب الحافلة فغادرها متجهًا نحو منزله الذي استغرق رُبع الساعة لكي يكون واقفًا أمام بوابته ولكن على عكس المعتاد وجد جميع النوافذ مغلقة والشرفة أيضًا كذلك فصعد السُلم على عجل حتى وصل لباب شقته وعندها طرقه عدة مرات لكن بلا مُجيب فأخرج مفتاحًا احتياطيًا للشقة كان موجودًا في حافظة نقوده فوضعه داخل القفل وأداره مرتين لليمين فانفتح الباب ليدخل ويجد الظلام يُخيم على المكان فتحسس الحائط ليضغط على أزرار المصابيح المجاورة لغرفته فأنارت بعد عدة ثوانٍ من مقاومة التيار ليجد رسالة من والده موضوعة فوق سطح طاولة صغيرة بجوار التلفاز.. أخبره فيها أنه غادر البلاد بشكل مفاجئ متوجهًا لبريطانيا في اليوم التالي لسفره نحو تركيا وذلك لحضور مؤتمر علمي خاص بمجال الصيدلة يعقبه اجتماعات فرعية لتوقيع عقود زمالة بين جامعة الإسكندرية وعدة جامعات بريطانية في اسكتلندا وإنجلترا وقد يستغرق الأمر أسبوعين أو ربما أكثر وقد نوه والده في تلك الرسالة بضرورة الاتصال به عندما يصل إلى المنزل عقب انتهاء رحلته لتركيا على الرقم المدون بالأسفل الخاص بفندق إقامته هُناك.. وعندنا حاول (موسى) الاتصال بذلك الرقم كان يسمع المُجيب الآلي يُخبره أن الخطوط

جميعها مشغولة ومن الأفضل أن يحاول الاتصال لاحقًا.. وقد كرر تلك المحاولات عدة مرات على مدار اليوم ولكنه كان يسمع نفس الإجابة فرأى أنه من الأفضل أن ينتظر مُكالمة من والده عن طريق الهاتف الأرضي المنزلي لاسيما أنه قد أخبر والده أنه سيعود بعد أسبوع قبل أن يُغادر.. فظل منتظرًا ليومين كاملين دون أية نتيجة حتى أنه عجز عن التواصل مع هاتف الفندق أو مع هاتف قسم الصيدلة بجامعة الإسكندرية فذهب لمقر الجامعة ثم تواصل مع موظفي الاستعلامات بكلية الصيدلة فأخبروه أن الوفد المتواجد في بريطانيا يتنقل في أماكن كثيرة ومن الصعب الاستقرار على رقم هاتف واحد ولكن على كل حال يتبقى أسبوع على الأرجح ويتم حجز تذاكر العودة لجميع أعضاء الوفد فلا داعي للقلق ولكن ورغم كل شيء لم يتفهم عدم قدرة والده على الاتصال بهاتف المنزل فأخذ يُخمن العقبات التي قد تحول بينه وبين الاتصال بهاتف يحفظ رقمه عن ظهر قلب ولكنه لم يجد فجلس بقية اليوم الثاني بجوار الهاتف ولكن والده لم يتصل به أبدًا!!.. وفي صباح اليوم الثالث عندما استيقظ من نومه وجد أن تلك الغِشاوة تزداد سُمكًا على عينيه وقد تسبب له إعاقة حقيقية عن البصر في المستقبل فقرر أن يزور أحد أشهر أطباء العيون في مدينته وهو جراح العيون الشهير (د/ طارق الرفاعي) فتواصل مع مُساعديه في مركزه الطبي وحجز موعدًا في السابعة والنصف زوالاً وعند حلول المساء كان (موسى) متواجدًا داخل المركز وبعد خمس دقائق من الانتظار لتأكيد بيانات الحجز سُمح له بمقابلة (د/ طارق) ذلك الشاب الحنطي صاحب الأربعة والثلاثين عامًا الذي رحب به بود وأخبره ألا يقلق وأن يسترخي ويُخبره عن الأعراض التي يُعاني منها قبل توقيع الكشف عليه فقص عليه

جميع تلك الأعراض التي تعرض لها قبل ما يقرب من العامين والأهم أنه وصف له بالضبط ما يشعر أنه يوجد فوق شبكيته فهو يشعر بحالة إعتام طفيفة لا تؤثر على مجريات البصر ولكنها تسبب له بعض القلق فأخضعه الطبيب لفحص شامل لجميع أجزاء العين ولكنه بعد انتهاء الفحص بدت عليه علامات الارتباك وفعل كل ما بوسعه ليضبط ردود فعله كي لا يشعر (موسى) باضطرابه فأشار له بالرجوع إلى مِقعده بينما التف هو حول مكتبه وجلس على كرسيه كما كان وحادثه بهدوء مفتعل قائلاً:

– في الحقيقة الفحص أظهر أشياء مهمة حول حالتك وأخفى عني أشياء أخرى.. وفي هذه الحالة سأطلب منك الذهاب الآن للبناية المجاورة حيث المركز الطبي الخاص بصديقي (د/ يونس الهواري) جراح المخ والأعصاب ذائع الصيت ولكن انتظر لحظة..

نظر (د/ طارق) نحو أدراجه ثم فتح أحدهم وأخرج مُذكرة صغيرة خاصة بكتابة الملاحظات ثم أمال برأسه للأسفل وكتب توصيه عاجلة منه ليوصلها (موسى) عندما يذهب لمكتب الاستعلامات في مركز (د/ يونس) وبعد أن أنهى كتابة التوصية على عجل نظر نحو (موسى) ويده ممدودة بتلك الورقة التي يمسكها بأطراف أصابعه ثم قال:

– خذ هذه الورقة وقدمها لاستعلامات المركز هناك وسوف يدخلونك للطبيب المختص الذي سيوقع عليك فحصًا شاملًا وعاجلًا حتى أستطيع تحديد الموقف بجلاء.. اذهب واخضع للكشف ولن يتقاضى منك أجرًا لأنني سأتواصل معه عبر الهاتف على أن تعود إلى مكتبي هُنا بعد أقل من ساعة.

حاول (موسى) أن يستفسر عن سر الإسراع في توقيع الفحوصات عليه ولكن (د/ طارق) لم يدع له مجالاً للإجابة بل أمره بأن يذهب حيث أمره.. وعلى مضض قام (موسى) متجهًا نحو مركز (د/ يونس) الذي كان ينتظره بنفسه أمام ساعة الاستعلامات فبمجرد أن رأى ورقة التوصية اصطحبه معه لقاعة الفحص دون حتى أن يتكلم معه وكل ما قاله (لموسى):

– رجاءً مدد جسدك على حافة هذه الآلة واخلع قميصك حتى أتمكن من الفحص بدقة.

ففعل (موسى) ما طلبه الطبيب ومدد جسده على ما يشبه الأريكة المحشوة بالإسفنج ذات الغطاء الجلدي الأسود بارد السطح.. وبعد أن مدد جسده بشكل صحيح سحبته تلك الآلة للداخل واستغرق (د/ يونس) أكثر من نصف ساعة ليضع يده على جميع تفاصيل الحالة الخاضعة للفحص ثم بعد أن انتهى من عمله استخرج من الحاسوب ورقة طُبع عليها الكثير من المصطلحات الطبية التي عجز (موسى) عن فهمها ولكنه شعر بأن هناك شيء ما يُحاك في الكواليس لا يستطيع تخمينه بشكل كامل حتى الآن.. وما إن أصدر الحاسوب صفيرًا حادًا مُعلنًا نهاية الطباعة قطع الطبيب تلك الورقة وسلمها (لموسى) قائلاً:

– انتهى الفحص.. وكل ما عليك الآن أن تذهب بهذا التقرير لـ (د/ طارق) وأنا سأتكفل بمناقشة الأمر معه عبر الهاتف.

– ولكن عذرًا سيدي.. لم كل هذا التكتم؟.. أحالتي خطرة إلى هذا الحد.. هل هناك احتمالية أن أُصاب بعمى مثلاً؟

ضم (د/ يونس) شفتيه ورمش بجفنيه عدة مرات ثم قال:

– الأمر مُعقد وأنا لن أستطيع إخبارك بأي شيء الآن ولكن من الأفضل أن تذهب لمكتب (د/ طارق) فهو لا شك في انتظارك.. أتمنى لك حظًا موفقًا.

تصافح الرجلان ثم خرج (موسى) متوجهًا للمقر الذي غادره منذ قليل وما إن صعد درج مركز جراحات العيون ووصل أمام مكتب طبيبه المختص حتى قرع الباب مرتين برفق فسُمح له بالمرور وبعد أن دخل للمكتب استلم منه (د/ طارق) التقرير الذي يحتوي شرح حالته بالكامل من ناحية مدى سلامة المخ والأعصاب المحيطة به ثم أشار له بالجلوس وبعد أن انتهى من قراءته زفر زفرة حارة ووضع التقرير فوق سطح مكتبه الزجاجي وقال بخيبة أمل باتت واضحة على لمعان عينيه:

– أعتقد أنك شاب تؤمن بالله حق الإيمان وتعلم في قرارة نفسك أنه بيده المحيا والممات والمرض والصحة أليس كذلك؟

ارتاب (موسى) من تلك المُقدمة لأنه فطن إلى أن ما قد يعقبها ليس سارًا ولكنه استجمع بأسه وقال بهدوء:

– بالطبع.. يُحي العظام وهي رميم.

عندها عاد (د/ طارق) بكرسيه للخلف قليلاً ووضع يده على فمه وسعل بصوت خفيض للغاية ثم قال:

– يجب عليك تقبل ما سأبلغك به الآن حتى نستطيع التبكير بالعلاج المُناسب.

– أنا مستعد لسماع أي شيء.. فلتتفضل.

– اسمع يا (موسى).. اسمك (موسى) أليس كذلك؟

– نعم صحيح!

– جيد.. يؤسفني أن أُخبرك بأنك مصاب بسرطان الدماغ وهو بحالة متقدمة جدًا وهذه الأورام تضغط بثقلها على مركز الإبصار ولابد من البدء بالعلاج الإشعاعي الآن مُباشرة في مدة أقصاها خمسة أيام وبعدها ستخضع لجلسات الإشعاع وإلا سينتشر السرطان لأماكن أخرى بجسدك وربما ستفقد بصرك وحياتك معًا في مدة لا تزيد عن الشهر إن لم نتدخل بجرعات علاجية كافية فالورم ينتشر بسرعة لا أكاد أصدقها ويبدو أنه متجذر فيك منذ مدة لا تقل عن العام أو يزيد.. لقد أتيت لتقوم بالفحص بعد أن استفحل الأمر وقد نصبح عاجزين عن إيقاف تمدد الورم وهذا يُحزنُني جدًا.. فرجاءً ساعدني لكي نتمكن من اجتياز هذا الظرف الحرج فالوقت يسير ضدنا لا بصالحنا.

استمع (موسى) بسكون تام لما قاله الطبيب ولم يُبدِ أي إشارة للانزعاج فهز رأسه متوافقًا مع كلام طبيبه ثم قال برزانة:

– هل يُمكنني معرفة كم الوقت الذي سأكتسبه إن أجريت جلسات العلاج الإشعاعي؟

تنهد (د/ طارق) طويلاً ثم أجابه قائلاً:

– أعتقد أنه مبدئيًا سنكتسب ستة أشهر تقريبًا إن حالفنا الحظ ولم تظهر أورام جديدة فحينها يُمكننا استكمال العلاج ولكن إن ظهرت أورام جديدة سيكون الوضع معقد للغاية خاصة أن خلاياك تنهار كقصور الرمال على شاطئ صاخب أمام هجمات السرطان.

– إذن أقصى مدة يُمكنني عيشها هي ستة أشهر وأقل مدة هي شهر؟

– لا.. هذا ما يقوله الطب نظريًا فقط.. لكن إن استعنت بالله طالبًا منه الخلاص بإيمان عميق يُمكننا العبور بسلام من هذه المحنة.

أرجع (موسى) رأسه للخلف على كُرسيه وأغمض عينيه ثم ابتسم وقال:

– سبحان الله.. يأتي اليوم الذي أموت فيه ببطء بسبب مرض تخصصت هي في علاجه كما أخبرتها مازحًا قبل عامين عندما شُفي على يديها كهل كان بينه وبين الموت خطوة واحدة بسبب هذه اللعنة المستقرة في خلاياه ولكنها اليوم أبعد ما تكون عن تقديم يد العون لي.. ولكني لست حزينًا ولا ممتعضًا على أية حال فكل شيء يحمل رائحتها يجد في داخلي براحًا كبيرًا يسعه حتى ولو كان سرطانًا.

لم يفهم (د/ طارق) عن أي شيء يتحدث (موسى) ولكنه نظر إليه متعجبًا وقال:

– أرجوك دعك الآن من مبهمات الأمور وتحضر ذهنيًا وجسديًا لخوض التجربة في أقرب وقت ومن الأفضل أن تكون غدًا فنحن في سباق عكسي ضد الزمن أتفهمني؟

صابت (موسى) نشوة سُكْر غريبة جعلت رأسه ثقيلاً ولكنه لا يزال يستطيع السير على قدميه فقام من فوق كُرسيه وقال للطبيب وهو يُظهر بعض الاختلال في التوازن:

– قال مولانا (الرومي) ذات يوم مُعاتبًا أحد تلاميذه: "لقد ولدت بأجنحة فلماذا تفضل الزحف في الحياة؟"

ثم اتجه نحو باب المكتب بتثاقل فأدار المقبض وخرج متجهًا نحو منزله متغاضيًا عن نداءات (د/ طارق) التي لم يُعرها اهتمامًا فأكمل طريقه نحو

الشارع الموازي للمركز الطبي واستقل سيارة أجرة وعاد لمنزله يُلقي بنفسه فوق سريره كجثة ظبي صغير سقطت أرضًا من بين مخالب نسر مُحلق.. إن (موسى) الآن لا تتوافد إلى رأسه أي صور أو أي ذكرى إلا ذكراها هي (أميرة).. فهو لم يُحب في حياته أحدًا كما أحبها ولم يكن متيقنًا أنه خذل أحدًا كما خذلها.. قد يكون حتى الآن لا يُصدق حقيقة انفصالهما ولكنه يستحيل أن يقبل الاحتضار دون أن يودعها فهو لأول مرة يشعر بالقوة وبأن لا شيء يستحق العناء أكثر من محاولة سرقة نظرة واحدة لحدقتيها الوارفتين وفي نفس الوقت لم يكن كسيرًا أبدًا كما هو الآن فالموت بعيدًا عنها تبدو له نهاية لا تليق بعاشق مثله.. إنه يُريد الحصول على السلام.. يُريد أن يرقد في قبر بارد يُتيح له الإصغاء بصمت لأي خبر يتناقله عنها سكان الأرض ودوابها أحياءً كانوا أم أمواتًا ورغم كل ذلك ذهب لمدة عشرين يومًا لتلقي العلاج فالمُريد لا ييأس من رحمة الرب ولا يفقد الأمل في تجليات قدرته.. ولكن العلاج لم يكُن سوى مجرد محاولة يائسة من طبيب متعاطف ولذلك فقد شعر بأن علاجه لن يُجدي نفعًا فهو لن يتحمل المزيد من روائح شراشف أسرة المشفى العابقة بعوالق العلاج الإشعاعي الذي سيحرق خلاياه ولن يُمكنه مواصلة تحمل التنفس من خلال أنبوب الأكسجين المجاور لسريره إنه يعتبر هذا نوعًا من الصفاقة وعدم احترام هيبة الأيام الأخيرة لمريض يحتضر فقرر أن يذهب حيث أمره (شمس) ولذلك فهو سيتصل بصديقه (إبراهيم) في الصباح التالي لمُغادرته مقر علاجه بالمشفى ليُبلغه بما يدُور في رأسه ولأن الليل بالنسبة لرجل يحتضر يكون في الغالب أطول من المُعتاد فقد استنفد كل طاقته في محاولة تصريف تلك الساعات المتراكمة فوق بعضها البعض كأكوام

من نفايات لزجة.. وما إن أشرقت الشمس وانتصب عقرب الساعة على تمام التاسعة صباحًا أخرج هاتفه الخلوي واتصل بصديقه (إبراهيم) واختصر معه الحديث بكلمة واحدة:

– قبل أن تذهب إلى أي مكان لابد أن تأتي الآن لمنزلي فأنا أُريدُك في أمر هام وعاجل.

ولم يتثنَّ (لإبراهيم) أن يعرف سبب هذا الاستعجال والحُمى الغير مسبوقة في الإلحاح على طلب ما من صديقة الأقرب؟.. ولكنه على أية حال كان متواجدًا في منزل (موسى) في تمام العاشرة ليجد صديقه بدأت عليه أعراض الهُزال وشحوب الوجه والغيوم الأرجوانية أسفل العينين بدأت في الظهور ولكنه قبل أن ينطق بكلمة أمسك (موسى) بيده وأجلسه بجواره على الأريكة وقال بصوت مرتعش وأنفاس باردة ناظرًا بجفون خاملة نحو (إبراهيم):

– أُريد منك أن تجد لي سفينة ما أو زورقًا أو أي وسيلة لعينة تستطيع حملي فوق الماء لأيام.. أُريد أن أتخطى الحدود البحرية للجزائر دون مُلاحقات من حرس الحدود.. وسأعطيك أربعة وعشرين ساعة فقط لتقم بهذا الأمر.

فقال (إبراهيم) باستغراب بدا واضحًا على وجهه:

– الجزائر!!.. لمَ تذهب متسللاً وأنت تستطيع الذهاب عبر المطار بشكل اعتيادي؟

فضاق صدر موسى وهز رأسه وتنفس بغضب ثم قال:

– ليس لك دخل يا (إبراهيم) فقط قم بتنفيذ ما أمرتُك به وسأنتظر ردك بكامل التفاصيل غدًا صباحًا.

ثم أشار له بالخروج على أن يُبلغه غدًا بكافة الجزئيات التي تشمل مكان الانطلاق ومدة الرحلة وخطة التسلل ولكن (إبراهيم) رفض الخروج قبل أن يُجيبه (موسى) عن سؤاله فاضطر أن يُخبره السبب بنفاد صبر مكتوم فقال:

– السفر من مصر إلى الجزائر عبر خطوط الطيران سيستغرق شهورًا من أجل استخراج تلك الورقة الغبية التي تُسمى تأشيرة دخول وأنا لا أملك وقتًا.. عليها اللعنة.. فلتذهب لقاع الجحيم هكذا قوانين.

ظل صديقه غير قادر على الفهم ولكنه أخبر (موسى) بأنه سيجد له طريقة للسفر بحكم خبرته الطويلة في البحر وهذا لا ينفي أنها ربما ستكون خطرة بعض الشيء ولكنها ستنجح.. فاتجه (إبراهيم) نحو الباب وخرج متجهًا لعمله أما المُريد العاشق المُبتلى فألقى بنفسه فوق كُرسي متوسط الحجم هامشي بجوار باب غرفته لينام عليه حتى الثامنة مساءً ليستيقظ برأس أكثر ثقلاً وبإدراك يزداد اضطرابًا فذهب ليغسل وجهه بماء بارد لعله يستفيق ويُدرك ما يُحيط به بصورة أفضل وبينما هو ماكث في حمام منزله ليغتسل إذ برنين هاتفه يتصاعد فتركه دون إجابة حتى انتهى من اغتساله وفور خروجه ذهب ليجلس على نفس الكُرسي ثم التقط هاتفه ليجد أن (إبراهيم) قد ألح في الاتصال به فقام برد الاتصال وانتظر حتى يُجيب وما هي إلا ثوانٍ حتى أجابه (إبراهيم) قائلاً باستطراد طويل:

– لقد وجدت سفينة صيد صغيرة قادرة على اختراق الحدود البحرية لبلدان المتوسط وقبطانها على دراية واسعة بكافة المسالك على طول ساحل أفريقيا الشمالي من قناة السويس حتى أقصى سواحل المغرب والرحلة ستستغرق سبعة أيام كاملة لأنه يحمل أيضًا الكثير من المُهاجرين نحو أوروبا وستكون

أنت أخر الواصلين لوجهتك فهو سيرسو بالقرب من سواحل إيطاليا ثم سيعود بك قرب المياه الإقليمية لتونس وسيستطيع التسلل نحو الجزائر.. لقد فعلها عشرات المرات من قبل بداعي الصيد.. لا تقلق ستصل.. ولكن الرحلة ستُقلع اليوم في الثانية عشر مساءً وستكون هُناك مُهلة إحدى عشرة دقيقة للإفلات من مراقبة حرس السواحل المصري أثناء تغيير نوبات الحراسة فلا تتأخر وانتظرني عند بوابة الميناء رقم ست عشرة سأكون هُناك في الحادية عشر والنصف تمامًا فلا تتأخر.

كان الوضع مُربكًا (لموسى) فهو لم يتوقع السفر خلال ساعات ولكنه أجاب صديقه قائلاً:

– أحسنت عملاً.. سنلتقي في الموعد المُحدد.

ثم أغلق الهاتف وقام من فوق كُرسيه متفحصًا ما حوله فأخذ يُعيد ترتيب حقيبته ثم وضع بها جواز سفره كإجراء احتياطي للتعريف بهويته إن تفاقمت الأمور وهذا احتمال وارد بلا شك ثم ذهب لمكتب والده وأخذ دفترًا صغيرًا وقلمًا وكتب لوالده خطابًا من صفحتين طويلتين يشرح فيهما كل ما نوى القيام به وكل ما يخص تشخيص مرضه وأرفق خاتمة الخطاب بعبارة وداع نمقها على قدر استطاعته فكتب قائلاً:

– "أبي العزيز الذي طالما أحبني وأنا بالمثل لطالما أحببته.. أنت من جعلتني قويًا لدرجة أنني أصارع الموت مصارعة المُحاربين فلا تحزن ولا تبحث ولا تبتئس فأنا سأكون بجوار أمي وسأتمكن من احتضانها أخيرًا ألا يجعلك هذا سعيدًا؟.. ولكن إن احتجت يومًا لزيارة قبري ستصلك الأخبار عن مكانه

وسأنتظرك حينها بلهفة طفل متعلق بأصابع والده بعدما أحضر له بعض السكاكر.. أنا أحبك تذكر هذا".

وبعد أن انتهى من الكتابة نزع الورقتين من الدفتر برفق ووضعهما فوق لوح الزجاج الذي يُغطي مكتب والده ووضع الدفتر والقلم في حقيبته وأعاد ترتيب المنزل على أفضل ما يكون وعندما حلت الساعة الحادية عشر والرُبع حمل حقيبته وخرج دون أن يُلقي نظرة أخيرة على منزل لن تطأه قدماه مُجددًا وعندما وصل لقارعة الطريق الرئيسي أوقف إحدى سيارات الأجرة واستقلها مُتجهًا نحو بوابة الميناء رقم ست عشرة ليجد (إبراهيم) ينتظره مرتديًا قميصًا أبيض وبنطالاً يميل لونه إلى الزرقة ثقيلة الظلال فتبادلا التحية ثم أخرج (إبراهيم) من طيات بنطاله خمسمئة يورو وضعها في يد (موسى) ليسهُل عليه التحرك داخل الجزائر في حالة وصوله كما يقتضي خط السير وعندما سأله عن المبلغ الذي يطلبه قبطان السفينة نظير إيصاله فقال له (إبراهيم) مطمئنًا:

– لا عليك.. فكل شيء مدفوع مُسبقًا ولولا أني أثق بهذا الرجل ثقة عمياء لما جلبتك هُنا لتستقل سفينته.

فقال (موسى) مقاطعًا حديث صديقه:

– ولكن أنا أحمل ما يكفي من المال.. كان يجب عليك ألا تقوم بدفع أي شيء.

– تذكر يا صديقي أنك ستدخل لبلاد غريبة متسللاً والمال وحده هو من يستطيع أن يحميك.. ورغم أني لا أفهم لماذا تقوم بهذه المخاطرة ولكني تعودت منك على الإيضاح حينما يكتمل سير الأمور رغبت ولهذا فأنا لن أُلح عليك في طلب التفسير ولكني سأنتظر الإجابة حين عودتك.

فأبتسم (موسى) ابتسامة حسرة ليتبعها بكلمات وجيزة قائلاً:

– نعم.. سأفسر لك عندما نلتقي مُجددًا.. وأتمنى أن أراك هُناك حيث النور يُحيط بكُل شيء.

لم يفهم (إبراهيم) للمرة الثانية مقاصد صديقه ولكنه اكتفى باحتضانه ومرافقته لأبعد ركن هامشي داخل الميناء حيث ترسو سفينة الصيد وعليها أكثر من ثلاثين شابًا يتهفون الهجرة لسواحل أوروبا حتى وإن غرق نصفهم خلال الطريق فصعد وجلس في الركن الشرقي للسفينة وودع (إبراهيم) ملوحًا له بكلتا يديه وما هي إلا دقائق وتحركت السفينة نحو وجهتها وأخذ الميناء يبتعد شيئًا فشيئًا ليبتعد معه الوطن المتمثل في (إبراهيم).. وخلال تواجد (موسى) في عرض البحر حوالي الساعة الثانية فجرًا.. كان رنين الهاتف المنزلي في غرفته يتصاعد إنه والده يُكرر الاتصال به ليُخبره بوصوله مساء الغد نظرًا لحدوث مستجدات جعلت الوفد يُؤخر توقيت عودته إلى مصر فقد أبلغته استعلامات الجامعة باستفسار (موسى) عن سُبل الاتصال به فلهذا أسرع بمهاتفته عندما تمكن من ذلك ولكن لا أحد يُجيب.. ليعود في المساء التالي ليجد تلك الرسالة التي جعلته غير قادر على الحركة.. جعلته غير قادر على فعل أي شيء فهو أصبح عاجزًا حتى عن محاولة البكاء.. ولكن ماذا يُمكنه أن يفعل سوى إبلاغ الشرطة والاتصال بأرقام الاستغاثة الخاصة بالقوات المُسلحة ولكن سبق السيف العذل ولكنه ظل متماسكًا طيلة أربعة أيام لاحقة ينتقل من مؤسسة شرطية لأخرى عسكرية للاستنجاد بهم ولكن كيف يُمكنهم المُساعدة وهم لا يعرفون خط سير تلك السفينة ولا حتى موعد وصولها لتلك المرافئ وتعقب أمر كهذا يُمكن تصنيفه كشبه مستحيل فالمُهربون يُجيدون التخفي وما

يُدريهم لعل السفينة خرجت من مُحيط منطقة المتوسط أو ربما تتواجد على أقصى أطرافها فالطرق الملتوية لهكذا سُفن كثيرة تكاد تكون لا تُحصر وعندها لم يكن أمام والده سوى انتظار أي خبر منه والاستسلام الكامل للحزن والبكاء الممزوج بمرارة الفقد.. وفي مساء اليوم السابع للرحلة الثامن من مهلة العشرة أيام اقتربت السفينة من نقطة ساحلية جزائرية لطالما عُرفت بأنها منفذ لدخول وخروج المُهاجرين غير الشرعيين فرست في جُنح الظلام على أقصى هامش شاطئ جنان الباي بمنطقة سرايدي بولاية عنابة فأسرع (موسى) بالقفز في الماء الضحل القريب من الشاطئ فوصلت المياه لكتفيه ولكنه حمل حقيبته الصغيرة لأعلى واستطاع السير بصعوبة بالغة نحو الشاطئ وعندما وصل أسرع بالاختباء داخل الغابات المُقابلة لذلك المرفأ واستبدل ملابسه المُبتلة بأخرى أكثر نظافة وركض قدر استطاعته حتى وصل للطريق الرئيسي المُقابل للغابة فوضع حقيبته أرضًا وجلس فوقها وانتظر حتى تتوقف له إحدى السيارات لتُقله إلى قسنطينة مدينة القلوب المُعلقة في حبال من حرير بين السماء والأرض.. وبعد ساعة تقريبًا حوالي الثانية فجرًا توقفت له حافلة فارغة من الرُكاب وفور أن تكلم (موسى) مع السائق عرف من لهجته أنه مصري فرحب به ووافق على أن يُقله إلى قسنطينة دون حتى أن يتقاضى أجرًا وخلال قطع الحافلة للمسافة الممتدة لساعتين بين الولايتين شعر (موسى) بهبوط حاد للغاية في دورته الدموية ناتج عن سوء تغذية واضح خلال أسبوع مضى بالإضافة إلى أن رأسه يكاد ينفجر كفوهة بُركان فالسرطان تمكن منه وأحكم قبضته على خلاياه فلا يكاد يُفلته إلا جثة هامدة فاليوم هو صبيحة اليوم التاسع من المُهلة المُقررة إنه يمتلك فقط يومًا واحدًا ليتمكن من تنفيذ وصية

(شمس).. فحاول عدم إثارة انتباه السائق لكن النزيف الذي أغرق أنفه وفمه فضحا أمره فتوقف السائق مرتعبًا وخطا نحوه محاولاً إنقاذه وأصر على طلب الإسعاف ولكن (موسى) أبلغه بعدم جدوى الأمر حاليًا وأنه سيذهب للعلاج في قسنطينة وخاطبه برجاء حار أن يُكمل طريقه ولكن السائق ظل مترددًا ولكن تحت إلحاح (موسى) وافق على مضض.. ظل النزيف مستمرًا صاحب ذلك زرقة قاتمة شديدة اصطبغت بها شفتاه وأخذ تورم غدده الليمفاوية الذي بدأ قبل ثلاثة أيام يشتد وكذلك آلام العظام شرعت في الصعود به إلى مستوى أعلى من الألم ولم يملك إلا أن يكتم صرخاته واكتفت عيناه بذرف الدموع كشلالات تهبط في خط مستقيم نحو الأرض.. إن (موسى) يحتضر بصمت لا ريب في هذا فالسرطان انتشر في جسده بالكامل حتى أن الرؤية تكاد تكون معدومة فهو يرى كل ما حوله كأطياف مُشوشة ويبدو أن السرطان قد وصل لعينيه أخيرًا.. وليزداد الأمر سوءًا تورمت يداه وقدماه فأصبح من المستحيل أن يسير في طرقات قسنطينة كما تمنى وهو أيضًا لا يُمكنه أن يراها الآن.. فمسح الدم عن وجهه وخاطب السائق قائلاً بصوت مبحوح:

– هل اقتربنا من قسنطينة أم مازال الطريق طويلاً؟!

فأجابه السائق بأن الساعة الآن الرابعة إلا عشر دقائق وهم بالفعل دخلوا قسنطينة للتو.. ابتهج (موسى) كثيرًا لذلك وتحرك نحو السائق ببطء مُمسكًا بحواف مقاعد الحافلة وعندما أصبح خلفه تمامًا قال له:

– أرجو منك أن توصلني إلى منطقة "باب القنطرة" وأن تسير على مهلٍ حتى أستطيع رؤية المنطقة جيدًا.

فسأله السائق قائلاً:

– هل تنتظر أحدهم هُناك؟ هل لديك أصدقاء سيُقلوك للمشفى؟ أم آخذك أنا إلى هُناك لأنك بالفعل تبدو متضررًا جدًا.

أجابه (موسى) بصعوبة مبتسمًا:

– كُل ما أريده منك شيئين إذا أذنت لي.

– تفضل يا بُني لا عليك اطلب ما شئت.

– أريد شيئًا لآكله.. شيئًا بسيطًا وسريعًا.. أريد أن أُشاركك طعامكم.

– لا تقلق قريبًا سنصل لباب القنطرة وسنجد مطعمًا مازال يفتح أبوابه فالأجواء الآن لا تنبئ عن وجود مطاعم تعمل.. ولكن ما هو طلبك الثاني؟

– أريد فقط أن تقف لدقيقة واحدة أمام منزل أبيض مكون من ثلاثة طوابق وبابه أزرق يقع شرق باب القنطرة.

فاستعجب السائق من طلبه فقال له موضحًا:

– هنالك العديد من المنازل بنفس الصفة في شرق المنطقة ربما تتخطى العشرات فكيف لي أن أعرف أي واحد منها تقصد؟

شعر (موسى) بخيبة أمل مفاجئة فهو يذكر أنه ذات مرة قبل ثلاث سنوات طلب من (أميرة) عنوان بيتها في قسنطينة فأجابته أنه يقع شرق باب القنطرة ويتكون من ثلاثة طوابق وله بوابة زرقاء؟؟ وأخبرته أيضًا برقم المنزل ولكنه لا يتذكره فأخبر السائق أن يذهب إلى الشرق وسيُلقي نظرة مشوشة على جميع البيوت لعل أحدهم يكون ذا نافذة مفتوحة تطل منها محبوبته كما هو شائع في روايات العصور الوسطى.. وعندما وصل السائق لتلك المنطقة أخذ يُلاحظ جميع المطاعم إن كان واحد منها مازال يعمل وانسحب (موسى) إلى جوار النافذة ففتح الزجاج للأعلى قليلاً وأخرج رأسه منها وظل يستنشق الهواء

البارد لهذه الأمسية ويُلاحظ بشوق قاتل كل أبواب ونوافذ البيوت التي بُنيت على الطراز الاستعماري الفرنسي ولكنها اكتسبت جزائريتها من الأرض التي بُنيت عليها فدمعت عيناه وهو يرى أطيافًا لتلك المنازل وبقية الصور المشوشة التي تلتقطها حدقتيه الشبه معتمتين من الشوارع وبعد حوالي نصف ساعة أي في تمام الرابعة والنصف فجرًا.. توقفت الحافلة فجأة وقال السائق مناديًا (موسى):

– يا بُني هُنالك مطعم صغير مازال مفتوحًا بجوار الجسر.

سمع (موسى) كلمة الجسر فسرت قشعريرة مزلزلة في جسده فقال بصوت خافت يكاد يُسمع:

– أي جسر!!

فأجاب السائق قائلاً:

– جسر باب القنطرة.. إنه أقدم الجسور بناه الأتراك عام ١٧٩٢ وهدمه الفرنسيون الملاعين ليبنوا على أنقاضه الجسر القائم حاليًا وذلك سنة ١٨٦٣.

فقال (موسى) على الفور بلهفة:

– إذن لا أُريد أي طعام الآن.. فقط أرجو منك أن توصلني لذلك الجسر.

– لقد كنت سأجلب لك وجبة خفيفة شعبية شائعة في المنطقة تسمى محليًا بـ "كسكروت فريت أومليت".. شطيرة من البيض والبطاطس المقلية ستنال رضاك بالتأكيد.

فشكر (موسى) السائق على اهتمامه ولكنه ألح عليه أن يذهب به إلى الجسر بشكل ضروري متحججًا بأن أحد أصدقائه سيمر عليه هُناك ليأخذه إلى منزله

ثم إلى المشفى في الصباح الباكر فاعترض السائق بشدة لأنه رآه هزيلاً للغاية ولابد له من أن يتناول شيئًا ولكن كالمعتاد كان إلحاح (موسى) أقوى من رغبة الرجل الخمسيني سائق الحافلة.. وبعد خمس دقائق وصلت الرحلة أخيرًا لنهايتها عند حافة جسر باب القنطرة فاقترب (موسى) من السائق وشكره بعمق وطالبه بأخذ أجرته ولكنه رفض كالمرة الأولى تمامًا ولكنه قال له معاتبًا:

– أنا حتى الآن لا أعرف اسمك يا بُني؟

فأجاب (موسى) بألم مكتوم طغى على صوته:

– اسمي (موسى) يا سيدي وأنا سائح مصري.

فأعقبه السائق بالتعريف عن نفسه قائلاً:

– أما أنا فاسمي (رشيد).. (رشيد مهداني).

فربت (موسى) بلطف على كتفه وقال:

– جزاك الله خيرًا يا عم (رشيد) فلولاك لما استطعت الوصول لوجهتي في الوقت المناسب.

– لا داعي للشكر يا بُني.. أتمنى لك إقامة سعيدة في قسنطينة وسأكتب لك رقم هاتفي إن تأخر صديقك عن القدوم فاتصل بي لأقلك إلى المشفى.

ثم أخرج الحاج (رشيد) من معطفه ورقة غرامات صغيرة استلمها من شرطي مرور لقيادة بسرعة أكثر من المسموح بها وكتب على ظهرها رقم هاتفه ثم طواها ووضعها في جيب سروال (موسى) وبعد أن تبادلا المصافحة غادر المُريد الحافلة بخطوات متثاقلة ساحبًا وراءه حقيبته ليواجه مصيره فوق الجسر كما أخبره (شمس).. إنه سعيد لأسباب عدة.. لقد نجح في تنفيذ

وصايا المُعلم.. لقد نجح في الوصول لأرض محبوبته.. لقد اقترب من سيرتا أكثر مما تخيل يومًا.. وأخيرًا جلس على الأرض مستندًا على أسوار الجبر الحجرية الضخمة.. إنها سيرتا.. أرض حُبه العتيق.. أرض مماته وميلاده الجديد.. إنه يجلس ليحتضر بسلام ولكنه مازال يُفكر هل يُمكنه مناداة (أميرة) من فوق الجسر؟.. وهل إن ناداها ستسمع نداه؟.. وهل إن سمعت ستُلبي؟.. فقرر أن يكتُب لها خطابًا لعله يصلها بعد موته.. فأخرج دفتره وقلمه من الحقيبة بصعوبة وقرب الدفتر من عينيه لدرجة أن مُقلتيه ربما قد تُلامسان ورق الدفتر الأبيض الفارغ.. فأمسك القلم بسبابته وإبهامه ثم كتب لمحبوبته خطابًا طويلاً قال فيه:

– (عزيزتي جنة الله في أرضه..

تحية مُباركة باسم الرب أبعثُها لقلبكِ الأخضر

أما بعد.. لقد كُنتِ الوحيدة التي امتلكتِ قلبي من بين نساء العالم ولازالت ذكراكِ باقيه فيه.. لكني أقول لكِ بصدق أني لست منزعجًا من غيابكِ فإن اشتقت إليكِ لبست أفخم ثيابي وذهبت للقائكِ على نواصي أوردتي.. إن كل شوارع المدينة خالية الآن حتى أن جدران المنازل تبكي من أجلنا.. فقد يكون صحيحًا أنه لم تتخلل خطاكِ ضواحينا يومًا ولكني حكيت عنكِ لهم كثيرًا وسوف أحكي عنكِ للجميع.. لأرصفة الأزقة وللمواليد الرضع ولأمواج البحر.. وسأقبل أن أدفع ما تبقى من عمري ثمنًا.. لإعادة يوم لقائنا من البداية.. إن هذا اليوم يساوي عمرًا يا فتاة.. وقد يبدو الأمر غريبًا إن أخبرتُكِ أن هُناك أصوات تئن بداخلي منذ فراقنا.. أصوات لسجناء في غرف التعذيب وأصوات أخرى لأرامل شابات يبكين أزواجهن الذين سقطوا في معارك مقدسة

منذ ألفية خلت.. إنها أصوات تدفعني للهرولة نحو بوابة منزلكم من أجل أن أختبئ هربًا من العالم خلف جدائل شعرك الربيعية المعتقة كالخمر.. فلتعلمي أنه لن يُغير الزمن وعودي التي قطعتها من أجلكِ وستظلين بطلة رواياتي المفضلة دائمًا وعندما تفتقد الكلمات لمعانيها ويفقد الحرب رونقه يكفيني أن أُرسل لكِ برقية من دعاء مختومة بأسماء الله مغلفة بسره الأعظم لعل ذلك يُتيح لنا التلاقي من جديد في زمن مغاير.. لقد رأيت عقب رحيلكِ ألف فتاة ودائمًا ما تفوزين.. لا توجد من تستطيع أن تنافسكِ يا شقيقة القلب.. أنتِ وشم سومري بارز نُقشت ملامحه على جدار كفي.. أتذكرين حين أخبرتكِ أن سيرتا هي أنتِ؟ ولها نفس عينيكِ الخضراوين وجدائل شعركِ الحريرية؟.. ها أنا ذا أتقدم ببطء نحو مرقدي المحفور فوق تلة تطل على نافذتكِ.. سيكون شيئًا جديرًا بالاحتفال أن أدفن في أراضيكِ فكلمة أُحبكِ حتى الموت لم تكن يومًا مجازًا.. إن الموت والحياة بالنسبة لي مجرد حتميات وقعت أنصافها ولا يخيفني وقوع أجزائها المتممة.. يكفي أن يتذكرني سكان الضواحي ويقولون "لقد أحبها كثيرًا".. ولأني أُحبُكِ بلا انتهاء سأظل واقفًا هُنا فوق هذا الجسر أترقب سماع خطواتكِ لنلتقي لأول مرة كجسدين فحتى لو سقطت السماء فوق هذه المدينة سأظل واقفًا من أجلكِ.. لا أُريد منكِ سوى أن تعتني جيدًا بكِ.. لا تصدقيهم إن أخبروكِ بأني أرقد تحت شاهد قبر جرانيتي مغروز فوق كومة تراب تغطيني.. إنهم كذبة يا عزيزتي.. فقط إن شعرتِ يومًا بحاجة ماسة لعناق أغمضي جفنيكِ ودعِ بقية الأمر لي.. الموات للجسد فالتراب يعود ترابًا أكان هذا بعد مائة عام أو حتى بعد ألفية.. لذا لا تصدقيهم ستجدينني فوق الجسور المعلقة وأمام بوابة منزلكِ وتحت نوافذكِ عندما يُمطر كانون.. أرجوكِ

ابقِ دائمًا مركزًا للكون كما عهدتكِ ففي السماء تطوف الملائكة حول العرش وقلبي يطوف حولكِ ها هنا على الأرض.. والسلام)

لقد كتب خطابه الأخير (لأميرة) دون اسم أو عنوان لأنه يخشى إن مات فوق الجسر أن تتناقل المدينة خبر وفاته ومحتوى الخطاب وكافة المعلومات عنه وهو ما سيحدث بالتأكيد ففضل عدم الزج باسمها ليُحافظ على سرية شخصيتها وعندما تنتشر محتويات الخطاب ستصلها وستعلم أنها المقصودة..

ثم أتبع ذلك كتابة بخط مرتعش أسفل الخطاب يوصي من خلالها أن يُدفن في قسنطينة وبعد أن فرغ من الكتابة تمامًا نزع الورقة من الدفتر وقام بطيها وظل قابضًا عليها بقوة حتى تتصلب يده على الخطاب بعد موته فيُمكن لمن يجد جثته نشر محتوياته.. وما هي إلا لحظات حتى فقد القدرة على الإبصار كما كان متوقعًا فأصبح كفيفًا للمرة الأولى في حياته واشتد الألم عليه وبدأ النزيف يعود مرة أخرى ليخرج الدم متفجرًا من أنفه وفمه وأذنيه إنها آلام الاحتضار الأشد وجعًا من الوقوف حافيًا فوق جمر ملتهب.. فأغمض عينيه الضريرتين وأخذ يُرتب أفكاره بتؤدة فأخر الأعمال التي نقوم بها هي غالبًا الأفضل فقرر مسايرة آلامه دون أن يصرخ ولو لمرة واحدة وخلال دقيقة من الصمت شعر بأن أحدهم يقف أمامه مباشرة فرفع رأسه لأعلى دون اكتراث ليجد أمامه شاب أبيض شديد الوسامة عاجز عن رؤيته ولكنه كان يرتدي بزة رسمية أنيقة جدًا ورابطة عنق حمراء وحذاءً أسود لامعًا ثم انحنى للأسفل وجلس القرفصاء أمام (موسى) وأمسك بيديه فشعر المُحتضر بالبرد فسحب يديه بسرعة وارتجف قائلاً:

- من أنت؟

رد الشاب بابتسامة ماكرة عريضة وقال:

– أنا رفيقُك الأول.. ألا تتذكرني يا آدم؟

اندهش (موسى) مما سمعه وقال نافيًا:

– أنت مُخطئ أنا لست رفيقك واسمي ليس آدم.

فرد بصوت يفوح منه رنين أجراس الأفاعي:

– بل أنت آدم.. كلكم آدم.. كلكم تشبهونه.. لكن أعتقد أنك ستكون أكثر ذكاءً منه وستقبل بعرضي.

فتح (موسى) فمه الغارق في الدماء وقال:

– وهل تقدم العروض للمُحتضرين؟

فأجابه بكلمة واحدة قائلاً:

– نعم.

فقال (موسى):

– إذن أنت تاجر أحمق.. اذهب لعرض بضاعتك لمن يستطيع شراءها.

فاقترب ذلك الشاب أكثر وتكلم بالقرب من أذن (موسى) تمامًا قائلاً:

– لا أحد يستطيع الشراء غيرك.. أنت ستموت نعم هذا صحيح ولكن يُمكنك أن تموت براحة أكبر بدلاً من أن تتذوق العذاب المصبوب عليك من قاع الجحيم فجسده سوف يتفسخ وأوردتك سوف تشتعل.. وأنت لا تستحق كل هذا.. أنت تستحق رفيقًا أفضل من (شمس).

انتاب (موسى) قلق عارم فقال:

– اسمع إما أن تُفصح عن هويتك أو أن تدعني وشأني.

فضحك الشاب بصوت مرتفع ضحكة خبيثة وقال:

– وهل تُريدُني أن أترُكك دون أن تأكل مرة أخرى من الشجرة المُحرمة؟.. لقد أخبرتُك من قبل أنها شجرة الخُلد ولكنك لم تفهم.. وذهبت لتستغفر فكان عقابك أن تُطرد مُهانًا من جنة هي لك في الأصل.. ولكنك الآن تحظى بفرصة عظيمة لدخولها مرة أخرى.. فقط أمسك هذه الشِفرة ومررها على أوردة معصمك وسترتاح من آلام الاحتضار وستُرافقني في الجنان العلوية.. فأنا اخترتُك.

هز (موسى) رأسه بما ينم عن معرفته بهوية الذي يُحادثه ثم قال بهدوء:

– أهلاً بالساقط من السماوات.. كنت أعلم أني لن أُصبح مُريدًا صادقًا إن لم يُجربني الشيطان وها أنت هُنا.. تعرض عليَّ أن أُزهق روحي لأرتاح.. يا لك من جبان.. خسئت.

وضع الملعون يده على شعره فمرر خصلاته بين أصابعه فعدل وضعيتهم لأعلى وأخرج من جيب بزته علبة سجائر باهظة وقداحة ثم أخذ سيجارة ووضعها على حافة فمه وأشعلها بهدوء ثم التفت نحو (موسى) وهو ينفث الدخان قرب وجهه وخاطبه بكلمات واثقة فقال:

– أنا لست ساقطًا يا هذا بل أنا الملآن حكمة.. أنا مُكتمل الجمال وكوكب الصبح المنير.. أنا حامل الضياء ورئيس هذا العالم.. لقد خدعك (شمس) ولم يُخبرك أن صراخك سيشق السماء وأيضًا تلك الفتاة التي تُحب تركتك كخرقة مهترئة لا قيمة لك ولا وزن.. ثم تصفني أنا بالساقط؟.. يا لوقاحتك.

– اذهب وإلا أذبتُك كما أُذيب الملح في الماء.. إن المؤمن المُريد الخاضع للرب يمتلك سلطانًا على جميع ما خلقه الرب.. إنه يمتلك سلطانًا على الشيطان ذاته..

– أنت أكثر بلاهة من أن تصبح ذا سلطان حتى على مجموعة ذُباب.. إن هذا العالم ملك لي يدور حول نفسه فوق راحة يدي.. فكل شيء فيه محسوب بميزان.. لم أترك شيئًا للصدفة أو الفوضى فأنا كما قلت لك سابقًا رئيس هذا العالم وأنا من أُحرك أقداركم كيفما أشاء دون وعي منكم أو إدراك.. إنه كون فسيح أحكمه بقوانيني الخاصة التي لا يُمكن كسرها أو الصمود أمامها فكل حقيقة راسخة في عالمك هي في الواقع مجرد كذبة لها مائة وجه.

– الملعون لا يُمكن أن يتحكم في الأقدار لأنه لا يستطيع أن يُغير قدره!.. انصرف للجحيم حيث أتيت وهذا آخر تحذير مني لك.

استمر الحوار سجالاً بينهما حتى استغرق (موسى) في تلاوة الأذكار متجاهلاً وساوس الشيطان الجالس إلى جواره فبدأ يقول بتتابع يتصاعد فيه صوته ممزوجًا بآلام حادة:

– يا رب ارحم.. يا رب ارحم.. يا رب ارحم.

فشعر بعد لحظات أن الشرير قد فارق المكان لكن آلام احتضاره لم تفارقه بل ازدادت سوءًا فبدأ الدم يخرج من تحت أظافر أصابع يديه وقدميه وعندما حلت الساعة الخامسة والنصف الموافقة لفجر يوم الخميس الرابع عشر من حزيران للعام ألفين وستة عشر صرخ (موسى) بأعلى ما يُمكنه متألمًا ليودع العالم كسيرًا وحيدًا مُحبطًا كما اعتاد أن يعيش غالبية عمره وظلت جثته ساكنة وباردة حتى رآها أحد المارة في السابعة صباحًا فاقترب منه ليوقظه ظنًا منه أنه نائم وما إن ضغط بأصبعيه على كتفه حتى سقط على جانبه الأيمن ميتًا وقد تطايرت من جيبه عشرات الأوراق النقدية فحملهم الهواء إلى أعلى سور

الجسر فبدا وكأن السماء تُمطر نقودًا.. فأبلغ ذلك الرجل الشرطة على الفور وتجمهر الناس بكثافة في موقع الوفاة وفعلوا كل ما أمكن (لموسى) تخيله وحاز الخطاب على شهرة واسعة حتى أن أُذيع على بعض محطات التلفاز والراديو ومواقع التواصل الاجتماعي على الإنترنت.. وعندما قامت الشرطة بتفتيش الجثة وجدوا في طيات ملابسه جواز سفره الذي كشف عن هويته رغم أنه دخل البلاد متسللاً ليوم واحد فقط ولكن نظرًا لوصيته التي كتبها بخط يده قررت السلطات أن تدفنه في قسنطينة وأن تُبلغ والده بمكان القبر وأن تُسهل له زيارة قبر ابنه كُلما أراد ذلك.. ولكنه ظل في عيون العامة ذاك الشاب الغريب العاشق صريع جسر باب القنطرة لا يعلمون عنه سوى تلك المسميات مما زاد في إنشاء أسطورة شعبية خاصة بهم حوله فهم كحال كل سُكان الشرق دائمًا لديهم أساطيرهم الخاصة الغامضة وأبطالهم الخياليين.. والغريب في الأمر أن (أميرة) لم تعلم شيئًا عن تلك الواقعة لأنها في ذلك الوقت كانت منقطعة فقط لمراجعة وفحص بدايات رسالتها العلمية بلا تلفاز أو صُحف وحتى الإنترنت لم تستعمله إلا للبحث الأكاديمي في أضيق الحدود الممكنة بل الأشد غرابة أنه عندما تحادثت مع والدتها لم تُخبرها بشيء وإن كانت السيدة (أسمهان) يساورها الشك حول الفتى الصريع أهو حقًا (موسى) أم لا؟ ولكنها لم تُخبر ابنتها عن أي شيء ولم تُحاول التأكد من السلطات وبالرغم من ذلك وصل خبر (موسى) (لأميرة) مُتأخرًا عن طريق إحدى صديقاتها العرب في الجامعة عندما سألت (أميرة) عن تفاصيل أكثر حول ذلك الشاب الذي مات نازفًا فوق أحد جسور مدينتها؟ فلم تفهم ماذا تقصد وقالت لها:

– ليس لدي فكرة عما تتحدثين ولكن سأبحث عن الأمر لاحقًا وسأخبرك ربما لأنكِ أثرتِ فضولي أنا أيضًا.

وفي المساء عادت لغرفتها التابعة لسكنها الجامعي وبدأت تتصفح مواقع التواصل الاجتماعي التي لم تزرها منذ ما يزيد عن الشهر وكانت حينها الضجة المُثارة حول (موسى) في كل من مصر والجزائر قد خفُتت فلم تُلاحظ شيئًا وكان الخبر لم يكن حديث الساعة ولكنها بدأت بالبحث في الأخبار الأقدم على خط حسابها الزمني في موقع فيسبوك وما إن وصلت لأوساط شهر حزيران حتى فُجعت بما رأت!.. إنه بلا شك جسد (موسى) لكنه ميت؟.. نعم إنه ميت أعلى أقدم جسور قسنطينة؟.. الجسد متورم هناك زرقة مألوفة لها تلُف أطرافه وشفتيه.. وما زاد الوضع تفاقمًا هو ذلك الخطاب الذي قرأته كلمة كلمة بحسرة عميقة فشعرت بأن الوقت لم يعُد يُحسب بعقارب الساعة بل أصبحت تحسبه بعدد انقباضات قلبها المكلوم وانبساطاته فالمشهد بالنسبة لها كان مُروعًا ولم تكن تدري أيُمكن لدموعها التي سكبتها أرضًا حزنًا عليه أن تملأ مجاري الأنهار التي جفت صيفًا أم لا ولكنها أصبحت غير قادرة على الوقوف منتصبة واختلط كحل عينيها بدموعها فامتزجا تحت عينيها على شكل خطوط سوداء تسيل على جدار وجهها.. لقد فقدت القدرة على الكلام أو حتى التفكير.. لم تكن تعلم أنها مازالت تُحبه إلى هذه الدرجة رغم كل ما فعله بها من إهمال وخذلان وبعد ساعة واحدة فقط أي حوالي الساعة الثامنة مساءً سحبت جواز سفرها وذهبت نحو المطار قاطعة تذكرة فورية لرحلة ستنطلق في تمام التاسعة مساءً نحو الجزائر لتصل قسنطينة في الرابعة عصر اليوم التالي دون أن تمر حتى على منزلها ودون أن تُخبر أحدًا عن توقيت

وصولها.. لقد توجهت مباشرة نحو مقابر المدينة لتجد قبر (موسى) مُرتكنًا في الجزء الشرقي من المقبرة وقد كُتب على شاهد القبر آية قرآنية تقول:

– بسم الله الرحمن الرحيم.. (كل نفس ذائقة الموت).. صدق الله العظيم.

ثم أسفل منها كُتب على الشاهد الرخامي ما يلي:

– هذا قبر المغفور له بإذن الله (موسى عبد الناصر المصري).. ولد ١٩٩٠ بمصر– توفي ٢٠١٦ بالجزائر.

وقفت (أميرة) أمام ذاك الشاهد منفصلة عن محيطها مُتعبة حزينة ومشدوهة تحمل في يدها زهرة حمراء وضعتها فوق القبر.. تلك الزهرة التي حلم بها (موسى) قبل أربع سنوات مضت وحكى لها عنها حيث رأى في منامه أن والدها يُعطيه زهرة حمراء ويُشير له بالذهاب نحو (أميرة) ليُعطيها إياها وها هي نفس الزهرة تعود (لموسى) مرة أخرى.. وبعد دقائق من الوقوف أمام القبر جلست (أميرة) أرضًا بجوار شاهد المقبرة تتلمسه بيديها وكأنها تتحسس وجه (موسى) فبكت بصمت مُوجع ثم خاطبته قائلة:

– أتدري يا (موسى).. أنا لم أكن أؤمن يومًا أنه يُمكن حقًا لأحدهم أن يموت بسبب الحب.. لكنك فعلت!.. كم هو مؤلم أن يكون لقاؤنا الأول بهذا الشكل!.. إني أفتقدُك.. لقد حاولت نسيانك وتظاهرت بأنك غير موجود ولكني لم أستطع تحمل الأمر ولم أستطع أيضًا أن أعود إليك مرة أخرى لأني كنت أحمل على جدار قلبي ندبات كثيرة سببتها لي ولكني كنت حقًا أحتاجك.

ثم أخذت تبكي بألم أكبر ومسحت بأطراف أكمامها دموعها الحارة من على وجنتيها ولكنها لم تتوقف أبدًا عن البُكاء ثم تابعت حديثها قائلة:

– لا تخف ولا تخشَ شيئًا سأزورك كل يوم.. سأبقى إلى جوارك حتى ألتحق بك.. سنتحدث كثيرًا في مُقبل الأيام ولكن عليك ألا تدعني وحيدة مرة أخرى.. سأترك باب غرفتي مفتوحًا ليلاً لتزورني في أحلامي ولن أسامحك إن تغيبت عن لقائي يومًا واحدًا.. إن ذكرياتي عنك لا يُمكن أن تُمحى.. إني قادمة إليك فلا داعٍ للقلق.. لقد كنت بصلتي في هذا العالم على الدوام.. إني أستطيع أن أراك حتى عندما لا تكون معي!!.. اذهب أينما تُريد فسوف أجدك قريبًا.. وأرجو ألا يعتريك الغضب عندما تراني مُجددًا ولا تسألني لماذا لحقت بك؟.. إني أُريد أن أعيش أبديتي معك تحت ظل شجرة نابتة بجوار عرش الرب.. ولكن حتى يحين ذلك الوقت سأجعلك الآن تسمع لحنًا لطالما أحببته.. إنه مهر من الموسيقى يجب أن يدفعه العاشق لمحبوبته كما أخبرتني سابقًا سأجعل المقطوعة تُعزف لنسمعها سويًا كما حدث أول مرة قبل سنوات.

لقد اختلط حينها الضحك بالبكاء وأغرقت دموعها سطح حقيبتها الجلدية الصغيرة مكونة بركًا عميقة من الحزن فاعتدلت في جلستها وأخرجت الهاتف من حقيبتها وضغطت على زر تشغيل المقطوعة فعم صوت الموسيقى المكان وشق حجاب صمت القبور إلى نصفين.. إنها نفس المقطوعة المُسماة (زينة) للموسيقار العالمي (زيد ديراني) التي أهداها (موسى) (لأميرة) قبل أربع سنوات.. ارتفع صدى الموسيقى أكثر وأكثر وراحت (أميرة) تدور حول نفسها بجوار قبره فهي تعلم أنه يُريدُها دائمًا مبتهجة ولكنها سرعان ما تعود لتجلس أمام شاهد القبر لتبكي.. إن تلك الفتاة خضراء القلب ستظل على الوعد حتى يوم اللقاء فالحب لا يحتاج لكلمات منمقة لكي يبدو صادقًا بل إنه لغة يفهم أبجدياتها كل البشر فقط بعض الإشارات تكفي لكي نعبر عن حبنا... ولكن

إن كنا نحتاج لكثير من القصائد لنعبر عما بداخلنا فكيف للبكم أن يقعوا في الحب؟؟.. صحيح أن الحياة يمكن أن تكون قاسية جدًا أحيانًا فالرغبات والطموحات هي مصادر البؤس غالبًا لكن الواقع لا يزال يُغرينا لنحلم ومهما يكن فحيث توجد روائح المُحبين لا يوجد الخوف ويُصبح أمل اللقاء أكبر من ارتياب الفقد فالوقت لم يفُت بعد ويُمكننا استعادة كل شيء إن فقط آمنا بذلك ولهذا يُمكن لكل عاشق مِنا أن يُراسل محبوبته قائلاً:

– أتعلمين.. نستطيع التحدث عن قصة حُبِنا مرة أخرى من البداية..

تـــمـــت

– رواية سيرتا –

٢٠١٦/٩/٧

محمد الإدريسي

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظه للناشر

Email: Hrf_publishing@yahoo.com

ت : 0224059536/ 01279944838

١٠٥ عمارات امتداد رمسيس ٢ – مدينة نصر

شعر (موسى) بخيبة أمل مفاجأة فهو يذكر انه ذات مرة قبل ثلاث سنوات طلب من (أميرة) عنوان بيتها في قسنطينة فأجابته أنه يقع شرق باب القنطرة ويتكون من ثلاث طوابق وله بوابة زرقاء؟؟ وأخبرته أيضاً برقم المنزل ولكنه لا يتذكره فأخبر السائق أن يذهب إلى الشرق وسيُلقي نظرة مشوشة على جميع البيوت لعل أحدهم يكون ذا نافذة مفتوحة تطل منها محبوبته كما هو شائع في روايات العصور الوسطى ..

غلاف : آلاء محمد

مكتبة نوميديا 113
Telegram@ Numidia_Library

ISBN 978-977-6583-03-0
9 789776 583030

حرفا للنشر والتوزيع